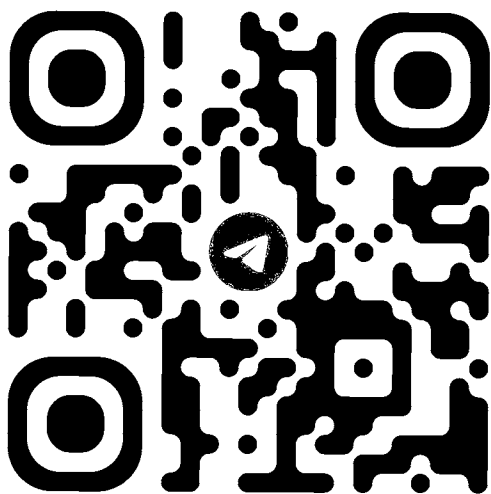


# دولتي شاكون الصوت النائم

ترجمة: نفوى مساعده  
مكتبة



# الصوت النائم



سجل في مكتبة  
اضغط! الصفحة

SCAN QR

Copyright © Doltshi Shacon 2004

All rights reserved

Arabic Language edition published by Al-ahlia-Jordan 2022



الأهلية للنشر والتوزيع

الفرع الأول (التوزيع)

المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، وسط البلد، بناية 12

هاتف: 00962 6 4638688 ، فاكس: 00962 6 4657445

ص.ب: 7855، عمان 11118، الأردن

الفرع الثاني (المكتبة)

عمان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

 AlAhliaBookstore  alahia\_bookstor

نستلحق

سلسلة (نص الآخر) (10)

الصوت النائم / رواية إسبانية

دولتي شاكون / إسبانية

ترجمة: تقوى مساعدة / الأردن

الطبعة العربية الأولى، 2022

حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمان، هاتف 00962 7 95297109

 ®

الصفّ الضوئي: إيمان زكريا خطاب، عمان، هاتف 00962 7 95349156

مكتبة

t.me/soramnqraa

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإبداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2021/11/6373)

الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-428-8

نمط الحروف

10

إمالة من إسبانيا

مكتبة

t.me/soramnqraa

# دولتي شاكون الصوت النائم



ترجمة: نفوى مساعده



إلى كلّ من وجدوا أنفسهم مرغمين على التزام الصّمت  
«بلا جدوى، ترسم القلوب على النافذة  
فقائد الصمت  
في الأسفل، في بهو القلعة، يجنّد العساكر»

باول تسيلان



## عن الحرب الأهلية الإسبانية

1939-1036

اندلعت الحربُ الأهليةُ الإسبانيةُ سنة 1936، عندما انقلب الجنرال فرانيسكو فرانكو على الجمهورية الإسبانية الثانية (التي تأسست في نيسان (إبريل) 1931). قاتل على الجانب الجمهوري الشيوعيون والاشتراكيون والقوى اليسارية، وقاتل على الجانب القومي (مع فرانكو) الانقلابيون العسكريون وحزب الكتائب الإسبانية والقوى اليمينية.

حاز الجانب القومي على الدعم الكامل من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، حيث زودوه بالجنود والذخائر والطائرات الحربية والأموال. أما الجانب الجمهوري فلم يتلقَ الدعم الذي كان يتوقعه من «القوى الديمقراطية» الممثلة بفرنسا وبريطانيا. وكان الجمهوريون يشترون أسلحتهم وذخائرهم من الاتحاد السوفيتي بشكلٍ أرهق الخزانة الجمهورية وأفقدتها ثلثي احتياطي الذهب لديها.

شارك الآلاف من المقاتلين المتطوعين من أكثر من 60 جنسية في هذه الحرب التي وُصفت بأنها صراعٌ طبقيّ، وحرب دينية، ومواجهة بين الديمقراطية والديكتاتورية.

استمرّت الحرب ثلاث سنوات، ارتكبت فيها الكثير من الفظائع، وسقط فيها قرابة النصف مليون قتيل من الجانبين -على الرغم أن هذه الحصيلة موضع تنازع حتى اليوم- وانتهت بانتصار القوميين، وبتعيين الجنرال فرانكو رئيساً للدولة ليحكم إسبانيا بالحديد والنار حتى وفاته على فراشه سنة 1975.

وُلدت «دولشي» سنة 1954 وسط عائلة يمينيّة مُحافِظة في مقاطعة إكستريمادورا. وكان والدها عمدة مدينة «ثافرا» وداعماً للقوميين. توفّي والدها وهي في سن الحادية عشرة وانتقلت مع أختها التوأم إلى الدراسة في مدرسة داخلية، وهناك بدأت تكتب الشعر ليخفّف عنها وحدتها. وعلى الرغم من أنها بدأت تكتب في عمر مبكر، إلا أنها نشرت كتابها الأول قبل أن تبلغ الأربعين بقليل. استغرقت أربع سنواتٍ في كتابة رواية «الصوت النائم». لبثتها تنتقل في المدن الإسبانية بين المراجع والأشخاص، تجري المقابلات وتجمع المعلومات لتروي لنا حكاية الحرب ومن كانوا على جانبيها، ولتنقل إلينا حياتهم قبل الحرب وبعدها، بلغةٍ فادحةٍ الجمال، بدقّة كاميرا وبرشاقة قصيدة.

كانت «دولشي» يساريةً على الرغم من تاريخ عائلتها المحافظ، ورفعت شعار «لا نحقد ولا ننسى» تعبيراً عن سعيها إلى رواية قصة الحرب من منظور المغلوبين بعد أن سُمعت قصة الحرب سنواتٍ من منظور المنتصرين، ودافعت عن ضرورة أن تواجه إسبانيا والإسبانيون جراح الماضي التي ترى أنها ما زالت تلقي بظلالها على البلاد حتى اليوم.

وقفت «دولشي» ضدّ مشاركة إسبانيا في الحرب على العراق، وزارت بغداد لتعبّر عن دعمها للشعب العراقي بعد آذار (مارس) من سنة 2003.

خسرنا «دولشي» في أواخر 2003 لسرطانٍ لم يمهلها إلا شهراً واحداً، وبقيت معنا كتبها وقصائدها ودفاعها عن كل المظلومين.



شكراً...

للأصدقاء الأعزاء «لويس لانديرو» الابن، و«مار كورريا غارثيا»،  
والأستاذ المترجم وليد السويركي، وأستاذة الأدب الإسباني د. «رشا  
العريض»، ولزوجي وصديقي «محمد نجيب»، لكل ما قدموه من دعم  
ومئات الأسئلة التي أجابوا عنها بكل كرم وطيبة.

تقوى



## ملاحظة للقراء

ستجدون في الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب بعض الهوامش  
المكتوبة رمزاً QR

امسحوا الرمز بهواتفكم الذكية باستخدام تطبيقات قراءة الـ QR  
ليأخذكم الرمز إلى أغنيات الكتاب كلّها.



الجزء الأول



كان اسم المرأة التي ستموت «أورتينسيا». كانت عيناها سوداوين، ولم تكن تتحدّث مُطلقاً بصوتٍ عالٍ. وعندما كان فمها يفيض بضحكها كانت تفرّ منها جملة «يا أمي يا أمّ حياتي»، التي لم تكن قد تعلّمت بعدُ كيف تضبطها، وكانت تكررُها وهي تكاد تصرخ مُسكّةً ببطنها. كانت تُمضي جزءاً كبيراً من النّهار وهي تكتب في دفترٍ أزرق. كان شعرها طويلاً، معقوداً في ضفيرةٍ منسدلةٍ على ظهرها، وكانت حاملاً في الشهر الثامن.

كانت قد اعتادتُ على الكلام بصوتٍ منخفض. بذلت جهدها لتعتاد، واعتادت. وتعلّمت ألا تطرح الأسئلة على نفسها، وأن تتقبّل تسلّل الهزيمة إلى الأعماق، إلى أعماق الأعماق، دون أن تطلبَ إذنًا أو تقدّم تفسيراً. وكانت تشعرُ بالجوع والبرد وبألم في ركبتيها، ولكنها لم تكن قادرةً على التوقّف عن الضّحك، كانت تضحك.

كانت تضحك، لأن «إلبيرا»، الأصغر بين رفيقاتها، عبّأت قفازاً بالخمّص لتصنع رأس دمية، إلّا أنّ وزن الرّأس جعلها غير قادرةٍ على تحريك الدّمية.

ولكنها لم تستسلم. تصارعتُ أصابعها الضّئيلة مع القفاز الصّوفي، ورافق العرضُ صوتها الذي رفقته متعمّدة، لتُبعد الخوف. خوف «إلبيرا». خوف «أورتينسيا». خوف النساء الشريكات في عادة الكلام بصوتٍ منخفض. الخوف في عيونهنّ الهاربة خوفاً من رؤية الدّم. خوفاً من رؤية الخوف العابر في عيون أقربائهنّ.

كان يومَ الزّيارة.  
والمرأة التي ستموت، لم تكن تعرف أنّها ستموت.





عادت دميّة «إلبيرا» لتصبح قفّازاً في يدها اليمنى. تأملتّها «أورتينسيا» دون أن تتوقّف عن مداعبة بطنها، مُحاولَةً ألاّ تنتبه «إلبيرا» لنظرها. قفّاز. قفّازٌ وحيدٌ، ضئيلٌ حاكته يدا أمّ حانية يمكن أن يتحوّل إلى حسرةٍ إذا لم يُراعَ الحذر، إذا لم يعد الحِرصُ لحظةً رفيقَ الرحلة بسبب زلّة. لحظةٌ واحدةٌ هي كلّ ما يلزم لكي يعود وجهٌ، ولكي ترى عينان ما كان من الأفضل ألاّ تراه.

وجدت «أورتينسيا» نفسها إلى جوار «إلبيرا» في قاعة الزيارة، وهي غرفة يتوسّطها ممرٌّ محاطٌ بسياجٍ ملتفٍّ وحديديّ. كانت إحدى السجّانات تتمشّى في الممرّ وتراقب السّجينات وأقرباءهنّ. كان جدُّ «إلبيرا» يزورها، أما «أورتينسيا» فكانت تزورها أختها «بيبا». ولم يكن أيٌّ من الأربعة قادراً على سماع أيّ شيء.

كانت «أورتينسيا» تومئ، وهي تتحدّث لفِهمَ أختها أنّ الحملَ لا يسبّب لها أيّ عناء. كانت تلفظُ الكلمات بدقّة، واحدةً واحدة، الكلمات اللازمة، ببطءٍ، لكي توصّل «بيبا» إلى زوج «أورتينسيا» الكثير من القبلات، وكانت تحضنُ نفسها لكي ترسل إليه حُضناً.

لم تكن جلبة الزّوار تتيح لـ «أورتينسيا» أن تسمع ما كانت أختها تجاهدُ لتقوله لها. حاولت «بيبا» صارخةً أن تُبلغها أنّهم لم يُحدّدوا بعدُ موعدَ محاكمتها.

-لم يُحدّد بعدُ موعدُ محاكمتكِ

-ماذا؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

-المحاكمة، لا نعرف عنها شيئاً.

تمسّكت «أورتينسيا» بالسّياج الذي يطوّق الممرّ الذي يحول بينها وبين «بيبا».

تمسّكت «أورتينسيا» بالسّياج المقابل لتقترب منها أكثر، وفي تلك اللحظة رأّت كلتاهما الحارسة التي كانت تمشي في الممرّ، وهي تدير رأسها وتحّدق بقفاز «إلبيرا».

\* \* \*

حبوب الحمص التي ملأت رأس الدمية كانت ما تزال ملطخة بالدم. فككت «إليرا» الدمية أمام جدها المتفاجئ الذي كان يتفرج من الجهة الأخرى من الممر. رفعت القفاز. لم تلتفت الحارسة مُفترضةً أن الصبية كانت تسلي جدها بلعبة، ومضت تتجول في الممر بخطى صارمة ويدها معقودتان خلف ظهرها. وعندما أصبحت الحارسة بعيدة عنها بالقدر الكافي، أخرجت «إليرا» حبات الحمص الملطخة بالدم وأشارت إلى ركبتيها .

منعت المسافة والظلام العجوزَ من رؤية جراح حفيدته، التي ما تزال مفتوحة .

توقفت الحارسة فجأة. أدارت رأسها، تجهت ملامحها. صرخت: «إليرا» إلى الخلف! استأنفت المسير ببطء وتوجهت ناحية «إليرا» زامة شفتيها في إيماة تدعي أنها ابتسامة. عقدت أصابعها دون أن تزيل يدها عن ظهرها وصرخت من جديد :

-«إليرا» إلى الخلف!

خطت «إليرا» خطوة إلى الوراء، في نفس اللحظة التي ضربت فيها الحارسة السياج بيدها اليسرى على مستوى وجه «إليرا» .

-انتهت زيارتك. اذهبي إلى مهجعك وانتظريني هناك.

وأضافت دون أن تصرخ مُوجهة الكلام إلى جد «إليرا» :

-انصرف

نظر العجوز إلى المرأة الواقفة إلى جواره: إلى «بيبا»، أخت المرأة التي ستموت. ساء لها بعينه، لكنه لم يسأل عما حدث، لأنه من الأفضل ألا يسأل.

- اذهب يا عم، انتهت الزيارة لك ولحفيدتك.

وضعت «إليرا» حبات الحمص في جيها، ولبست القفاز في يدها الضئيلة وأخفتها أيضاً في جيها وهي تكبت رغبة في أن تلوح بها لتودّع جدّها

لم يتجرأ العجوز أيضاً على توديعها. نظر إليها. ثم استدار. فتح لنفسه طريقاً بين الأهالي الذي كانوا مستمرين بالصراخ، وهم يتدافعون ليأخذوا المكان الفارغ الذي تركه أمام السياج الحديدي. وغادر دون أن يفهم شيئاً.

لم يفهم أيّ شيء بتاتاً.

\* \* \*

لم يكن الثلج قد نزل. شكّلت النّساء حلقاتٍ في السّاحة ليجمعن  
دفعاً أجسادهنّ ويستجمعنَ بينهن شيئاً من الحرارة. كنّ يراقبن السماء  
مُتمنيّاتٍ أن ينزل الثلج. أصرّت «ريمي»، وهي الأكبر في المجموعة، أن  
الجوّ سيعتدل إذا نزل الثلج، أما «توماسا» الإكستريادوريّة<sup>(1)</sup>، ذات الجلد  
المصفّر والعينين اللوزيّتين فقد كانت تنظر إليها مُشكّكة.

- سيعتدل الجوّ، خذي بكلامي.

- وأنّ ما أدراك!

- أعرف، لأنّي ابني يعيش في «ليون» وهو من يخبرني. كما أن الجوّ  
اعتدل العامَ الماضي عندما نزل الثلج.

- سنرى

مضت عليهن ثلاثة أيّام وهنّ ينظرن إلى السماء.

- وماذا يفعل ابنك في «ليون»؟

- يعمل في المناجم.

- وهل رأى البحر؟

- لكن «ليون» لا بحرَ فيها.

- آه.

(1) من مقاطعة إكستريادورا، جنوب غرب إسبانيا.

- ولكنه رأى «لا باسيوناريا»<sup>(1)</sup> ذات يوم.

- مستحيل!

كانت «ريمي» تسليّ أصابعها بتصفيف شعر «أورتينسيا». تجدّله ثم تفكّه مرّة تلو الأخرى.

- كان شعري طويلاً هكذا، وأسودّ هكذا.

- أحقّأ رأى ابنك «لا باسيوناريا»؟

- من بعيد، لكنّه رآها.

لبشّن ثلاثة أيّام وهنّ ينظرن إلى السّماء. وأمضت «إليرا» ثلاثة أيّام محرومة من رؤية السّماء. ثلاثة أيّام أمضتها حبيسة زنزاة العقاب لأنّها حاولت أن تشرح لجدها أنّها تحمّلت الألم في أثناء التّحقيقات، جالسة على ركبتها اللتين انغرزت فيهما حبّات الحمّص دون أن تفتح فمها أو تجيب عن أيّ سؤال أو تكشف هويّة أخيها «باولينو».

والآن، بعد أن امتنعت عن الانضمام إلى الحلقة التي تحاول فيها كلّ من «توماسا» و«ريمي» و«أورتينسيا» تخفيف البرد، جلست «إليرا» في إحدى زوايا الساحة تداعب وجتيها بالقفازين اللذين حاكتها لها أمّها، وبدأت تسعل.

- مرضت «إليريتا»<sup>(2)</sup>

- أصابتها الحُمى منذ خرجت من الحجز الانفراديّ

- ينبغي لنا أن نُبلغ شرطة الحرس المدنيّ

- هذا على فرض أنّها ستشغل بالها بك

---

(1) «لا باسيوناريا»: «دولوريس إيبارروري» سياسيّة إسبانيّة شيوعيّة، كانت رئيسة الحزب الشيوعي الإسباني وكانت بمثابة أم روحية للشيوعيين الإسبان.

(2) «إليريتا»: هو تدليل اسم «إليرا» وصيغة التصغير منه.

كفّت «ريمي» عن تجديد شعر «أورتينسيا».

- أنا سأذهب.

- حسناً اذهبي، ستعودين حالاً.

- أنتِ كثيرة التبرُّم يا «توماسا». لا تعرفين شيئاً سوى التبرُّم،  
تتبرّمين فحسب، اللعنة!

تخصّرت «توماسا» عاقدةً يديها تحت شالها الصّوفيّ وواجهتها:

- وأيُّ خراءٍ يمكننا أن نفعله هنا سوى التبرُّم؟

لم تكن جدالات «توماسا» و«ريمي» تطول أبداً، فقبل أن تغضبا  
كانت «أورتينسيا» تتوسّط بينهما وتهدّئهما بسهولة. لكنها هذه المرّة لم تكن  
تسمعهما أصلاً، لأنّ تركيزها كان مُنصبّاً بالكامل على «إلبيرا». كانت  
تأملها، حريصةً على ألاّ تنتبه «إلبيرا» لنظراتها.

كفّت «أورتينسيا» عن تلمّس بطنها. وضعت يديها على خصرتيها  
وهي تمشي إلى زاوية «إلبيرا»، التي كانت تمرّ على وجنتيها القفازين  
اللذين صنعتها لها أمّها قبل أن تموت بقليل.

كانت «إلبيرا» ترتعش.

\* \* \*





ليست الحمى إلا شكلاً آخر من أشكال الهذيان. والهذيان كالحلم. والحلم يعني أن يحس المرء بنفسه وكأنه بعيد. الحلم يعني أن يكون المرء في بيته مرةً أخرى. بعيداً. أن يشم البرتقال. «إلبيرا» الآن في البيت. تُبهرها الموسيقى التي تسمعها في الراديو.

عيونٌ خُضِرَ، خُضِرَ كالحبق...

كانت «إلبيرا» شغوفاً بـ«ميغيل دي مولينا»، و«ثيليا غاميث»، ومسرحيات الثارتويلا<sup>(1)</sup>، و«أنتونيتا كولومي»، والسيدة «كونتشا بيكير». كانت تتمنى لو تصبح مطربةً، وأن يؤلف لها الأساتذة<sup>(2)</sup> «باليردي» و«ليون» و«كيروغا» كوبلا<sup>(3)</sup> كالـ«عيون الخضر» لها وحدها، مع لمعة السكين... والأخضر أخضر ليموني<sup>(4)</sup>.

ولكن والدها منع أمها منعاً باتاً من تغذية أحلام الفتاة. أطفأت أمها، السيدة «مارتينا»، الراديو عندما أحست بوصول زوجها. لا ترى هي أن الأغنيات بذيئة، لكنها مع ذلك تطفئ الراديو لكي لا يغضب.

- ماما

- 
- (1) الثارتويلا: شكلٌ موسيقيّ اشتهرت به إسبانيا وهو عملٌ مسرحيٌّ غنائيٌّ يتناول عادةً مواضيع فلكلورية يدور فيها الحوار بالكلام والغناء.
  - (2) ثلاثي الشعراء والموسيقين الأندلسيين الذين كتبوا بشكلٍ جماعيٍّ أشهر أغنيات الكوبلا الأندلسية، من بينها كوبلا «العيون الخضر» Ojos Verdes.
  - (3) شكل شعريٌّ وغنائيٌّ يشتهر به أقلّيم الأندلس.
  - (4) الجملة الأخيرة مأخوذة من كلمات أغنية العيون الخضر.

أطفأت السيدة «مارتينا» الراديو. وعادت «ريمي» لتقول أنه لا مكان في العيادة، وأن الحارسة قالت لها إن العيادة ممتلئة.  
- هذه السجانة بلا قلب.

أما الإكستريما دورية ذات الجلد المصفر فأومأت دون أن تقول أية كلمة قاصدة أن تقول «ألم أقل لَكُنْ؟» وأخفضت ذقنها وجفونها معاً وثنت شفيتها المزمومتين في نفس الوقت.

لم تسمح لـ «أورتينسيا» بالاقتراب من حصيرة «إليرا» خوفاً عليها من مخاض سيئ في حال أصيبت بالعدوى.

- لا تقربي، حتى لا يحدث مكروه، فما نحن فيه يكفيننا ويزيد.

استمرت بوضع الحرق المبللة على الجبهة الملتهبة، وعلى الذراعين الملتهبين، وعلى ظهر الرقبة ووجهها.

- ماما

ولكن حرارتها لم تنخفض. أبقى الهذيان على الحلم في عيني «إليرا» المفتوحتين، وخفية عن والدها، أخذت تغني كوبلا لأمها وأخيها «باولينو». صفقا لها وشعرت بأنها فنانة. قالت لها أمها وهي تضع طبقاً من البرتقال اليوسفي على المنضدة: «لن أفهم يوماً من أين جاءتك خفة الظل هذه... لن أفهم يوماً».

- لا أجد تفسيراً.

ولم تجد السيدة «مارتينا» تفسيراً، لأنها ابنة عسكري يمكن وصفه بأنه فاتر وممل، وهي مولودة في «بامبلونا»، وزوجة عسكري آخر فاتر وممل أكثر من أبيها إن كان هذا ممكناً، تزوجت في «بورغوس» ولم تعرف يوماً لا الفكاهة ولا المرح، لا لديها ولا لدى عائلتها أو عائلة زوجها.

- «بالنثيا»<sup>(1)</sup> هي السبب يا ماما. الشمس، والأزهار، والجو. الذنبُ ذنبُ «بالنثيا»، وذنبك أنتِ لأنكِ أنجبتِها هنا كما لو أنّها برتقالة. ابتسم «باولينو». «باولينو». أخوها الأكبر. بطلها، على الرغم من أنّه لم يكن حينئذ قد ذهب إلى الحرب بعد. «إلبيرا» تحبّ «باولينو»، الذي يضحك منها، ومن أمّها، يضحك من الاثنين، وتناوّه «إلبيرا»:

- ماما

كانت «أورتينسيا» تكتب في دفترها الأزرق. كتبت إلى «فيلبي» أنّها تشعر بركلات الطفل في بطنها، وآته إن كان ولداً فستسمّيه على اسمه. كتبت أنّها تظنّ أنّ «إلبيريتا» ستموت، كما ماتت «أمبارو» و«ثيليتا» دون أن يتوقفن عن السعال، وكما مات أبناء «خوسيفا» و«أماليا» اللتين كانتا في مهجع الأمّهات. وكتبت أنّ الصّغيرة ذات الشعرِ الأحمر مصابةٌ بحُمى شديدة. وكلُّ ما يمكنهنّ فعله لأجلها هو إعطاؤها عصير نصف البرتقالة التي تُعطى لكلِّ واحدةٍ منهنّ بعد الغداء. وكتبت أنّ حبّات البرتقال لا تعصّر كثيراً لأنّها جافّة جداً.

- ماما

تبادلت «ريمي» و«توماسا» النظرات، ونظرنا إلى «أورتينسيا». تذكّرت «ريمي» أمّها. كانت تتمنّى في كثير من الأحيان أن تنادي أمّها، هكذا كما تنادي «إلبيرا» أمّها، على الرغم من أنّ أمّها ميّنة منذ أكثر من عشرين عاماً. تمّنّت ذلك كثيراً، لكنّها لم تجرؤ قطّ على النداء. أسندت «توماسا» الصّغيرة وأعطتها ملاعق من عصير أنصاف حبّات البرتقال التي تُعطى هنّ للتّحلية. ابتلعت «إلبيرا» العصير. وبين ملعقةٍ وملعقةٍ كانت تناوّه:

(1) بالنثيا أو فلنسية (بلنسية)، إقليم يقع شرقيّ إسبانيا ويشتهر بإنتاج البرتقال.

- ماما

تشتاق «توماسا» أيضاً إلى أمّها، وكذلك «أورتينسيا» التي رفعت  
نظرها عن دفترها الأزرق.

- ماما

آهات إلبرا هي آهاتهنّ جميعاً.

\* \* \*

على باب السّجن كان جدّ «إلبيرا» ينتظر المرأة التي تعرّف إليها في زيارته السّابقة. لم يسمحوا له أن يرى حفيدته. قالوا له إنّها مريضة. لكنهم أخذوا منه السفرطاس<sup>(1)</sup> الذي يجلب فيه الطّعام لها كلّ مرّة وأعادوه إليه فارغاً، وهذه إشارة جيّدة. والآن ينتظر «بيبا»، وهي أخت المرأة التي تكتب مذكراتها في دفترٍ أزرق.

- يا آنسة

كانت صغيرة الحجم وشقراء. تمشي بخطواتٍ قصيرة وسريعة لأن المطر بدأ يتساقط.

- يا آنسة

كانت ترتدي معطفًا أكبر من حجمها، وكانت خصلةً من شعرها تهرب من المنديل الذي يغطّي رأسها. منديلٌ أسود كثير الغُصُون.

- يا آنسة

بتباطؤ رفع العجوز قبّعته ليلقي التّحيّة وهو يقترب منها.

- أتقصّدي؟

- اعذريني يا آنسة

لم يكن أيّ منهما يحمل مظلة. عيون كليهما زرقاء فاتحة، حتى إنّها سماويّة تقريباً.

(1) سفرطاس: إناء معدني لحفظ الطّعام، قد يكون مكوّنًا من عدّة طبقات.

- أتعرفين شيئاً عن حفيدتي؟

- مَنْ حفيدتك؟

- «إليرا غونثاليث تولوسا»، حفيدتي.

- الصَّغيرة ذات الشَّعر الأحمر؟

- بالضبط، نعم.

- إنَّها مع أختي في المهجع، لكنَّها لم تخرج اليوم للزيارة.

- صحيح صحيح، بالضبط. أقصد..

- الآن تذكَّرتك.

- أتذكَّرين؟

رفع العجوز ياقات سترته ليغطِّي بهما عنقه. كان يرتدي بدلةً وربطة عنق سوداء، لكنَّه لم يكن يرتدي معطفًا، وهو ما أثار استغراب «بيبا»، لأنَّه يبدو سيِّدًا مُحترمًا، وجودة ملابسه واضحةٌ حتَّى في اللِّباد الذي صُنعت منه قُبَّعته.

- نعم، عاملوها بطريقةٍ سيِّئة، بالغة السَّوء، نعم. اقترب هنا لكي لا نتبلل.

تبعها العجوز، وحالما احتَمَى من المطر رفع قُبَّعته.

- اعدريني، لم أعرِّف بنفسِي. اسمي «خابيير تولوسا ايبارمنغوينديا».

- وأنا خوسو

- تشرَّفْتُ بمعرفتكِ

- «خوسيفا»<sup>(1)</sup> رودريغيث غارثيا، في خدمتك.

---

(1) يمكن تدليل اسم خوسيفا باختصاره إلى «خوسو» أو تحويله إلى «بيبا».

شعرت «بيبا» بالأسف عندما رآته: رجلٌ له كلُّ هذا القَدْر، لكنّه متجمّدٌ من البرد. التقت نظرات عيونهما الزّرقاء لأوّل مرّة. كانت «بيبا» تحمي نفسها من البرد بمعطفٍ كان لوالدها، ولا تعرف أنّ جدّ «إلبيرا» باع آخر ما تبقى من معاطفه منذ أقلّ من أسبوع.

استعدّت الشّابّة للإنصات إلى العجوز. عاينت نُحوْلَه الشّدِيد، وجِلْدَه الرّقيق الشّاحب الذي يكاد يكون شفافاً، وأناقة أصابعه الطّويلة التي تثبت الياقة التي تدفّئ عنقه.

- تفضّل بالكلام.

حالما بدأ جدّ «إلبيرا» بالكلام شعرت «بيبا» بالهشاشة في صوته. تعرف هذه الهشاشة جيّداً. أنصاف كلمات. كلمات يطول البحث عنها، ويحمّدُ صوتها قبل أن تصل إلى الشّفتين.

- حسناً، قالوا لي إنّها مريضة.

كلماتٌ ترفض أن تُنطق.

- هل قالت لكِ أختكِ شيئاً عن حفيدي؟

يريد أن يسأل عن شيءٍ آخر.

- هل تعرفين إن كانت قد...؟

يرتعش الإناء المعدنيّ في يد السيّد «خابيير تولوسا إيبارمنغوينديا». يريد أن يسأل إن كانت قد ماتت. «بيبا» تعرف أن هذا هو السّؤال الذي يريد أن يسأله جدّ «إلبيرا»، وتعرف أنّه لا يجزؤ على طرحه.

- أخذوا منك الطعام، أليس كذلك؟

قالت له هذا وهي تشير إلى الإناء الفارغ.

- نعم.

- إذن لا تقلق.

وقالت له إنها عادت إلى البيت وسفرطاسها ممتلئ عندما زارت والدها آخر مرة في سجن «بورليير».

- أتعرف يا سيدي أن والدي كان معلم خراطة في قرطبة؟

وحديثه عن مجيئهم من قرطبة عندما انتهت الحرب، لأن والدها كان من مؤيدي الجمهورية وكان هذا معروفاً لدى الجميع هناك.

- ولا بدّ أنهم كانوا يعرفون الأمر هنا أيضاً، لأنهم أمسكوا به لحظة وصوله إلى مدريد.

وقالت له إنهم قالوا لها على بوابة سجن بورليير «لا تُحضري له المزيد من الطعام فلن يحتاج إليه»، وأنهم رفضوا السفرطاس عندما همّت بإعطائهم إياه. والدك لم يعد موجوداً هنا. أين هو؟ ليس هنا، لا تسألني، انصرفي، ولا تعودي أبداً، وإياك والبكاء ولفت الأنظار.

- هكذا عرفتُ أنا.

قالت له هذا وهي تشير إلى سفرطاسها.

هكذا عرفتُ أنها لن ترى والدها مرةً أخرى.

- وهكذا يمكنك أن تعرف أن حفيدتك ما زالت في الداخل.

أشارت «بيبا» هذه المرة إلى سفرطاس جدّ «إلبيرا» الفارغ. سيطر الجدد على رغبته في البكاء، وفعلت هي الشيء ذاته.

\* \* \*



ما زالت «بيبا» تتساءل كيف استجمعت الشجاعة الكافية لترسل رسالةً إلى «أورتينسيا»، وما تزال متوترةً على الرغم من أنها عادت منذ ساعات من السجن. ودّعت جدّ «إلبيرا» منذ ساعات. مرّت ساعات منذ رأت السيّد «خابيير» يمشي تحت المطر، مطأطئاً رأسه، مُبتعداً عنها وهو يحتضن سفرطاسه الفارغ. وصلت إلى بيت السّادة منذ ساعات، وها قد أعدّت الحساء للسّيد «فيرناندو».

ترتعش.

الحذر واجب.

لأنها ليست شجاعةً كأختها التي لم تتردّد في الانضمام إلى جماعات المقاومة. فقد كانت «أورتينسيا» مُقاومةً ومُقاتلةً غيرريا<sup>(1)</sup> أيضاً. انضمت إلى جماعات الغيرريا بعد فترةٍ قصيرةٍ من وفاة والدها، وكانت بالكاد حاملاً في شهرها الخامس.

لقد كذبت على جدّ الفتاة ذات الشّعر الأحمر.

---

(1) غيرريا Guerrilla: هي تصغير كلمة «guerra» ومعناها «الحرب». ظهرت الكلمة في القرن التاسع عشر عندما هبّ الثّوار الإسبان والبرتغاليون للقتال ضدّ جنود نابليون في تجمّعات مننّمة بطريقةٍ تختلف عن الجيوش التقليدية في ما عُرِفَ لاحقاً بـ«حرب العصابات». انتقلت الكلمة إلى اللغة الإنجليزية التي تلفظ حرفي L الصامتة في الإسبانية، لتُلفظ «غوريلا» وهو المصطلح الذي قد نجده في بعض المصادر العربية.

لقد كذبت على الرجل المحترم صاحب الكنيتين الغريبتين<sup>(1)</sup>، لأنَّ على المرء في هذه الظروف أن يحتفظ ببعض الأسرار. لم يأخذوا والدها لأنَّه كان مؤيداً للجمهورية، بل أخذوه لأنهم كانوا يعرفون أنَّ زوج «أورتينسيا» كان في الجبل، وقتلوه لأنَّه لم يقبل الإفصاح عن مكانه.

كان والدها شجاعاً. شجاعاً مثل «أورتينسيا»، لأنهم أخذوها هي أيضاً ليحققوا معها بعد أن لم يُعدَّ بإمكانهم أن يحققوا مع والدها.

كانوا يأخذونها تقريباً كلَّ يوم ظناً منهم أنها ستقول لهم ذات يوم أنَّ زوجها مع جماعة «الجاكيت الأسود»، وظناً منهم أنها ستفصح لهم عن مكانه.

يوماً ما، ستضجر «أورتينسيا» من كثرة الذهاب والإياب وهي ترزح تحت وطأة الخوف، لكنها لم تتعب. تحمَّلت نصيبها. ولحقت زوجها لأنَّها تلقت ركلةً في بطنها من فرقة حرسٍ محليٍّ جاءت من برشلونة. لم تخف إلا من فقدان جنينها.

كانت «أورتينسيا» شجاعاً.

أما «بيبا» فما كانت لتحتمل ركلةً واحدة. «بيبا» لا تحتمل. إنَّ قبضوا عليها فهذا يعني أنَّهم قبضوا على الجميع. «بيبا» تشبه أمَّها، التي لم تحتمل فصل الشتاء بعد أن ولدت طفلتها قبل الأوان: طفلتها «بيبا». كانت صغيرة الحجم، وقليلة الحيلة، وضعيفة وشقراء، رخوة، مثل أمَّها.

الحذر واجب.

فكرت.

وظلَّت تراقب الصينية لأنَّ يديها لم تكفَّا بعدُ عن الارتعاش، ولم تكن تريد أن ينسكب الحساء الذي تحمله للسيد «فيرناندو». مشت ببطءٍ

(1) يحمل كل إسباني كنتين، واحدة من طرف والده والأخرى من طرف والدته.

وهي تنظر إلى الأمام وبعدئذ إلى صحن الحساء ثم إلى الأرض ومن بعدُ  
إلى الأمام ثم إلى الصحن والأرض.

حاولت ألا تنظر إلى الخبز.

مشت ببطء واستغرقت في الوصول إلى غرفة الطعام وقتاً لم  
تستغرقه قبل ذلك قطّ. أصدرت الملاعق الفضيّة رنيناً عندما وضعت  
الصينيّة على المائدة. لكنها لم تدلق من الحساء نقطة واحدة. ولا أيّ نقطة.

- «بيبا»

وصل صوت السيّد «فيرناندو» من غرفة الجلوس. استجابت  
للنداء وهي تسحب خصلة شعرها التي انسدت على جبينها، ووقفت  
قرب الموقد المشتعل، لتستغلّ الحرارة قليلاً وهي تسأل:

- تحت أمرك؟

ترك السيّد «فيرناندو» الجريدة على رُكبتيه وخلع النظارة لينظر  
إليها:

- الجو بارد. سأتناول العشاء هنا اليوم.

تركت «بيبا» دفء اللهب وعادت إلى الصينيّة والحساء، وقد  
عزمت على أن تسيطر على ارتعاشها. لم تكن تريد أن ترى الخبز، لكنها  
تنظر إليه. تنظر إليه وتبتسم وهي ترفع الصينيّة مرّة أخرى. تنظر إليه.

تبتسم.

ترتّش.

وتفكّر في «أورتينسيا». تخيلت ارتعاشها عندما تعضّ خبزها،  
وعندما تلمس شفتها رسالة «فيليبي». الرسالة التي أحضرتها هي بنفسها  
من طريق تلّ «أومبريّا»، من تحت الحجر الثالث بعد عمود النور المشقوق  
من منتصفه. كان حجراً كبيراً إلى حدّ ما ومسطّحاً جداً وأمامه شجيرة

تخفيه عن الطريق. نفس الحجر الذي علّمه لها زوج أختها «فيلبي» عندما أخذوا «أورتينسيا»:

-انظري، وركّزي جيّداً. هنا في الأسفل... سأترك لك غداً شيئاً داخل علبة صفيح مخبّأة هنا في الأسفل. تأخذينه دون أن يراك أحد وتوصلينه إلى «تينسي». لأنّه كان دائماً يناديها «تينسي».

تأخذينه دون أن يراك أحد. نظرت «بيبا» إلى عينيه ولم تُرد أن تقول له إنها تشعر بأنها ستسقط مغشياً عليها من الخوف. قالت له إنها جاءت إلى التلّ لتُحدّره من أن الحرس المدنيّ يُعدّون الحيوانات ليلاً في مزارع «إل ألّوجانو» ويُرغمون أهالي المنطقة على تسليم مفاتيح الزّرائب، وأنهم يعيدون المفاتيح في الصّباح ويعدّون الحيوانات من جديد ليعرفوا من هم الذين يبيعون المؤونة لمقاتلي الغيرريا. وأن «أورتينسيا» وقعت في أيديهم بهذه الطّريقة، وهي توشك أن تشتري دجاجة. وأنها جاءت فقط لتخبره بما جرى لكي لا يتظرها. وتمنّت لو أنها قالت له إنها ذهبت والخوف يسحقها، وأنها لما كانت تنتظر «فيلبي» قرب الشّجيرة وسمعت كلمة السرّ المكوّنة من ثلاث ضربات بالحجر، كادت تنسى أنّه ينبغي لها أن تردّ بثلاث ضربات أخرى. وكانت تريد أيضاً أن تقول له إنها لن تعود إلى التلّ أبداً. ولكنها لم تُقلّ. نظرت إلى عينيه مباشرة ورأت فيها نظرة أختها، رأت نفس النظرة التي حدّجتها بها «أورتينسيا» عندما طلبت منها أن تذهب إلى التلّ لتقول لـ«فيلبي» ألاّ يتظرها. كان في عيني «فيلبي» النظرة ذاتها، وهكذا وعدته «بيبا» بأن توصل إلى «أورتينسيا» ما يريد أن يرسله إليها.

إلاّ أن المرّة الأولى كانت أسهل. ففي ذلك اليوم كفّت قدماها عن الارتجاف حالما رفعت الحجر المُسطّح المخفيّ خلف الشجرة وفتحت علبة الصّفيح، لأنّ الشّيء الذي تركه «فيلبي» لـ«أورتينسيا» لم يكن شيئاً يُمنع حملُه. وعندما وصلت إلى سجن «لاس بيتناس» سلّمته عند الباب إلى الرّاهبة المسؤولّة عن أخذ الطّرود. كان مجرّد دفتر فارغ. دفتر أزرق.

قبل أن تبلع الورقة، أبقئها «أورتينسيا» في فمها. قرأتها أكثر من عشرين مرة. لقد حفظتها والتزمت بتوجيهات «فيلبي». لا تمزقيها، يمكنهم أن يجدوا القطع. لا تريد أن تبتلعها، تريد أن تُبقي في فمها القبلات التي أرسلها إليها «فيلبي». لا تحرقها، فقد يفاجئوك قبل أن تكون قد احترقت كلها. تريد أن تذوق اسمها الذي كتبته يد «فيلبي».

كُلِّها يا تينسي، طعمها ليس سيئاً، وفكّري قي. الورقة آخذة بالذوبان، لكن «أورتينسيا» لا تريد أن تبتلعها. فكّري في أنني سأكون في فمك يا تينسي. الكرة الجافة التي تكوّنت في البداية صارت الآن عجينة مَرَّة لها طعم الحبر. لا أريد أن أبتلعها، ولكن خطوات الحارسة تقترب. أرسل إليك قبلاتي الكثيرة يا تينسي، كل القبلات التي لم أتمكن من طبعها على خدك. اقتربت خطوات الحارسة. أرسل إليك قبلاتي الكثيرة يا تينسي. يرنّ صدى خطوات الحارسة في المجمع، إنه موعد المشغل. تحملي يا حياتي.

انضمّ صوت المفاتيح المعدني المتصاعد إلى ضجيج الباب عندما فُتح. حاولت «أورتينسيا» أن تبتلع. أحبك يا تينسي. كادت أن تتقيأ من طعم الورق والحبر. نحن هنا على حالنا، بعض أيامنا جيّد وبعضها سيئ. سيّطرت «أورتينسيا» على غثيانها وبلعت. في الليل، عندما تنتقل بين المخيمات وتظهر النجوم، أنظر دائماً إلى نجمتنا. سراها معاً في القريب العاجل. ذرفت «أورتينسيا» دمعاً من الغثيان وجهد البلع.

صارت الحارسة في الدّاخل. إنها «ميرثيديس».

- إلى المشغل!

ومع صوتها العالي كانت تصفق، مكررةً:

- إلى المشغل!

شكّلت النساء الذاهبات إلى مشغل الخياطة في قبو السجن طابوراً ليتبعن «ميرثيديس» بصمتٍ ونظام. لَقَتْ «أورتينسيا» حصيرتها وجفقت دموعها وبحثت عن دفترها الأزرق. لا تذهب «أورتينسيا» إلى المشغل لأنها ليست محكومةً بعد. أمّا «توماسا» فبقيت عند رأس فراش «إلبرّا».

هي أيضاً لا تذهب إلى المشغل. لا تذهب «توماسا» احتراماً لمبادئها، فهي ترفض أن تخطط زياً عسكرياً للعدوّ. «توماسا» مصرةٌ على أن الحرب لم تنتهِ بعد، وأنّ السّلام الذي وافق عليه «نيغرين»<sup>(1)</sup> إهانةٌ لأولئك الذين ما زالوا يناضلون. ترفض أن تقبل أن سنوات الحرب الثلاثة بدأت تصير جزءاً من التاريخ.

لا، مَوّتاها ليسوا جزءاً من التاريخ. ولم يُحكَمْ عليها بالإعدام، ولم يُخَفِّض حكمها من أجل التاريخ. لن تعطي من عمرها ثلاثين عاماً للتاريخ. لن تعطي يوماً واحداً ولا ميّناً واحداً من أجل التاريخ. الحرب لم تنتهِ بعد، لكنّها ستنتهي، قريباً. ولن تكون قد درزت غرزةً واحدةً لتخفّف محكوميتها بالتعاون مع أولئك الذين يريدون كتابة التاريخ. لن تخطط غرزةً واحدةً أبداً. ولذلك نظرت إلى «ريمي» باستخفافٍ عندما وقفت في الطابور، لأنّ «ريمي» تخلّت، ولأنّها صارت حملاً وديعاً.

---

(1) خوان نيغرين: رئيس وزراء الجمهورية الإسبانية الثانية من سنة 1937 حتى سنة 1945 في المهجر. تقدّم سنة 1938 بقائمة من ثلاثة عشر مقترحاً بهدف الوصول إلى تسوية مع الجنرال فرانكو ووضع حدٍّ للحرب الأهلية الإسبانية، إلا أن فرانكو رفض المقترحات نظراً لتقدّمه العسكري، وطالب الجمهوريين بالاستسلام بدون أية شروط.

لأنّها لا تعرف كيف تُقدّر تضحية أولئك الذين ما زالوا يستشهدون.  
إنّها انهماكية لا تجيد شيئاً سوى عدّ الموتى، لا تجيد شيئاً سوى البكاء  
عليهم. وتروي قصّتها، قصّتها الصغيرة، في كل فرصة تتاح أمامها، وكأنّ  
قصّتها انتهت عند هذا الحدّ. ولكن قصّتها لم تنته عند هذا الحدّ. قطعاً لا،  
ولكنّ «توماسا» لا تنوي رواية قصّتها إلا بعد أن يكون هذا كلّ قد  
انقضى. بعيداً، تُلقِي نظرةً فاحصة على «ريمي»، و«ريمي» تدخل إلى  
الطابور بوداعة، متجاهلة استخفاف «توماسا».

اختبأت «أورتينسيا» من «ميرثيديس» بالالتفاف ناحية الجدار،  
وحاولت أن تُزيل بلسانها بقيةً من معجونة الورق التي التصقت بسقف  
حلقتها... بقية... قطعة صغيرة متبقية. قريباً سينتهي كلّ شيء، حتّى قبل  
موعد محاكمتك، وسأكون معك عندما تلدين الصغير. وإن كانت طفلة  
سوف نسميها «أورتينسيا»، مثلك يا تينسي.







مضى أسبوعان على حصول «ميرثيديس» على وظيفتها الأولى موظفةً سجون. حصلت عليها لأنها أرملة حرب، وأعجبتهَا. شعرها مرفوعٌ في تسريحةٍ عاليةٍ على شكلِ موزةٍ تُظهر رؤوس دبائيس الشعر الكثيرة على طول التسريحة الممتدة من ظهر رقبتها إلى قمة رأسها. تُفضل ألا تُدخل الدبائيس تماماً إلى الداخل، وتُفضل أن تكون ظاهرةً، وتعدّ الدبائيس واحداً واحداً عندما تسرح شعرها. تشعر «ميرثيديس» أن هذه التسريحة تجعلها أجهل، وكذلك الزي الرسمي. تشد الحزام لأقصى حدّ لتبرز خصرها، ودائماً عندما تنتهي من لبسِ رداها الأزرق تدور دورةً حول نفسها أمام المرأة.

قبل أن تقود النساء إلى مشغل الخياطة، اقتربت من رأس «إليرا» وسألت «توماسا» عن حال الصّغيرة:

- كيف حال الصّغيرة؟

- كيف سيكون حالها؟ سيئة!

تجهّمت «توماسا»، وكلّما تجهّمت كانت التجاعيد تبرز في جلدها كالأخاديد. زمّت عينيها اللوزيتين لتتّظر باحتقار. كانت «أورتينسيا» تراقبها. ولما كانت جالسة على حصيرتها الملفوفة، أغلقت دفترها الأزرق وحدجتها بنظرةٍ معناها «لا تكوني بهذه الفظاظة». أعطتها «ميرثيديس» خِلْسَةً بضعة أقراص من الدواء أحضرتها خفيةً وهي تتلمّس جيبن المريضة.

- أعطها قرصاً صباحاً وقرصاً آخر في الليل.

لا يرقُّ قلب «توماسا»، مهما نظرت إليها «أورتينسيا»، ومهما عرفت أن «ميرثيديس» تخاطر بأن تعلم بأمرها الواشية، التي تترصد حركاتها من مكانها في رأس الطَّابور طمعاً في العثور على أي معلومة لتساوم بها. لا يرقُّ قلبها، فهي لا تُخدع، لا يخدعها أحد، وهذه الجديدة لا تفعل شيئاً سوى التظاهر بأنها طيبة.

أخذت أقراص الدواء التي أعطتها إياها «ميرثيديس» دون أن تشكرها وأخفتها في يدها تحت شالها الصوفي، وفي نفس اللحظة فتحت «إليرا» عينيها: كانتا صافيتين ومُتيقظتين، أول مرّة، منذ بدأت الحمى.

- هل نحن في «بالنثيا»؟

- لا يا بنيتي.

- ظننت أنني في «بالنثيا».

فرحت «ميرثيديس» لرؤيتها مستيقظة. غطّتها وتحسست جبينها مرّة أخرى.

- انخفضت حرارتها، ولكن أعطيها الدواء على كلّ حال.

وجّهت الكلام إلى «توماسا» مخفضةً صوتها، لأنها اعتادت على الكلام مع السّجينات بهذه الطّريقة. وأمرت وهي تترأس الطابور:  
- فلتتدفأ جيّداً

هزّت الإكستريما دوريّة ذات الجلد المصفّر رأسها دون أن تنفّوه بأيّ كلمة.

- أتشعرين بالبرد يا «إليريتّا»؟

- هل سأموت؟

بحثت «توماسا» بعينيها عن «أورتينسيا» و«ريمي» لتتبسّم لهما. تبسّمت بفمٍ مفتوح. فهمت «ريمي» و«أورتينسيا» سبب تبسّمها

فابْتَسَمَتَا أَيْضاً. مَشَتْ «ريمي» إلى مشغل الخياطة، في الطابور بصمَتْ  
ونظام، وراء «ميرثيديس» والأخريات، وهي تنظر إلى «توماسا» في  
الخلف. أخذت «أورتينسيا» قلمها من جديد دون أن تكفَّ عن الابتسام.  
«إلبيريتا» لن تموت، هذا ما كانت تقوله تلك البسمات المتواطئة.  
لا، «إلبيرا» لن تموت.

\* \* \*



بهذوءٍ وبنظامٍ غادرت النساء الغرفة متجهات إلى قبو السجن.  
ردّت «إليرا» على «توماسا» قائلةً إنها لا تشعر بالبرد.

- ولكنني جائعة.

كانت جائعة. جوعٌ كالذي أصابها عندما كانت في ميناء  
«أليكانتي»<sup>(1)</sup> بينما كانت تنتظر سفينةً لم تأت أبداً.

كانت جواهر أمّها قد نفدت، ولم يعد بحوزتها أي شيءٍ لتعطيه  
مقابل الشوكولاتة للحارسة الإيطالية التي كانت تحرسهن. نقود  
الجمهورية لم تعد العملة الرسميّة، والأوراق النقديّة التي كانت السيدة  
«مارتينا» قد ادّخرتها أخذت تذبل في قاع الصندوق المصنوع من خشب  
الماهو جني. كان صندوقاً بديعاً، اشتراه والدها من غينيا<sup>(2)</sup>. لأن والدها  
كان قد عاش في غينيا قبل أن يتعرّف إلى أمّها، وقبل أن ينقلوه إلى  
«بامبلونا» ومنها إلى «بورغوس»، حيث تزوّج أمّها وأنجبا «باولينو».

عاش والدها في أماكن كثيرة، أما «إليرا» فلم تعيش إلا في  
مكانين: وُلدت في «بالنشيا» ولم تخرج منها إلا عندما جاؤوا بها إلى هنا: إلى

(1) سنة 1939 أخذت جبهات الجمهوريين تتساقط أمام القوميين، وأُشيع أن  
حلفاء الجمهوريين من الفرنسيين والبريطانيين سيرسلون سفناً إلى ميناء «أليكانتي»  
لإخلاء اللاجئين الإسبان، إلا أن السفن لم تأت تاركةً أكثر من 15 ألف شخص  
منتظرين على أرصفة الميناء. ألقى اللاجئون كلّ ما يحملونه من مقتنيات ثمينة في  
البحر، قبل أن يتم القبض عليهم ونقلهم إلى معسكرات الاعتقال.

(2) كانت غينيا حينئذ مستعمرةً إسبانية، وظلت كذلك حتى سنة 1968.

هذه المدينة التي لا تعرفها أصلاً، والتي لم ترَ منها إلا ميدان مصارعة ثيران، جميلاً جداً، رآته من بين قضبان باب الشاحنة. حتى إنها لم تكن تعرف «أليكانتي». لم ترَ إلا شارعاً تحفه أشجار النخيل على الطريق إلى الميناء. أمّا والدها فكان يعرف كلّ المدن التي عاش فيها جيّداً، وكان يحتفظ بتذكاريّ من كلّ مدينة. أحضر من «مالابو» الصندوق الذي كانت أمّها تدّخر فيه النقود، كما أحضر معه مرضاً في المعدة أجبره على ترك الجيش بعد أن أُقرّ قانون «آثانيا»<sup>(1)</sup>. كان ملازماً عندما تقاعد. لا تنسى «إلبيرا» فرحة أمّها حينئذ، إلا أنّها لم تفرح كثيراً عندما عاد إلى الجيش على الرغم من أنهم رفعوه إلى رتبة نقيب.

لم يُفرحها الأمر على الإطلاق. حدث هذا في بداية الحرب، وكان اسم الكتيبة التي يقودها والدها «أليكانتي روخو»<sup>(2)</sup>. هكذا كان يصفها في رسائله: «كتيبة أليكانتي روخو» قبل تاريخ اليوم وبعد جملة «عاشت الجمهورية». وبعد يومين من استلامهم أوّل رسالة جاءت فيها جملة «عاشت الجمهورية»، التي وصلتهم من قرية «سيغوري» في «كاستيون»، دخل «باولينو» إلى البيت حاملاً ورقة بيده.

كان يخفي ابتسامة.

- ماما، لقد سجّلت اسمي متطوّعاً.

تركت أمّه المشط وشعر «إلبيرا» الأحمر:

- ما زلت صغيراً

- لا

---

(1) قانونُ أقرّه وزير الحرب «مانويل آثانيا» سنة 1931 بهدف تطوير الجيش الإسباني وعصرنته والحدّ من تدخّله في الحياة السياسيّة.

(2) ومعناها كتيبة «أليكانتي الحمراء».

ردّ «باولينو» بـ«لا» حازمةً، وهو يريها الورقة التي كان يحملها بيده. استمرّت أمّه بتمشيّط شعر «إلبيرا»:

- ما زلت صغيراً يا «باولينو».

لم تزد على ذلك، فهي معتادةٌ على أن قرارات الرّجال لا تُناقش. كان زوجها قد كتب إليها في الرّسالة الأولى: «صار «باولينو» رجلاً، والجمهورية بحاجةٍ إليه».

عندما انتهت دونيا «مارتينا» من ربط شريطٍ على ذيل الفرس الذي جمعت فيه شعر «إلبيرا»، ركضتِ الطّفلة إلى غرفة أخيها.

- هل ستذهبُ أنت أيضاً إلى الحرب؟

- هزّي ذيل الفرس تلك الهزّة التي أحبّها يا تشيكيتا<sup>(1)</sup>.

أخذ شعر «إلبيرا» يضرب الهواء يمنةً ويسرةً، واستغلّ أخوها إغماضة عينها ليشدّ الشريط من أحد طرفيه.

- ماما، ماما، لقد فكّ لي «باولينو» ذيل الفرس.

ذهب «باولينو» إلى الجبهة مساءً ذلك اليوم. كان قد أتمّ لتوّه التاسعة عشرة.



---

(1) تشيكيتا: معناها «الصغيرة» وتُستخدم لتدليل الفتيات الصغيرات.





كانت رسائل والد «إلبيرا» تصل إلى «بالنثيا» كل يوم تقريباً. كانت أمها تقرأها بصوتٍ إيقاعيٍّ وتنغم الكلمات كما لو أنها تقرأ لها قصة أطفال عند رأس سريرها. استخدمت «توماسا» نفس الصوت لتحكي لها أنها بقيت خمسة أيام في حالةٍ من الهذيان الخالص.

في بادئ الأمر، كانت دونيا «مارتينا» تنتظر الرسائل بفرح وكانت تقرأها بانفعال. ولكن مع مرور الأيام، انحسرت سعادة الانتظار ليحل مكانها كرب الانتظار. وعند حدوث أي تأخير مهما كان بسيطاً، كان الكرب يتحوّل إلى أسى. لبثت سبعة أشهر وهي تستلم رسالةً شبه يومية من زوجها. بعض الرسائل كانت مختصرةً ومكتوبةً على عجل، على أية ورقة وفي أي مكان، لتعرف أنه بخير فحسب وأنه لا ينساها.

لا أنساك.

وبعد أن انقضى الأسبوع الثاني بعد استلامها آخر رسالة، عرفت دونيا «مارتينا» أنه لا ينبغي لها أن تنتظر المزيد من الرسائل. ولكنها تفاجأت عندما وصلت الحقيبة. وصلت حقيقته.

أحضرها رقيبٌ إلى البيت. حقيقته.

فتحت دونيا «مارتينا» الباب، وأراها الرقيب الحقيبة وأبلغها أنهم أرسلوها من «تريخويكي».

- حدثت فاجعة في «غوادالاخارا» مع الإيطاليين. رأت «إلبيرا» كيف امتقع وجه أمها وكيف غطته يديها.

- سيّدي، اذهبي إلى القيادة العامة. لديهم هناك قوائم طويلة فيها الكثير من الأسماء.

أخذت الطفلة الحقيية التي رفعها الرقيب عن الأرض. شكرته وأغلقت الباب. لم تفارق عينا السيدة «مارتينا» الحقيية. ربّما تصلها الرّسائل النّاقصة من داخل الحقيية، كلّها معاً، رسائل الأيام الخمسة عشر الأخيرة، أو لعلّ زوجها قد أرسل إليها تذكّاراً من «ترينخويكي».

نعم، ستفتح السيدة «مارتينا» الحقيية بما تبقى لديها من أمل، حتّى لو استمرّ الأمل لحظةً واحدة، فستفتحها مُنكرةً الحقيقة التي أخذت تتقبّلها شيئاً فشيئاً منذ بدأت أخبار زوجها تغيب، الحقيقة التي تبدو الآن واضحةً أكثر من أي وقتٍ مضى والتي لا تريد الآن الإقرار بها. ما يزال من الممكن أن يكون الخبر خاطئاً. ما يزال هنالك أمل.

ولما أخذت «إليبرا» تسحب الحقيية إلى الصّالة، كانت أمّها تعود عن القنّاعة التي توصّلت إليها بالتدريج خلال الأيام الخمس عشرة الأخيرة.

لا، ما يزال ممكناً أن يكون الخبر كاذباً.

لا.

ما يزال ممكناً أن تصل خمس عشرة رسالة في حقيية.

ستلمس أصابعها جلدَ الحقيية الناعم، وستمرّ على آثار الأسفار الكثيرة. ستوقف عند الجلد الذي انغرزت فيه الأقفال، وبيطء ستفكّ الأربطة.

ما يزال ممكناً.

لا أنساكِ.

ما زال من الممكن أن يصل تذكّارٌ من «ترينخويكي».

كان يوم التاسع من آذار (مارس) من سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين. في التاسع من آذار فتحت السيدة «مارتينا» الحقيبة. في صباح ذات اليوم، كانت «إليرا» قد ذهبت مع أمها إلى القيادة العامة ولم يجدوا اسم والدها في القوائم.

في التاسع من آذار من سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين قالت أم «إليرا» إنه يتعين عليهم أن يخبروا «باولينو»، حدث هذا بعد لحظات من إغلاق الحقيبة، التي لم يجدوا فيها سوى زين عسكريين وقبعة وبنطالين عسكريين وملابس داخلية. لم يجدوا أيّاً من مقتنياته الشخصية، ووجدوا صمّت والدها كلّهُ.





ذهبت «إلبيرا» وأمها مرّة تلو الأخرى إلى القيادة العامّة في «بالنثيا» لتبحثا عن اسم أبيها في القوائم، وكانتا تعودان كلّ مرّة دون العثور عليه. ولكن «إلبيرا» تحلم بأنه لم يمُت. تتخيّل أنّه سيعود ذات يوم. لا بدّ أن يعود ليؤنّبها عندما تغني أغنية «العيون الخضراء»، وستساعده في ارتداء البنطال العسكريّ الذي كان في حقيقته. ستشدّه بحذرٍ لكي لا يتسخ بنطاله بدهان الأحذية، التي ستلمع كما لم تلمع من قبل في قدمي والدها.

بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات: ما زالت تتخيّل.

أفلتّ ذراعي ساعة الشروق<sup>(1)</sup>...

عادت النساء بوداعةٍ من مشغل الخياطة، منتظمت في الطابور، بصمّت ونظام. اقتربت «ريمي» و«ميرثيديس» من سرير «إلبيرا». وفي فمي طعم النعنع والقرفة...

قطعت «توماسا» الأغنية التي كانت تدندنها للصّغيرة ذات الشعر الأحمر التي لن تموت.

- عادت للنوم. نامت وقتاً كافياً وأظنّ أنها تتماثل للصّحو الآن.

- فليتقدّس اسم الربّ

(1) من كلمات أغنية «العيون الخضراء». الأغنية موجودة كرمز QR.

أُفْلِتَ اسمُ الرَّبِّ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْ «رِيمِي». أَفْلَتَ عِنْدَمَا رَأَتْ  
السَّلَامَ الَّذِي غَمَرَ نَوْمَ «إِلْبِيرَا». أَفْلَتَ مِنْهَا فِي حَضُورِ «تُومَاسَا» الَّتِي  
تَتَهَرَّبُ دَائِمًا مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ. فَرَدَّتْ «مِيرِيثِيدِيسُ»:  
- فَلَیْکِنْ اسْمُهُ مَقْدَسًا وَمُبَارَكًا دَائِمًا.

نَهَضَتْ «تُومَاسَا» دُونَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ، وَانْسَحَبَتْ إِلَى الزَّائِيَةِ الَّتِي  
نَشَرَتْ فِيهَا الْفُوطَ الصَّحِيَّةَ الَّتِي غَسَلَتْهَا مَسَاءَ الْأَمْسِ. وَجَدَتْ أَنَّهَا مَا  
تَزَالُ مَبْلَلَةٌ وَأَنَّ بَعْضَ الْبُقْعِ لَمْ تَزُلْ. لَعَنْتْ بِصَوْتٍ مُنْخَفَضٍ:  
- اللَّعْنَةُ عَلَيَّ وَعَلَى أَمْثَالِي

أَخَذَتْ تَشْتُمُ لِأَنَّ مَزَاجَهَا تَعَكَّرَ، وَلِأَنَّهَا صَارَتْ كَبِيرَةً عَلَى  
الْحِيضِ، وَلِأَنَّهُ تَأَخَّرَ عَلَيْهَا كُلُّ شَهْرٍ طَوَالَ السَّنَةِ الْآخِرَةِ. وَلَكِنْ الْحِيضُ  
يَأْتِيهَا. تَحِيضُ كُلُّ شَهْرٍ وَيزِيدُ النَّزِيفُ وَلَيْسَ لَدَيْهَا إِلَّا ثَلَاثُ فُوطٍ، وَفِي  
الشِّتَاءِ تَحْتَاجُ الْفُوطَ وَقَتًا أَطْوَلَ حَتَّى تَجِفَّ.

- اللَّعْنَةُ عَلَيْهَا. اللَّعْنَةُ عَلَى الْأُمِّ الَّتِي أَنْجَبَتْهَا.

لَعَنْتُ وَهِيَ تَكَزُّ عَلَى أَسْنَانِهَا، لَكِنْ «مِيرِيثِيدِيسُ» سَمِعَتْهَا. لَقَدْ  
قَالَتْهَا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى «مِيرِيثِيدِيسُ». اقْتَرَبَتْ مِنْهَا الْحَارِسَةُ:

- مَاذَا قُلْتِ؟

- قُلْتُ اللَّعْنَةَ عَلَيْهَا.

- وَمَاذَا قُلْتِ أَيْضًا؟

- لَا شَيْءَ.

- سَمِعْتُكَ تَقُولِينَ شَيْئًا آخَرَ

صَبَرُ الْمَرْأَةِ ذَاتِ الشَّعْرِ الْمَرْفُوعِ عَلَى شَكْلِ مَوْزَةٍ بَدَأَ يَنْفَدُ. لَمْ يَمْضِ  
سِوَى أُسْبُوعَيْنِ مِنْذُ بَدَأَتْ تَعْمَلُ مُوظَّفَةً سَجُونٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ  
مَرَّةٍ تَوَاجَهَ فِيهَا نِزَاعًا. سَمِعْتُكَ تَقُولِينَ شَيْئًا آخَرَ، أَعِيدِيهِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ.

التزمت «توماسا» الصّمت. عقدت ذراعيها أمام صدرها وغطّتها  
بالشال الصّوفي، ودون أن تحرّك قدميها أسندت وزن جسدها إلى وركها  
الأيمن، ومالت إلى الخلف قليلاً.

تعرف «توماسا» أن «ميرثيديس» قليلة الخبرة، وتعرف أنّها تريد  
أن تظهر بمظهر اللطيفة الطّيبة، لكنها ليست كذلك. ها هي تقف  
قالتها، ويظهر عليها التوتر. ويبدو أن أحد الشرايين في صدغها يختلج.  
«ميرثيديس» ضعيفة، ولذلك تضطر إلى مغافلة الموظفين الآخرين  
ليتسنى لها أن تتكلّم مع السجينات بصوتٍ منخفض. تتقرب منهنّ لأنّها  
ضعيفة، وتدّعي أنّها طيبة. لن تتمكن من خداع «توماسا»، فهي تعرف  
جماعتها جيّداً.

ألحّت «ميرثيديس» بالسّؤال:

- سمعتكِ تقولين شيئاً آخر، ماذا قلتِ؟

أصرّت «توماسا» على الصّمت. لم تكن تنوي أن تنافسها، لكنها  
نافستها. لم تكون تنوي أن تتحدّاها، لكنها تحدّتها. حدّجتها بنظرة قاسية  
وقد رفعت ذقنها.

كانت الواشية تراقبها من مسافةٍ حذرة وعلى شفّتها بسمة.

رأته «ميرثيديس» وهي تبتسم، فحبست نفّسها وبلعت ريقها.  
بلعته مرة أخرى ثم صرخت:

- أجيبني!

الآن، أخذت كلّ النساء المتواجدات في ممرّ المهجع ينظرن إليها.  
ترايد العجز في غضبٍ «ميرثيديس». فعلاً، كان هنالك شريان يختلج في  
صدغها. صرخت بصوتٍ أعلى:

- أجيبني!

كانت «توماسا» تتمنى لو تردّ بشتّم الأم العاهرة التي أنجبته. ولكنها لم تردّ، لأنّ الصّمت هو أكثر ما يؤلمها. أبقت فمها مغلقاً وظلّت واقفة بنفس الوضعيّة مستمدّة ثباتها من وضعيّة وركها ومن ذراعها المعقودتين.

لا يمكن للمرء أن يتعلّم صنعة في أسبوعين، ولكن ينبغي لـ «ميرثيديس» أن تردّ لكي لا تتهمها الواشية أمام مديراتها بأنّها ضعيفة، وحتى لا تكتشف السجينات أنّها لا تعرف ما ينبغي لها فعله. عليها أن تردّ، هذا هو الشيء الوحيد الذي تعرفه. وما تعرفه «توماسا» أيضاً. حدّقت حتى ضاقت عيناها: رنّت الصّفعة في المهجع. النساء اللواتي كنّ يحدّقن بـ «ميرثيديس» أخفضنَ عيونهنّ. استيقظت «إليرا» حينئذ، لكنّها لم تكن قادرة بعدُ على فتح عينيها.

\* \* \*



من الأسهل الحِداد على الميت عندما يكون السّهر على جثته ممكناً. يصبح الحِداد أسهل إذا كان من الممكن احتضان رأس الميت كما فعلت «توماسا» قبل أن تلبس الأسود. لم تكن السيّدة «مارتينا» محظوظة بما يكفي. لم تتمكّن حتى من أن تقرأ اسم زوجها في قوائم القيادة العامّة. ولهذا يمكن لابتها «إلبرا»، أصغر السجّينات في المهجع رقم «2»، أن تحلم. على الرغم من أن «باولينو» قال لهّن عندما أخذهنّ إلى «أليكانتي» إنّ كتيبة «أليكانتي روخو» أُبِدت في أحد شوارع «غوادالاخارا». لم ينبُج أحدٌ من القصف.

- كانت الطائرات تحلّق منخفضةً إلى درجة أنها أفنّت الجميع، وأولهم والدي، فهو لم يكن يَمنّ يهربون إلى الصّفوف الخلفيّة. استمعت السيّدة «مارتينا» دون أن ترفّ عينها وهي تحدّق بـ«باولينو» الذي عاد فقط ليتأكّد أنّ أمه وأخته قد خرجتا من «بالنثيا». جاء مع أحد رفاقه ليأخذهن إلى «أليكانتي». في الميناء، ستركبان سفينة ستأخذهما إلى وهران<sup>(1)</sup>.

- عليك أن تذهبي مع «إلبريتا» يا أمّي. صار ابنها يناديها «أمي». لن يعود يوماً إلى مناداتها «ماما». كان يرتدي بنطالاً وسترة من قماش الكوردروي، وقبّعة لها حافة، ويحمل رشاشاً على كتفه. أكّد لها أن

(1) كانت سفن الحلفاء الفرنسيين تأخذ اللاجئين الإسبان إلى ميناء وهران في الجزائر التي كانت حينئذ مستعمرة فرنسيّة.

الوضع بالغ الخطورة، وأن «كاسادو»<sup>(1)</sup> يعتزم التفاوض على السلام مع «فرانكو» للحيلولة دون الأعمال الانتقامية. لقد أرسل مبعوثين إلى «بورغوس». إنه انقلاب.

- أمي، أسمعيني؟

أمي. إلا أن السيدة «مارتينا» لم تستوعب شيئاً سوى أن ابنها يقول لها «أمي»، ولم تسمع إلا كلمة «سلام».

- إذن، اقرب حلول السلام!

أجبرَ يأسُ «باولينو» رفيقه على التدخّل، فطوّق كتفي السيدة «مارتينا» وشرح لها أنّ ما يقترب هو الكثير من الدّم، وأن الانتقام لن يتوقّف.

- عليك أن تُخرجي الصّغيرة من هنا يا أمي.

أشارت بالإيجاب بحركة واحدة. وضعت صندوق المذّخرات في جيبتها وتنهّدت.

- هيا بنا!

وضع «باولينو» الرّشاش على كتفه وقال «هيا بنا!»، قالها لرفيقه «فيلبي»، وهو المقاتل الذي رافقه منذ انضمّ إلى الصفوف ولازمه مثل ظلّه من يوم وصولهما إلى «بينياميت» لتلقّي التدريب القتاليّ. أمضوا هناك ثمانية أسابيع.

ثمّ انضمّ الاثنان إلى الفيلق الرابع عشر من جيش الغيرريا، وتمّ فرزهما إلى منطقة «إكستريمادورا». هاجما معاً خط السّكة الحديدية

---

(1) كان «سيغيسموندو كاسادو» قائداً عسكرياً جمهورياً في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، انقلب على حكومة الرئيس «خوان نيجرين» وشكّل «مجلس الدفاع الوطني»، واتّخذ المجلس قرار الاستسلام أمام قوّات «فرانكو».

الواصل بين «ميريدا» و«كاثيريس»، وفي اليوم التالي أنقذ «فيلبي» حياته في هجوم ضد الجنود النظاميين. ولم يفرقا منذ ذلك الحين.

- لا تحزني يا سيّدي، ستمكّنين من العودة قريباً.

حمل «باولينو» الحقيبة التي أحضرها الرقيب ذات يوم، والتي وضعت فيها أمّه الملبس التي أرسلتها لتُصبغ باللون الأسود يوم التاسع من آذار (مارس) من سنة ألف وتسع مئة وسبع وثلاثين، عندما عادت، أوّل مرّة، من القيادة العامة. ثياب حداد. ثياب حداد من أجل الأرملة التي لن تحتضن رأس زوجها. ثياب حداد وغياب من أجل الطفلة ذات الشعر الأحمر التي ما زالت مصرّة على أن تحلم. أن تحلم، وهي نصف نائمة.

قوموا يا منبؤدي الأرض<sup>(1)</sup>

نهضت «إليرا» نصف مستيقظة عندما سمعت «ريمي» التي بدأت تغني بصوت منخفض. «إليرا» تستمع نصف نائمة، و«ريمي» تغني نشاراً.

هَبُوا يا حشد الجياع

حاولت «ريمي» أن تشتت انتباه «ميرثيديس» التي عادت لترفع يدها تجاه «توماسا»، لكن «ريمي» كانت تنشز. أمّا «إليرا» فأخذت ترنم الأغنية التي سمعت «باولينو» يغنيها دائماً. تبعها «أورينسيا» في همسٍ لا يكاد يُسمع، ولا يكفي حتى تدير «ميرثيديس» رأسها نحوهم.

فليزلزل الفكر المسير

استمرّ الثلاثي بالغناء بصوت منخفض. انضمت «توماسا» إلى النّشيد.

(1) غنّت السجينات «نشيد الأمية»، وهي من أشهر أغاني العمال في العالم وتُعتبر النشيد الرسمي للكثير من الأحزاب الشيوعية والاشتراكية والفوضوية، تمت ترجمة الأغنية إلى العربية. الأغنية متوفرة على الرمز QR.

## فلنَهشُم المَاضِي

أخذت سجينات المهجع الأخريات يرددن مع زميلاتهنّ. كان طنيناً تقريباً، يكاد يكون همساً، ومع ذلك كان يتصاعد دون أن يرفعن أصواتهنّ. أخذ يتصاعد مع انضمامهنّ إلى الغناء واحدةً تلو الأخرى. تمتمة تتصاعد. تتصاعد.

## أيها الحشد المستعبد... انهض وانتصر

سحبت «ميرثيديس» التهديد وأنزلت يدها التي كانت تهزّها أمام وجه «توماسا»، واستدارت وعيناها تقدحان غضباً نحو المجموعة التي تحلّقت حول حصيرة «إلبرا».

## فلنقف صفّاً واحداً

- اصمّتن!

## لنناضل نضالنا الأخير

- قلت اصمّتن!

وقفت «إلبرا» على حصيرتها وأخذت توجّه الغناء بذراعيها دون أن تتمكّن من ضبط مشاعرهما، وكأثما ترفع بيديها موج بحرٍ قد قام، دون أن تنتبه لركبتيها اللتين عادتا تنزفان من جديد. نسيت «أورتينسيا» أيضاً ألم ركبتيها وأخذت تغني وهي تنظر إلى بطنها، يداها مفتوحتان تحيطان بحملها، وأصابها العامرة بالحبّ تربّت على بطنها عازفةً لحن الأغنية.

مع خروج طنين الأصوات عن كلّ عقال، ومع تحوّل الصّوت إلى هديرٍ بطيء غمر المهجع كالطوفان، زاد خوف الواشية أكثر فأكثر. غطّت أذنيها وأخذت تبحث عن مكان لتختبئ فيه. بحثت وبحثت، ووجدت ظهر «ميرثيديس».

وعندما شعرت الحارسة بحركات الواشية خلفها فزعت.  
استدارت وصرخت طاردةً من كانت تحاول أن تحتبئ.

- انصرفي!

ولتنهض الشعوب دون خوف

- اصمتن! اصمتن!

من أجل الغناء: رفعت بعض النساء قبضاتهن المغلقة.

\* \* \*



البكاء فقداناً للسيطرة، و«توماسا» لا تحب أن تفقدها. أمّا الآن، في وحدة الزنزانة الانفرادية التي عاقبتها بها «ميرثيديس»، تفرّ منها دمعاً عندما تفكّر في «ريمي». وخلال أيام حبسها الخمسة عشر، ستحبس المزيد من الدموع بين رموشها، وستمسحها بسبابتها دون أن تسمح لها بالسقوط.

ستفكّر في «ريمي»، وفي كل الزميلات اللواتي رفعن أصواتهنّ عندما رفعت «ميرثيديس» يدها عليها المرّة الثانية. وستقاوم البرد والجوع. ستقاوم هذا المكان المحصور الذي تعرفه جيّداً بخواته وصمته، فهذه ليست أوّل مرّة يعاقبونها فيها. ستقاوم مرور الليالي، وستعرف أن النّهار قد طلع عندما تفتح موظفة الباب وتعطيها صحناً من الحساء، وقطعة خبز ومكنسة. ستقاوم، وستكنس زنزانتها وهي تفكّر في «ريمي»، وستذكّر نظرتها في اللحظة التي بدأت فيها بالغناء.

وستضحك لأنّ «ريمي» لا تحيد الغناء. لا تحيده لكنّها تصرّ على إضفاء العذوبة على ما تغنيه. لا تحيد الغناء، لكنّها مصرّة على أن تقول إنّ أمّها علّمتها الغناء والخياطة<sup>(1)</sup> في نفس الوقت، كما تعلّمت منها أنّه ينبغي لها ابتلاع مرّ العيش على عجل، وأنّ طعمه يضيع إذا رششنا عليه سُكّر الأغنيات. هكذا هي «ريمي»: مجبولة على البراءة الصّرفة. بريئة وكبيرة جداً، ولهذا انتهى بها المطاف هنا: لأنّها بريئة. جاؤوا بها من قرية من

(1) يستخدم الإسبان تعبير «كالخياطة والغناء» ليؤكدوا على أن الأمر سهل ولا يحتاج جهداً. كما نقول في العربية «مثل شربة الماء».

«مُرْسِيَّة»، لا تريد أن تقول اسمها ولا تفكر في الرجوع إليها. «ريمي» تظن أن الحق على جاراتها، ولكن لا يمكن أن تكون بريئة إلى هذا الحد. فمن الواضح وضوح الشمس أنه لا يمكن تطريز علم على طاولة الموقد<sup>(1)</sup> إذا كانت قريبة من النافذة.

لا يمكن، حتى لو كانت الستارة مغلقة، وحتى لو وضعت عليها شرشفاً أبيض، وحتى لو كنت تعتقدين أن التمرد لن يطول، لأن التمرد في ذلك الحين كان قد بدأ منذ عام وأكثر. لا يمكن، مهما كان العلم جميلاً. ولا يمكن أن تكوني عرابة من عرابات الجنود<sup>(2)</sup> وأن تخرجي إلى الشارع بوجه مُستبشر ويبدك صورة لثريها لنسيتك تحديداً في اليوم التالي لسقوط «تيرويل». لا يمكن.

وخاصةً في مكان كقرية «ريمي»، التي لم يُضطر فيها المتمردون إلى إطلاق رصاصية واحدة، فعلى ما يبدو فكل أهل قرية «ريمي» ينتمون إلى «ثيدا»<sup>(3)</sup> أو انضموا فجأة إلى حزب الكتائب الإسبانية<sup>(4)</sup>، يا سبحان الله! ولا بد أن «ريمي» كانت تعرف هذا الكلام، فالأمر الواضح لا يختلف عليه اثنان. وكان ينبغي لها أن تحذر جداً من ترك النافذة مفتوحة، وألا تُري صورة الجندي لنسيتها أمام كشك السجائر.

لأن بائعة السجائر أخذت تصيح قائلة إن هاتين شيوعيتان وأنها كانتا تحتفلان بسقوط «تيرويل». وهكذا حدث ما حدث، ولم يكن هنالك

- 
- (1) طاولة يُوضع تحتها موقد حطب وتُغطى بغطاء من قماش سميك، تتحلّق حولها العائلات في أيام الشتاء ويتلحفون بغطائها الدافئ.
  - (2) عرابات الجنود كنّ فتيات يتطوعن لكتابة الرسائل وإرسال الهدايا إلى الجنود المقاتلين على الجبهة ليخففن عنهم إحساسهم بالوحدة.
  - (3) التحالف الإسباني للأحزاب الكاثوليكية واليمينية.
  - (4) ويُعرف أيضاً بحزب الفلانخة، وهو حزب يتبنى فكراً سياسياً مستوحى من الفاشية.



مَهْرَب. المفروض أَنَّ النَّوم هو إغماض العينين. المفروض أَن تغمضَ عينيها فتغفو، اللعنة! هكذا ينبغي أَن يكون النوم: ينبغي أَن تغفو دون أَن تبحث طويلاً عن الوضعية المناسبة لكي لا يؤلمها ردفاها. يا لقساوة هذا الفراش! وكيف ينبغي لفراش محشوّ بشعر الخيل أَن يكون، لا بد أَنّه قد تحجّر من كثرة الاستخدام! ستفجّل عينيها، وستفكّر في «ريمي».

ولو صحّ أَن البرد يجلب النعاس فلا بدّ أَن الجوع يطرده. ستفكّر في «ريمي»، في صوتها الذي يشبه قشرة البيض عندما تنكسر لتُسكَب في الصّحن وليُصنعَ منها طبقٌ شهيٌّ من تورتيا البطاطا<sup>(1)</sup> كثير البيض وكثير البطاطا وبالزيت النّيء، يجب أَن يكون الزيت نيئاً. أخذ لعبها يسيل. لا. صوت «ريمي» ليس كصوت البيض المفقوس.

في أيّ وقت صرنا؟ لا بدّ أَن الفجر قد طلع. صوت «ريمي» كصوت ديكٍ أسود في ليلةٍ سوداء. نعم، هكذا هو. أمّا صوت «إليريتا» فله مستقبلٌ واعد. الأفضل عدم عدّ السّاعات، وعدم عدّ الأيام. لن ترسم على الجدار خطأً واحداً، فليس من ليلٍ لا ينتهي. لو كان هنالك الكثيرون من أمثال «ليستر»<sup>(2)</sup> لاختلف الوضع تماماً. ليت الآلاف كانوا على شاكلة ليستر، فلو كانوا مثله لتمكّنوا من القضاء على الفاشية خلال بضعة أشهر. كان ليستر يتّصف بكلّ الصّفات اللازمة واستحقّ كلّ أوسمته، وهو ما أثبتته قبل «تيرويل» في «برونيتي»، فهو الأول دائماً في القتال والأوّل في كلّ ما يلزم، لكنّ الحظّ خانته، وأحياناً ينبغي للمرء أَن يفرّ بنفسه.

(1) التورتيا من أشهر الأطباق التقليدية الإسبانية، ويتكوّن من البطاطا والبيض والبصل التي تُطهى على شكل قالب.

(2) إنريكي ليستر: قائدٌ عسكريّ شيوعيّ، قاد الكثير من العمليات العسكرية في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وظلّ موالياً للرئيس «نيغرين» حتى اضطره انقلاب «كاسادو» إلى مغادرة إسبانيا إلى الاتحاد السوفيتي.

كما حدث مع «ريمي». على الرغم من أن أي شخص في مكانها كان سيفرّ ويختبئ، إلا «ريمي»، فقد هربت إلى بيتها، لأنها مجبولة على البراءة الصرفة ولذلك ظنت أن الموضوع لن يتجاوز صراخ بائعة السجائر والجارات اللواتي رأينها تنسحب راكضة وركضن وراءها زاعقات. وعندما كادت تصل إلى شارعها لاهثةً وقفت لحظةً لتلتقط أنفاسها المقطوعة. حينئذ، رأت من الزاوية أن أعضاء الكتائب كانوا في انتظارها عند عتبة البيت، وأثمهم أخرجوا من البيت زوجها وبناتها الثلاث العازبات.

من الجيد أن الحارسة الجديدة تدعي الطيبة، ولذلك سمحت لها أن تحضر فوطها الصحية. لا بدّ أنها تظنّ أن كلّ دبابيس الشعر هذه تبدو جميلة عليها. تضع خطوطاً منها فقط لتباهي بأن لديها دبابيس كثيرة، إلا أن الأخريات يحتجن إلى تدبير أمورهنّ بقطع من الأسلاك. ليست طيبة، وكيف يعقل أن تكون طيبة!

والراهبات لسن طبيّات أيضاً، على الرغم من أنهنّ مُلزمات بالطيبة، لكنهنّ لسن طبيّات، حتّى إنهن يشبهن أسوأ الحراس المدنيين. سمحت لها بإحضار الفوط لأنها لم تعرف كيف تقول لا. لا تعرف، ولكنّ الحبراء ستتعلم، ستتعلم كما تعلّمت الأخريات. «لا بينينو»<sup>(1)</sup> ما كانت لتسمح لها بإحضار الفوط، من غير شك لا، و«لا ثاباتونيس»<sup>(2)</sup> كذلك، فهي أسوأ من العمى. لم تحفّ الفوط تماماً ولن تحفّ مع الرطوبة هنا. يا لهذا الضيق!

في تلك اللحظة ركض إلى «ريمي» أصغر أولادها، وتعلّق بأثوابها بعد أن سمع كل الصراخ الذي دار في الساحة. لم تكن «ريمي» حينئذ في حالة تسمح لها أن ترشّ سكر الأغنياء على فظاظه الواقع، لكنّها تقول إنّها وضعت يدها في يد ابنها وأخذت تغني بينها وبين نفسها.

(1) لقب أطلقوه على السجّانة ومعناه «السمّ».

(2) لقب أطلقوه على السجّانة ومعناه «أم الحذاء».

من الأفضل أن تغيّر الفوطة الآن وإلا فسوف تتسخ تنورتها الداخلية. تبقى لديها فوطتان، ولحسن الحظ لم يبقَ لدورتها إلا يومٌ ونصف. ستكفيان، نعم، إذا حسبت الأيام بشكلٍ صحيح واستخدمت الفوط بحذر ستكفيان. يا الله! أحد الكتائبين أرسل ابنها الذي وُلد متأخراً ومريضاً، أرسله ليشتري زيت الخروج. الخوري هو الذي أعطاه النقود. دفعَ من جيبه ثمن إهانة «ريمي». هكذا تروي «ريمي» القصة، قالوا لزوجها: أعطِ ابنك ما يكفي لشراء لتر فزوجتك ستشرب كأساً. وقالت إنهم وضعوا قمعاً في فمها وصبّوا فيه لتراً من الزيت أمام أولادها. وتضحك! هذه البريئة المسكينة تضحك في كل مرة تروي فيها القصة.

تمرّر «توماسا» مفصل إصبعها الشاهدة على رموشها. اللعنة على هذه الرطوبة، فهي تصل حتّى إلى العينين! تضحك «ريمي» لأنّ الصّبي الذي يعمل لدى الصيدلانيّ كان يحبّها جداً. وعندما طلب منه الولدُ البليدُ زيتَ الخروج قائلاً إنهم يريدون أن يطهروا أمّه، قام بتحضير شيءٍ آخر في الغرفة الخلفيّة. حضّر مشروباً مرّاً، شديد المرار. ومع ذلك لم يؤذِ «ريمي» ولا حتّى بمغصٍ خفيف. وبعدئذ، حلقوا لها شعرها على الصّفر وتركوا لها خصلةً في المنتصف ربطوا عليها شرائط قماشيةً من ألوان علم الجمهورية وكتبوا على جبينها «يا عمّال العالم اتّحدوا».

هذا ما انتهى إليه أمر اتّحاد العمّال! بات يُستخدم لإهانة النساء في الجبهة. تقول «ريمي» إن شعرها كان طويلاً كشعر «أورتينسيا»، وشديد السواد مثله. أمّا الآن فلونه من لون الرّماد. تقول إنّه عندما نبتَ من جديد كان لونه قد تغيّر من الخوف. كيف خطرَ لها أن تغني على الرغم من كلّ حذرهما؟ غنّت أغنية حلوة جمّدت يدَ الحارسة الجديدة.

غنّت الأخريات كذلك. لونُ صوت «ريمي» كلون شعرها: لون الرماد الجديد عندما يبدؤون باستخدامه لتنظيف قعر القِدْرِ من السخام. أمّا «إليرا» المسكينة فصوتها بديع. فعلاً، صوت «ريمي» يذكر بالرماد.



المرأة التي ستموت تكتب في دفترها الأزرق. تكتب أن ائنتي عشرة امرأة من الشبيبة الاشتراكية الموحدة دخلن السجن، وأن قضيتيها ستُضمَّ إلى قضيتيهم وسيصدرن قريباً حكماً بحقهن الثلاث عشرة. ثلاث عشرة، كالقاصرات اللواتي أعدموهنّ رمياً بالرصاص في الخامس من آب (أغسطس) سنة 1939، كـ«الثلاث عشرة وردة»<sup>(1)</sup>. تكتب أنهم زجّوا بـ«توماسا» في الحبس الانفرادي، وأن «ريمي» تضفر لها شعرها. وتكتب في مذكراتها أن «توماسا» قد عايشت بكل تأكيد الكثير من الأهوال، فهي ترفض دائماً الحديث عن السبب الذي جاء بها إلى هنا.

يقولون إنها مكثت سنتين في «أوليبيثا» وهي محكومة بالإعدام. وتكتب أن «توماسا» تسأل دائماً عن البحر. تسأل نفس السؤال للجميع.

«هل رأيت البحر؟»... «هلاً وصفت لي البحر؟»

وتكتب أن «إليرا» قد تعافت وأن كلّ من في المهجع معاقبات، حتّى الواشية. تكتب إنهم عاقبوهن أسوأ عقاب.

تكتب وتكتب، و«ريمي» تمسّط لها شعرها.

---

(1) الثلاث عشرة وردة هو الاسم الذي عرفت به فتيات الشبيبة الاشتراكية الموحدة الثلاثة عشرة اللواتي أُلقي القبض عليهنّ في نهايات الحرب الأهلية وتمّ سجنهن وتعذيبهن في سجن «لاس بيتاس»، ثم أُعدمن رمياً بالرصاص. وُجهت إليهن تهمة الانتماء إلى ثورة عسكرية واغتيال مسؤول عسكري رفيع المستوى، معه ابنته وسائقه، ولكن الاغتيال وقع عندما كانت الفتيات الثلاث عشرة مسجونات في «لاس بيتاس».

كلهن يفكرن في «توماسا».

بدأت «أورتينسيا» تحكّ، وكذلك «إليرا»، وقالت: تفقّدي شعري.

وما كادت ريمي تزيل الشعر الأحمر عن صدغها، حتى قالت: «هنالك قملة هنا أيضاً! سأربط المشط حالاً، وسأشده لكي لا تفلت منه أي بيضة من بيوض القمل».

وبعد أن ربطت المشط وشدّته بطريقتها الفريدة، مرّرت في شعر «أورتينسيا» مرّة تلو الأخرى. خصلة تلو الأخرى. مرّرت المشط وهي تكرر قصّة شعرها وأنه كان بهذا الطول وبهذا السواد.

- كان شعري بهذا الطول وبهذا السواد.

استمعت إليها «إليرا» و«أورتينسيا» من جديد، متظاهرات بأنهن يسمعن حسراتها لأوّل مرّة. قالت لهنّ مرّة أخرى إنهم حلّقوا لها شعرها عندما وجدوا العَلَم الذي كانت تطرّزه على منضدة غرفة المعيشة.

وقالت لهنّ إنها سُجنت سنتين في مَحْبَس قريتها، وأن شعرها كان قد طال كثيراً عندما حلّقوه مرة أخرى قبل أن ينقلوها إلى «مُرسِيّة»، حيث حكمت عليها المحكمة العسكرية.

- حكموا عليّ باثنتي عشرة سنة.

اثنتا عشرة سنة!

وقالت لهنّ مرّة أخرى إنها حضرت تلك المحاكمة وهي عاجزة عن تصديق ما يحدث وعاجزة عن الغناء بينها وبين نفسها.

اثنتا عشرة سنة.

بتهمة التّعاون مع ثورة عسكرية.

- كنت أظنّ أنهم هم الثّوار. اختلطت عليّ الأمور كلها!

لم تكن تشعر بأي شيء سوى العار العظيم كلما مرّرت يدها على رأسها الحليق.

كانت تلمس ظهر عنقها كلما تذكّرت ما جرى.

«شعري يغطي عنقي الآن».

ثم تقول مازحة: من يخلق يُضرب<sup>(1)</sup>. تمزح لكي تتمكن من الاستمرار بالكلام. لأنها ستحدث الآن بشأن بناتها، و«ريمي» تُفرّج همّها عندما تتحدّث. «إلبيرا» و«أورتينسيا» تعرفان هذا الكلام، وتنصتان لكي تُفرّج «ريمي» همّها.

- تعالي، يا بُنيتي، جاء دورك.

عندما تتذكّر «ريمي» بناتها تنادي «إلبيرا» «بُنيتي».

- تعالي يا بُنيتي، ضعي رأسك على رُكبتيّ.

تناديا «بُنيتي» وتضع رأس «إلبيرا» على رُكبتها، وتروي أنّ بناتها لم يُصبن بأيّ سوء، أمّا نسيبتها فقد تأدّت، لأنّهم حبسوها معها ثلاثة أشهر في مشرحة الموتى لأنّ سجن القرية كان ممتلئاً.

- عندما قالوا إنّهم سيأخذوننا إلى المشرحة، سألت نسيبتيّ إن كانوا سيشرّحون أجسادنا ونحن على قيد الحياة.

سقوها زيت خروج حقيقياً وحلقوا لها شعرها. يا للمرأة المسكينة! كلّ هذا لأنّهم ظنّوا أنّها كانت تحتفل بسقوط «تيرويل».

وعلى الرغم من دفعها أصابعها في حلقتها لتتقيّأ، وعلى الرغم من أنّها تقيّأت كثيراً حتى إنها لفظت بطانة أمعائها، إلّا أنّ الأمر لم يطل كثيراً، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

---

(1) هنالك عادة إسبانية تقتضي أن يُضرب الشخص الذي حلق شعره على مؤخرة عنقه على سبيل المزاح، لكن هذه العادة لا تشمل النساء في الوضع الطبيعي.

ولكن بفضل الله لم تُصَبْ بناتها بأيّ سوء، وابنها كذلك. الفضل لله ولأحد الكتائبين الذين دخلوا ليفتّشوا البيت.

- كان من الكتائب، وكان إنساناً طيباً، ولم يسمح لهم بحلاقة شعر بناتي أو بإجبارهنّ على شرب هذا القرف. لم يقبل، لكنه لم يحلّ دون أن يجبروهنّ على تنظيف أرضيّة الكنيسة، لكن «ريمي» لا تروي هذا الجزء، لأنّها تفضّل ألا ترويّه.

وفي الوقت الذي قضته «ريمي» في سجن قريتها كانت بناتها يدخلن الساحة يومياً وهن يحملن الدلاء والحرق تحت عيون الجارات الطّافحة بالآتهام، كنّ يقفن لينظرن إليهنّ ويرفعن أصواتهن بالقول:

- لا يمكن لأعبي الأغبياء أن يصدّق أنّهن كنّ يجهلن ما كانت تخطيه أمهن.

- اسمعوا منّي: هكذا سيتعلّمن الأدب.

أمّا هنّ فكّنّ ينظرن إلى الأرض ويسرعن نحو الكنيسة.

تفضّل «ريمي» أن تنسى أن بناتها كنّ يغالبن الدموع عندما كنّ يحضرن لها الطّعام إلى المشرحة، وكانت الدموع تغلبهنّ في بعض الأحيان. لا تتحرّكي يا بُنيتي.

أخذت تفتّش شعر «إلبيرا» الأحمر، وتربّت على رأسها، وتشدّه إلى بطنها بحركة مواربة.

لم تُصَبْ بناتها بأيّ سوء. لم يحدث لهنّ شيء. وابنها كذلك.

- أمّا حبيبي «بينخامين» المسكين فقد بالغوا في إهانتته. لكنّه قوّي. المسكين «بينخامين».

«بينخامين» قوّي. أجبروه على كنس شوارع القرية عقاباً له لأنّه سمح لزوجته بهذا الفعل المخزي. جعلوه يكنس يوماً تلو الآخر حتى



انتهت الحرب. ظلّ يكنس ويكنس حتى نقلوا «ريمي» إلى «مُرسِيّة»، وهناك حكموا عليها بالسجن اثنتي عشرة سنة. ظلّ يكنس ويكنس حتى عرف أنّ زوجته ستقضي فترة حكمها في سجن «لاس بيتاس» وقرّر أن يترك القرية ويستأجر شقّة صغيرة في مدريد ليكون قريباً من «ريمي». المسكين «بينخامين».

\* \* \*

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)



كَلَّ سَجِينَاتِ المَهْجَعِ الثَّانِي معَاقِبَاتِ، وَسَيِّقِينَ مَحْرُومَاتٍ مِنَ الزَّيَارَةِ حَتَّى الشَّهْرِ القَادِمِ. هَذَا مَا قَالُوهُ لـ «توماسا» الَّتِي عَوَّقَتْ أَشَدَّ عِقَابٍ. وَقَالُوا لَهَا إِنَّ «مِيرثيديس» كَادَتْ تَبْكِي وَهِيَ تَعَاقِبُهُنَّ. هَكَذَا قَصَصْنَ عَلَى «توماسا» مَا حَدَثَ عِنْدَمَا عَادَتْ: بِعِظَامٍ مَوْجُوعَةٍ وَتَنُورَةٍ مَلْطُخَةٍ بِالدَّمِ.

- اخْلَعِي التَّنُورَةَ، سَاعِغْسِلِهَا بِالمَاءِ

- سَاعِغْسِلِهَا أَنَا.

- لَنْ تَفْعَلِي شَيْئاً فَأَنْتِ مِنْهَكَةِ

ظَلَّتِ «رِيمِي» وَاقِفَةً أَمَامَ «توماسا» وَيَدُهَا مَمْدُودَةٌ إِلَيْهَا.

- هَيَّا، اخْلَعِيهَا قَبْلَ أَنْ يَقْطَعُوا عَنَّا المَاءَ

وَبَشِيءٍ مِنَ المَوَارِبَةِ انْحَنَتْ «توماسا» أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ لِتَخْلَعَ التَّنُورَةَ مِنْ عِنْدِ رَجْلَيْهَا، وَاسْتَغْلَتِ اللَّحْظَةَ فَسَحَبَتْ الفُوطَ الصَّحِيَّةَ المَخْبُتَةَ تَحْتَ شَاحِلِهَا الصُّوفِيِّ، وَدَسَتْهَا تَحْتَ الحَصِيرَةِ، ثُمَّ نَاولَتْ التَّنُورَةَ لـ «رِيمِي».

- تَفَضَّلِي، وَشُكْرًا

- كُلْنَا نِسَاءً هُنَا يَا «توماسا».

- وَمَا المَعْنَى؟

- مَا مِنْ حَاجَةٍ إِلَى إِخْفَائِهَا

- إِخْفَاءٌ مَاذَا؟

- هَذِهِ

- ألا تسمثن من الفوطة إن لم تكن لك؟ لقد أعطيتك التنورة وشكرتك. وسأغسل ما ينبغي لي غسله.
- حسناً يا بنت الناس، يا لمزاجك الذي لا يتغير! على الأقل أعطني التنورة الداخلية.
- ليس لدي تنورة سواها.
- المرأة التي لم تكن تعرف أنها ستموت، تدخلت كالعادة بينهما :
- هل عادت إحداكما، مجدداً إلى شدّ شعُر الأخرى؟
- الحق على هذه، التي تريدني أن أقف عارية .
- تنورتها الداخلية متسخة...
- صحيح يا «توماسا»، عليها بقعة كبيرة.
- حسناً، سأغطيها بالشال، أم تُردّني أن أذهب إلى الاجتماع بالسروال الداخلي؟ ها؟
- لا تذهبي اليوم إلى الاجتماع، ارتاحي، وغداً ستكون ثيابك قد جفّت .
- كيف لا أذهب؟ ينبغي لنا أن نتقدّم بالطلب حتى يسمحوا لنا بالعمل .
- تمّ تجهيز الطلب وتقديمه .
- والمدرسة؟
- حللنا أمرها.
- قالوا لها إنّ اللواتي يُجِدْنَ القراءة والكتابة يعلّمن من لا يُجِدْنها، وأنّ عملهنّ في مشغل الخياطة ممتاز .
- نخيط قطع ملابس لمقاتلي الغيرريا .

- اللعنة! وكيف تُفْلِحن في ذلك؟

قاطع حضور «إليرا» الحديث. انضمت إلى المجموعة حاملةً بين يديها فستاناً وتورّة داخلية. ناولتهما إلى «توماسا» وهي صامته. كانت قد أخرجتهما من حقيبتها: الحقيبة الجلدية التي ما زالت تظهر عليها آثار الأسفار الكثيرة. أعطتها الملابس التي كانت قبل ذلك لأمّها، وكأنّها تقدّم قرباناً. كانت متأثرة، كأنها تتخلّى عن أعلى ممتلكاتها.

لم تعرف «توماسا» ما ينبغي لها قوله، ولم تعرف «أورتينسيا» و«ريمي» ما ينبغي لهما فعله. أمّا هي فابتسمت. ابتسمت، وأبقت ذراعيها ممدودتين وعيناها تحدقان بالشوب.

كانت أمّها مرتديةً هذا الفستان في آخر مرة رأتها فيها جميلة. كانتا في الميناء في «أليكانتي» في انتظار سفينة لم تأت قطّ. كان «باولينو» قد أخذهما إلى هناك. «باولينو» ورفيقه صاحب اليدين الضخمتين، جاؤوا بهما ذات ليلة إلى «بالنثيا» وذهبا مقتنعين بأنّهما قد تركوهما في مكان آمن.

كانت السيدة «مارتينا» تغزل قفازين من الصّوف لتسلّى وهي تنتظر، أمّا «إليرا» فكانت تنظر إليها بعينين مدهولتين لأنّها لم ترها بهذا الجمال منذ زمن طويل. كانت قد تأثقت من أجل الرحلة: ارتدت فستانها الأجل بعد أن كوّته، ولبست معه معطفاً مخملياً أسود وقبّعة من نفس اللون، لها حافة متناهية في الصّغر لا تكاد تُظلل إلا على نصف وجهها بطريقة تُبرز لون عينيها: لون البحر. كانت «إليرا» قد نسيت هذه القبّعة، على الرغم من أنّها لبستها مراراً عندما كانت تلعب وتتخيّل أنّها امرأة كبيرة أمام مرآة الخزانة، مرتدية أعلى أحذية أمّها.

لا تعرف «إليرا» كم يوماً مرّ عليهما في الميناء وهما جالستان على الحقيبة. لا تعرف كم ليلة مرّت. كانت رائحة الخزامى تفوح من فستان أمّها كلّما أسندت رأسها إلى حضنها لتنام. رافقتها الرائحة في أحلامها واحتضنتها في ذلك الصباح الذي بدأت تسمعان فيه الصراخ.

كان الانتظار هادئاً حتى ذلك الحين، فالآلاف المتجمعون في الميناء كانوا ينتظرون مُتأملين وصول السفن التي ستخليهم، ولم تدبل همهم على الرغم من ضيق المكان وصعوبة الحصول على الطعام .

الرسائل التي بثها القنصل الفرنسي من خلال سَماعة موضوعة على منصّة بُنيت على عجل، هدأت المنتظرين وقوّت عزيمتهم، حيث أكد لهم أن «عصبة الأمم» ستتدخل وأنّ خطتها القائمة على الإخلاء المنظم تجري على قدمٍ وساق.

- انظري يا «إليريتا»، لقد أنهيت غزلَ قفازيكِ. خذي، جرييهما.

ابتلعت الفتاة سريعاً قطعة الشوكولاتة التي حصلت عليها أمّها قبل قليل مقابل قَبعتها. نظّفت إحدى يديها بالأخرى وأخذت القفازين. وفي تلك اللحظة التي جرّبت فيها «إليرا» القفازين جاء صوت القنصل مختلفاً عن المرات السابقة وبدأ الكثيرون بالصّراخ

رفض «الكاوديو»<sup>(1)</sup> وساطة القوى الخارجية، وعرض العفو عن كل من لم تلتطخ أيديهم بالدماء. حينئذٍ بدأ الصّراخ. حينئذٍ اقترب حشدٌ من الرجال إلى الماء وألقوا أسلحتهم إلى الأعماق. حينئذٍ بدأ الناس يتتحرون. أحد رجال الميليشا شق نفسه على عمود إنارة، وقام آخر بربط عنقه بحجر وألقى بنفسه في الماء، وعلى بُعد بضعة خطوات من «إليرا» قتل رجلٌ عجوز نفسه بإطلاق رصاصةٍ في فمه .

حمّتها أمّها من الذعر بإخفائها في حضنها، ودفنت «إليرا» رأسها في رائحة الخزامى .

- شكراً على الفستان يا «إليرا»، لكنه صغيرٌ عليّ.

- في وُسع «ريمي» أن توسّعه.

(1) الكاوديو هو أحد ألقاب فرانيسكو فرانكو، ومعنى الكلمة الأصلي «الرأس».

انتشر خبرُ عقابِ السّجينات في المهجع الثاني كما ينتشر اللهب،  
بين الأهالي الذين كانوا ينتظرون في الطابور في اليوم الأول من العقاب.

-لقد عاقبوا سجينات المهجع ذي الرقم «2».

-عاقبوهن دون زيارة حتى الشهر القادم.

-من هن؟

-سجينات المهجع الثاني.

-كلهن؟

-كلهن.

الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس» هي من تولّت مهمّة إبلاغ  
الأهالي بأنّ السّجينات لن يخرجن إلى قاعة الزيارة. وصرخت قائلة  
للأهالي الذين أحضروا معهم طروداً وطعاماً أن يبقوا في الطابور، وأن  
يغادر الباقون.

-هل يمكن أن نترك هنّ رسالة؟

كان الطابور طويلاً إلى درجة أنّ أحداً لم يتمكّن من سماع ما قالته  
الراهبة إلا أولئك الذين كانوا قريبين منها.

- من المعاقبات؟

- سجينات المهجع الثاني.

- كلهن؟

- كلهنّ.

- عاقبوا كلّ السجينات.

- عاقبوا كلّ السجينات بدون زيارة.

- سجينات المهجع الثاني، هذا ما قالوه.

- سجينتي في المهجع الأول.

- إذن فسجينتك ليست معاقبة.

- وسجينتي؟

- سجينتك في أيّ مهجع؟

- لي سجيتان، واحدة في المهجع الثاني، والأخرى في «الكنيسة»<sup>(1)</sup>.

عندما وصل الخبر إلى وراء كان الطابور قد بدأ يتفرّق، وأخذ الأهالي يتدافعون محاولين الوصول إلى الباب، ووسط ذلك الضجيج كلّ وجدّت «بيبا» جدّ «إلبيرا» وهو يحاول الاقتراب من الرّاهبة.

- هلّا توقفتِ عن المزاحمة يا سيدتي؟ ألا ترين أنّ هذا السيّد متقدّم في العمر!

لكن التدافع استمرّ، ولذلك تمسّكت «بيبا» بذراع السيد «خابيير» خوفاً عليه من أن يقع. أمّا بقيّة المتجمهرين لدى الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» فكانوا يصيحون بأسماء سجيناتهم متسائلين إن كنّ سيخرجن للزيارة.

---

(1) تأتي الكنيسة في هذا السياق بوصفها دلالة على أن المرء في حالة انتظار لنتيجة ما، ومعناها هنا: انتظار تنفيذ حكم الإعدام.



صرخت الراهبة:

-إذا لم تعودوا إلى الطابور فلن يدخل أحد. أريدكم جميعاً أن تقفوا بهدوء في الطابور.

صرخت مرةً واحدةً فقط ولم يكن صوتها أقوى من صوت مَنْ حولها، ولكن الجميع صمتوا.

-قلت قفوا في طابور، وإلا فلن يدخل أحد، ولن أكرّر كلامي.

لم تكرر الأخت «ماريا» كلامها. لم يكن هنالك داع. تعلّقت «بيبا» بذراع السيد «خابيير تولوسا» ومشّت معه ليأخذها مكانها في الطابور.

وكذلك فعل الباقون، لأنّ الجميع كانوا يعرفون أن الراهبة لن تتردّد في إنفاذ وعيدها، وسبق أن فعلتها. لن ينسى أيّ منهم تلك الظهيرة التي غادروا فيها جميعاً دون أن يدخلوا حتّى إلى السّجن، ودون أن يتمكّنوا من تسليم الطعام الذي ضحّوا بالكثير ليحصلوا عليه. غادروا جميعاً بعد أن عاقبتهم الأخت «ماريا دي لوس سيراфинيس».

- أنا وراء هذه السيّدة.

- نحن الاثنتان جننا معاً.

- أتعرف يا سيدي من المعاقبات؟

- أعطيتكما دوري.

- سجينات المهجع الثاني.

- دُوري بعد هذا السيّد الذي يلبس قبّعة.

تشكّل الطابور من جديد وسط همس الأهالي الذين كانوا يصرخون منذ قليل. بعض النساء لم يتوقّفن عن البكاء منذ عرفن أنّهن لن يدخلن إلى قاعة الزيارة، وبعض الرجال كذلك. كان «بينخامين» واحداً منهم، ولكن لم تكن دموعه الأكثر مرارة. كان يعرف ذلك. فالمرأة التي كانت

أمامه جاءت من «ويلبا»<sup>(1)</sup> وكانت تشكو همّها إلى أخرى جاءت من «بيتوريا»<sup>(2)</sup>.

- لن أتمكن من الرجوع حتى العام المقبل. يا إلهي! لن أتمكن من رؤية ابنتي قبل سنة من الآن! لقد ادّخرت طوال هذه السنة حتى أتمكن من المجيء اليوم، وأنا مرغمة الآن على الذهاب دون أن أراها، يا ابنة قلبي.

وقفوا في الطابور حزاني، حاملين معهم الطُرد، وسيعودون إلى بيوتهم دون أن يروا زوجاتهم وبناتهم وأمهاتهم وجدّاتهم وحفيداتهم وأخواتهم. لم تكن الزيارة مسموحة لغير الأقرباء المباشرين.

- سأذهب إلى «كوينكا» دون أن أرى أمي.

- هل تعرفون إذا كان من الممكن أن نُدخل إليهنّ الرسائل؟ لقد جئت من «إل تورنو».

- وأنا جئت من «سانتا كروث دي مويا».

- وأنا من «نوبليخاس».

حاول كلّ منهم أن يعود إلى موقعه السابق، وحاول البعض استغلال الجلبة لكي يتقدّموا في الطابور.

- يبدو أن السيّد على عجلة من أمره.

- أنا؟

- لا، بل أنا! أتظنّ أني لم أرك أيها المتذاكي؟

- لقد كنت وراء هذا السيد الذي يرتدي القبعة.

---

(1) تقع «ويلبا» في إقليم الأندلس جنوب إسبانيا وتبعد 600 كيلو متر عن مدريد.  
(2) «بيتوريا» هي عاصمة إقليم الباسك وتقع شمال إسبانيا وتبعد 350 كيلو متراً عن مدريد.

- لا، لقد كنت وراء تلك القبعة.

- آه، كلامك صحيح.

- دعني أرى سرعتك إذن.

انتظم الطابور سريعاً وأخذ يتقدّم بحزنٍ تجاه باب سجن «لاس بيتاس».

- هل تعرف إن كانت «لا بيبا» قد جاءت الليلة؟

- نعم، لقد أخرجوا ثلاثة.

اقتربت أخت «أورتينسيا» من النساء الواقفات أمامها وسألت:

- من هي «لا بيبا»؟

- التي «تُخرج» يا ابنتي.

- ماذا «تُخرج»؟

- عندما يُخرجُجنهنّ لأخذهنّ.

- يُخرجُجنّ ويأخذنّ من؟

- عندما يُخرجُجنّ المحكومات بالإعدام ويأخذنهنّ.

- إلى أين؟

- إلى أين برأيك؟

لم تسأل أيّ سؤال بعد ذلك. وابتداءً من تلك اللحظة قررت «بيبا» أن تغيّر اسمها إلى «بييتا».

بدأ الطابور يتحرك بحزن. وبحزنٍ مشت «بييتا» نحو باب السجن. وبحزنٍ مشى جدّ «إلبيرا». وبحزنٍ مشى زوج «ريمي»: «بينخامين» المسكين، وبحزنٍ مشت بناته.





منظرُ الغسيلِ المنشورِ على شرفة الجارة أثار قشعريرة «بييتا». دائماً ما تراقبُ الشرفة الواقعة على الناصية بين شارعي «ريلا توريس» و«أتوتشا»، لترى إن كان «فيلبي» يناديها. تراقبها بطرف عينها كلما دخلت إلى البانسيون أو خرجت منه.

كان المساء قد حلّ تقريباً، لكنهم لم يضيئوا مصابيح الشارع بعد، وكانت عائدة من المحطة التي كانت تذهب إليها يومياً لتجمع الفحم المتطاير من تحت القطارات.

عادةً ما تذهب في الصّباح الباكر قبل أن تذهب إلى بيت السّادة. أمّا اليوم، فقد ذهبت مرّةً أخرى في المساء بعد أن خرجت من السّجن أبكر من العادة لأنّها لم تتمكن من زيارة «أورتينسيا». نظرت إلى الشرفة وانتبهت مباشرةً إلى شرشف الكاروهات والمنديلين والجورب المعلق بالملقط فوق أحد المناديل. «فيلبي» يناديها. غدّت خطاها، ولكي لا تشعرَ بالقلق القابض على أحشائها راحت تركض. «فيلبي» يناديها. يمكنها أن تدّعي المرض. في وسعها أن تقع في هذا المكان بعينه وتنقسم إلى نصفين.

ركضت وكأنّ بإمكانها أن تهرب أو أن تتجاهل الثياب المعلقة على شرفة الجارة. ركضت وتناثر وراءها الفحم الذي جمعته في إنائها المعدني. عندما وصلت إلى شارع «ماغدالينا» وجدت السيد «فيرناندو» في وجهها.

- ما بك؟ إلى أين تذهبين راكضةً هكذا؟  
عجزت عن الإجابة.

- خذي نفساً يا امرأة، خذي نفساً واهدي.

شهمت «بييتا» وقالت وسط لهاثها إنها ذاهبة إلى البانسيون.

- هل حدث شيء؟ لماذا تركضين هكذا؟

هزت رأسها بالنفي وقالت إن جامع النفايات يكاد يغادر، وأنها تريد أن تبيع الفحم. انتبهت حينئذ أنها أضاعت نصف الفحم في الطريق فانفجرت ضاحكة.

- ينبغي لي أن أعود لأللم الفحم، كما أنني تجاوزت بسطة جامع النفايات.

استمع السيد «فيرناندو» باستغراب إلى أعذارها وضحكها المفاجئة المتوترة، لكنه كفّ عن طرح الأسئلة.  
- هيا، سأساعدك.

- لا، سألتك بالله أن تدع من يدك، مستحيل يا سيدي.

وعلى الرغم من رفض «بييتا» المتكرر لعرضه، فقد انحنى السيد «فيرناندو» معها ليملاً إناءها من جديد.  
- شكراً جزيلاً يا سيدي.

تلك الليلة تناولت «بييتا» دون جوع، العشاء الذي طهته لها مديرتها في البانسيون: حساء وعجة خيار. تقلّبت في الفراش، على جنبها الأيمن والأيسر، وتقلّبت بين النوم واليقظة حتى سقطت على الأرض. لم يتوقف الغسيل المنشور على شرفة الجارة عن الررفة في أحلامها، وفي يقظتها أيضاً.

«فيلبي» يناديها، ولم تنقسم هي إلى نصفين. ربطت المنبه لتستيقظ قبل موعدها بساعتين لتوافيه عند التل. ولم تنقسم إلى نصفين. ستركب في أول قطار. حتى إنّ معدتها لم تضطرب من العشاء الذي أعدته مديرتها.

كانت تتمنى لو أنّه لا يعود إلى مناداتها أبداً. إنها معجزة أن تُصنع العجّة بدون بيض. مديرتها تجترح المعجزات. نهضت «بييتا» عن الأرض وهي تضحك من خرقها. لا يُعقل أن تسقط فتاة في مثل عمرها عن السرير. عادت لتندس مرةً أخرى بين ملاءات السرير الدافئة. طعم قشور الخيار في العجّة كان يشبه طعم اليقطين.

كيف تمكّنت من أن تُعدّ حساءً له قوامٌ من عظام نظيفة من اللحم وملساء، حتّى إنّها كانت تلمع أكثر من المزهريّة الموضوعة في خزانة الأطباق؟ ومع ذلك بدا الحساء شهياً. ستقول لـ «فيلبي» ألاّ يناديها مرةً أخرى، وأنها تموت من الخوف في كلّ مرة ترى فيها الجورب منشوراً فوق منديل الكاروهات. ستقول له إنّها تخاف بما فيه الكفاية بعد كلّ مرّة تُحییها فيها الجارة في الشارع، بعد أن تلتفت يمنة ويسرة وإلى الأمام والخلف. دائماً توارب التحيّة. «بييتا» متيقنة بأن الجارة تلتفت لتتأكد أنّه لا أحد يتعقبها.

لدى «بييتا» ما يكفيها. ظنّت أنّ الخوف سيبقى في قرطبة. كان ينبغي للخوف أن ينتهي مع انتهاء الحرب، لكنه لم ينتهِ. «فيلبي» قرّر أن يصعد إلى الجبل ويورّط الآخرين معه. والسياسة شبيهةٌ بعنكبوت شعورٍ فاحمة السّواد. تكوّرت «بييتا» على جانب السرير الأيسر، ثمّ على جانبه الأيمن، واحتضنت الوسادة. أدركت «بييتا» أنّها عالقة بشباك العنكبوت اللزجة، وأنّه لا يمكنها الفكّ منه.

لا يفصلها عن رنين المنبه اللعين إلا نصف ساعة. لقد ناداها «فيلبي». وستستيقظ. من غير ريب ستستيقظ، لأن «أورتينسيا» ستشتعل غضباً إذا علمت أنّ «فيلبي» ناداها ولم تذهب لمجرد أنّها لم ترغب في الذهاب. ستشتعل غضباً. لم يبقَ من الوقت إلاّ عشرون دقيقة، والآن تحديداً احتاجت إلى التبول. ستذهب. ولكن ستقول له بكل وضوح إنّها لا تريد منه أن يناديها بعد الآن. كان ينبغي لهما أن يبقوا في قرطبة.

ولكنهم جاؤوا إلى هنا بعد انتهاء الحرب، لأن «فيلبي» هنا، ولأنه ما عاد من الممكن أن يبقوا هناك خوفاً من التحقيق العام<sup>(1)</sup>. من هذا الذي خطرت له فكرة التحقيق العام ليوَقَعَ العداوة بين الجار وجاره؟ كم من الأكاذيب قلت باسم التحقيق العام؟ كم شكوى قُدمت؟ ومنها شكوى كاذبة. يا لهذه الفوضى العارمة. و«فيلبي» صعد إلى الجبل، إلى ذلك التلّ اللعين، وكأنّ قرطبة بلا جبال. كان من الممكن أن يبقى في قرطبة وأن يصعد إلى الجبل هناك. ولكن لا، أصرّ على الالتحاق بـ«الجاكيت الأسود»، وهذا جاء إلى هنا، وكأنّه لا جبال في مكانٍ آخر!

اللجنة على الجاكيت الأسود. يقولون إنه وسيّم جداً. ربما لو كانوا في قرطبة لما سجنوا «أورتينسيا» وما كانت هي لتكون في هذه الحالة: الخوف ينهشها من الداخل لأن «فيلبي» ناداها. كان ينبغي لها أن تعود إلى قرطبة، فما زال لديها بيت والدها هناك. ما زالت تحتفظ بالمفتاح في علبة الصفيح الموضوعة تحت السرير.

سيُتعيّن عليها الرجوع، والبقاء هناك وحيدة كالكلاب. ولكنها وحيدة هنا كالكلاب أيضاً. وتعمل مثل الكلاب. لا تشتكي، ولكن الكيل يفيض بها أحياناً. أحياناً تشعر بالاشمئزاز وهي تأخذ العظام من السيدة «ثيليا»، حتى لو كانت نظيفة لامعة كصحيفة الذهب. ما يدفعه إليها جامع النفايات أكثر قليلاً مما تدفعه هي إلى مديرتها مقابل العظام، لكنّها تجمع القرش على القرش، ومع الفحم الذي تبيعه، وما تتقاضاه من العمل في بيت السادة، تجمع ما يكفيها لأخذ الطعام إلى «أورتينسيا»، فهي لن تسمح بأن تأكل أختها نصف برتقالة ومغرفة ضئيلة من حساء العدس الذي تسعى فيه الخنافس.

---

(1) التحقيق العام: تحقيق قاده وزير العدل في حكومة فرانكو بعد الحرب الأهلية للتحقيق في «كل الأفعال الجرمية التي ارتكبت على الأراضي الإسبانية في أثناء فترة هيمنة اليساريين».



يا لخرة دم أهل مدريد عندما يسمّون سوس العدس: خنافس!  
تبقي أقل من عشرين دقيقة ومع كل لحظة تمرّ تزداد حاجة «بييتا» إلى  
التبول، لكن إن استخدمت المبولة فينبغي لها أن تفرّغها، وهي تحجل من  
عبور الممرّ وهي تحمل بولها. وإذا نهضت فسيبتدّد دفء الفراش. ستحمّل.  
ستكّور على نفسها وستضمّ ساقيها بعضهما على بعض. لا بدّ أن جامع  
النفائات سيطبخ العظام مرةً أخرى قبل أن يبيعها ليصنعوا منها الطحين.  
انتشر الجوع بين الناس، أمّا هي فلا تعاني من الجوع.

رأت امرأتين في شارع «توررينخوس» تنبشان القمامة وتأخذان منها  
قشور البطاطا والبرتقال. ولكنها لا تعاني من الجوع لأنّ وضع مديرتها  
جيد، وتطعمها على الفطور والغداء والعشاء، ولا تأخذ منها أجرة الغرفة  
التي كانت من قبل لابتها التي أعدموها رمياً بالرصاص عام تسعة وثلاثين،  
بعد أيام قليلة من دخول القوميين إلى مدريد. لم يكن للمسكينة ابنةٌ  
سواها، وكان اسمها: «المودينا». السيد «خيراردو» زوج مديرتها مسجونٌ  
في سجن «بورغوس»، وتذهب زوجته لزيارته مرةً واحدة في السنة لعدم  
قدرتها على تحمّل كلفة الرحلة أكثر من مرة.

وتذهب كلّ صباح إلى المقبرة. كما تسمح لها بجمع فتات الخبز عن  
شرشف المنضدة. تتمنى الكثيرات حياةً كحياتها، وكنّ ليطنَ فرحاً لو  
وجدنَ بانسيونا يعطينَ غرفةً بالمجان مقابل مساعدة صاحبه في جلي  
الصحن، وتنظيف المطبخ والممرّ والحمام، وكَيّ الملابس، وتنظيف المكان  
كلّه في أيام الأحاد. هذا هو الشيء الوحيد الذي يزعجها، لأنّ يوم الأحد  
هو يوم عطلتها من العمل في بيت السادة.

السيد «فيرناندو» وزوجته غريباً الأطوار، فهما لا يتحادثان ويعيش  
كلّ واحدٍ منهما في جزءٍ من البيت. يحسبان أنّها حمقاء ولم تنتبه. السيدة  
«أمبارو» لا تحبّ مخالطة الآخرين، وتمضي نهاراتها في غرفتها التي تشبه  
العُلّة على الطابق الثاني، كأنّها حمامة. لحسن الحظّ أنّها وجدت بيتاً لتخدم

فيه وبانسيون «أتوتشا» لتقيم فيه بعد أن سجنوا «أورتينسيا». قالت لها أختها إن كلّ الفضل يعود إلى «الجاكيت الأسود» شخصياً، فهو يعرف السيد «فيرناندو» والسيدة «ثيليا» أيضاً.

كانت «بييتا» تتمنى لو تذهب إلى الحديقة في أيام الأحاد. ولكن هذا ما يقتضيه السّكن بالمجان، خاصّة أنّ البانسيون يقع قبالة بيت السّادة، ولا تحتاج «بييتا» إلا إلى أن تقطع الشارع حتى تصل. تذكّرت الآن ما قالته لها «فيليسا»، التي كانت تخدم قبلها في بيت السيد «فيرناندو». هي أيضاً كانت تعرف «الجاكيت الأسود»، وقالت لها ذات يوم إنه فتى طيّب.

وهذا ما كانت تقوله «أورتينسيا» أيضاً. كلّ الناس يعرفون «الجاكيت الأسود». بعد التأمل، توصّلت إلى أنّ الكثيرات قد لا يحسّدنّها على جمع فتات الخبز الأسمر عن الموائد. بالأمس، ترك حفّار القبور قطعة خبزٍ رائعة. دهنتها بزيّ أخذته من علبة سردين وباعتها في «بويرتا ديل سول»<sup>(1)</sup>. أخذت تنادي: «سندويشة بطعم السردين» وباعتها سريعاً. لعلّ حفّار القبور يعود اليوم أيضاً بنفس الشهيّة.

بقي أقلّ من ربع ساعة. تكاد تنفجر. ستنفجر! ولكنها صنعت كيساً من المخمل الأحمر من قطعة قماشٍ زادت عند سيدتها بعد أن صنعت بعض الوسائد، وعندما يمتلئ كيسها بفتات الخبز وتأخذه إلى الخبّاز تصبّح «بييتا» موضع غيرة الكثيرات. غيرة خالصة، غيرة من النّوع السيئ إذ ليس من غيرة حسنة. لا يغرنّ منها فقط بسبب القروش التي تكسبها، بل يغرنّ من جمال كيسها الأحمر المخملي الذي بطّنته من الداخل بنفس اللون. ستنهض، لا يمكنها أن تحتمل أكثر.

---

(1) لا بويرتا ديل سول: تعني «بوابة الشمس» وهي الساحة المركزية في وسط مدريد.

ولكنها ستذهب إلى الحَمَام ثم ستعود إلى الفراش خمس دقائق.  
حذاؤها باردٌ دون جورب. يا أمي! ما أشدَّ برودته. ارتدت «بييتا»  
حذاءها وكأنها تخوض في مياه نهر متجمّد. أدخلت قدميها رويداً رويداً  
داخل الحذاء دون أن تضع كل وزنها عليه. سارت على رؤوس أصابعها،  
وقد قاطعت ساقها ووضعت يدها على مثانتها. شدّت يدها. لن تصل  
إلى الحَمَام.

لا، لن تصل. تكاد الدمعة تنسلّ من زاوية عينها اليسرى. شدّت  
على شفتيها. شدّت أكثر على ساقها. شدّت على مثانتها بيدها. يكاد  
البول يفرّ منها. ها هو يفرّ. تتعرّق، وتقرّر أن تُخرج المبولّة. فتحت باب  
الكومودينو الجانبيّ، وفتحت ساقها. والآن، بعد أن استرخت: تنهّدت.  
أنار وجهها نصفُ ابتسامة. أغمضت عينيها، وانسلّت منها الدموع  
على مهلها.





لم تجد «بييتا» آية رسالة تحت الحجر المسطح على طريق التل. تفحصت عمود النور وهي تجلس القرفصاء خلف الشجيرة. إنه هو! العمود المشقوق من المنتصف. لعلها وصلت قبل الموعد بكثير. جلست على الحجر، وانتظرت. أخذت تنظر حولها وغطت فمها بأطراف الشال الذي تدفئ به رأسها، وتمسكت بأطرافه بكلتا يديها. بومة. لا بد أن هذا الصوت صوت بومة. لم يكن قد مضى على وصولها أكثر من خمس دقائق عندما سمعت صوت حجارة يُضرب بعضها ببعض. أخذت حصاتين، وردت على كلمة السرّ بضرب إحداها بالأخرى ثلاث مرات. هنالك رجلٌ يدنو منها: ليس «فيلبي»! إنه أصغر من «فيلبي» ويرتدي بنطالاً وجاكيتاً من قماش الكوردروي وقبعة لها حافة، ويحمل رشاشاً على كتفه. عندما رآته، غطت «بييتا» وجهها بالشال الذي غطاه كله ما عدا عينيها، وكأنها قادرة على الاختباء. مكتبة سر من قرأ - لا تخافي يا صغيرتي.

كادت تقفز ذعراً من صوت ذلك الرجل. اتكأت بيديها على الحجر المسطح ونهضت. تركت الشال يسقط وركضت لتلتف حول الشجيرة.

- تعالي، لا تخافي.

لاحقها الرجل ببطء. رفع شالها عن الأرض وأمسكه بين يديه. خطت «بييتا» إلى الورا نحو الشجيرة دون أن تستدير. هو يمشي نحوها ببطء، وهي تخطو نحو الورا وتوجه نظرتها إلى الأمام.

- هل أنت «بيبا»؟

- «بييتا».

- لا تخافي، لقد أرسلني «فيلبي».

ودون أن تكفّ عن المشي، مدّت «بييتا» يدها لتأخذ الشال، لكنّها لم تتمكن من الوصول إليه.

- ومن أين لي أن أعرف أنك لست حارساً مدنياً متنكراً؟ يقولون إن هنالك الكثيرين منهم.

- هذا ما يقولونه، ولا دحّان..

- بدون نار.

- وهل أبدو لكِ ناراً؟ أنا «باولينو»، صديق «فيلبي»، هو من أرسلني.

- وهل يمكنني أن أعرف لماذا لم يأتِ هو؟

- يمكنك أن تعرفي.

إنّه «باولينو»، وقد مضى عليه أمّذ منذ تكلم مع امرأة بهذا الجمال. للصدق والأمانة: مضى أمّذ منذ تكلم «باولينو» مع امرأة. مع أيّ امرأة.

- أعطني شالي

- خذيه

ما زال الشاب والصبيّة يدوران ببطء حول الشجيرة.

- ستقعين. شكلك كالسلطعون.

- ينبغي لي أن أذهب.

- انتظري، معي رسالة من «فيلبي».

- أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

قهقهه «باولينو» ممعناً النظر في عينيها الزرقاوين البديعتين.

انترعت «بييتا» الشال من يديه.

- أتحسب أنك خفيف الظل؟

- لا تشكّي أكثر من اللازم، لست حارساً مدنياً، ولقد تأخرت في

إنكار معرفتك بـ «فيلبي» يا صغيرتي، فقد سألتني عنه منذ قليل.

- لم أسألك عن أحد.

- لقد سألت لماذا لم يأت «فيلبي».

- ينبغي لي أن أذهب.

- يمكن لي أنا أيضاً أن أشك في هويتك، فلم أر في حياتي قرطبيّة

شقراء<sup>(1)</sup> هكذا. كيف تكونين شقراء إلى هذا الحد وأختك سمراء؟

- لا بدّ أنّه كان خطأ سهاوياً.

- يا للخطأ السهاويّ المبارك، وعلى الرغم من أن «أورتينسيا»

بارعة الجمال أيضاً، لكنك لا تشبهين أختك أبداً. كيف لي أن أعرف أنك

«بيبا»؟

- «بييتا».

- حسناً: «بييتا». سأصدق كلامك.

- هذا شأنٌ يخصّك، أمّا أنا فعليّ أن أذهب.

شكوك «بييتا» لم تمنعها من النظر في عيني «باولينو». جذبتها تلك

النظرة التي تلاحقها وتسقط دفاعاتها. وضعت شالها وعادت تقول إنّ

ينبغي لها أن تذهب.

---

(1) تقع قرطبة في إقليم الأندلس جنوب إسبانيا، ويغلب على أهل الأندلس لون الجلد الأسمر.

- ينبغي لي أن أذهب.

- اسمعي، لو كنتُ من الحرس المدنيّ ما كنتُ لأعرف أنّ «فيلبي» تركَ لك تحت هذا الحجر رسالةً إلى «أورتينسيا». كفاكِ عناداً يا صغيرتي.

- كيف ينادي «فيلبي» «أورتينسيا»؟

- «تينسي»، دائماً يناديها «تينسي»، ويحبّها كثيراً.

- ولماذا لم يأتِ هو؟

اقترب «باولينو» منها، فكرّرت «بييتا» السؤال:

- لماذا لم يأتِ «فيلبي»؟

رفع «باولينو» خصلة الشعر التي انزلت على جيبتها.

دفعته يده بعيداً.

لم يطلّع النهار بعد.

\* \* \*



«انظر إليّ. انظر إليّ». كانت «أورتينسيا» تطلب منه دائماً أن ينظر إليها بعد الحب، بعد أن يغادر جسدها، وتبحث هي عن كتفه العاري لتسند رأسها إليه.

«انظر إليّ». كانت تتوسّل إليه بعينها. «انظر إليّ حتى لو لم أكن أنظر إليك». ثمّ تغمض عينيها. «فيلبي» كان يمدّ ذراعيه منهكاً، متعباً من كل شيء حتى من النّظر إليها. كان يتمدّد على ظهره، ويستشعر تبعه ويكذب عليها: «ها أنا أنظر إليك».

والآن، يتحسّر «فيلبي» لأنه ما عاد بإمكانه أن يكذب على «أورتينسيا» ولا أن يعانقها، ويتساءل إن كان سيعود ليعانقها مرّة أخرى، ولو مرّة واحدة قبل أن يموت. يتحسّر لأنّه غضب من «تينسي» عندما لحقت به إلى الجبل.

- هل جُنّنت؟ كان من الممكن أن يتبعوك، وهذا ليس مكاناً مناسباً لامرأة، خاصة امرأة حاملاً.

فردّت له الصراخ بالصراخ وهي تخبره بأنّ أحد القوميين الذين جاؤوا من برشلونة ركل بطنها. والآن، يتندّم «فيلبي» على صراخه في وجهها، ويتذكر آخر مرّة قبلته فيها. ودّعته قبل نزولها إلى «إل جانو» لتشتري دجاجة. نأى بفمه عنها وقال لها إن الجبل ليس مكاناً للقُبْل. ويتندّم الآن على ما فعله. ويتندّم لأنّه لم يُسلّم لها جسده ولو مرّة واحدة منذ وصلت إلى الجبل. «انظر إليّ» كانت تينسي تستعطفه. «فيلبي» يتندّم،

لأنّه خائفٌ من أن يموت. هو لا يهاب الموت، لكنه يخشى أن يموت دون أن يراها مرّة أخرى.

«تينسي». وضع يده على جنبه وشدّ على جرحه ليكبح الألم. تمكنت ضمادة صمغ الصنوبر التي وضعها له «باولينو» بعد تبادل إطلاق النار من إيقاف النزيف، ولكن الألم ينهشه كحيوانٍ كاسر ظالم. حاول «فيلبي» أن يتغلب على الألم بالتفكير في «أورتينسيا». «تينسي». أخرج من جيبه صورتها التي أعطته إياها في «دون بينيتو» عندما كانت تتعلّم القراءة والكتابة. «أهديك هذه الذكرى، برهاناً على حبي. لك إلى الأبد. «أورتينسيا». لك إلى الأبد. مرّر أصابعه على صورتها. داعب وجنتيها.

تحسّس رقّتها برؤوس أصابعه. ربّت على ذراعها. ابتسم لرؤيتها تبسم. قبل عينيها وشفتيها المفتوحتين، وأسنانها المفروقة. إنّها «تينسي»، ترتدي زيّ الميليشيا، وتحمل بندقيتها على كتفها، والنجمة الحمراء الخماسية المطرّزة على الياقة: تبسم له، وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً ليس ابنها. كان يوماً حارّاً في تموز (يوليو)، وكانت قد ارتدت قرطبيها اللذين اشتراهما لها من «أثواغا»، وكانت قد رفعت شعرها وأخفت صفاتها.

- عندما تنتهي الحرب، سننجب طفلاً كهذا، انظر ما أجمله.

رفعت الطفل إلى الأعلى وضحكت.

- يا أمي! يا أمي!

هزّت قرطبيها وهُدب قبعتها. كان الجوّ حارّاً. فتحت «تينسي» سحاب بدلتها الزرقاء فانكشف عنقها.

- ألا تحب أن يكون لنا طفل يا «فيلبي»؟ طفلٌ كهذا، انظر، ألا

تحب؟

- أريد طفلاً يلوّح بقبضته

- وأن يكون له خمس أصابع

- بأصابع أو بدون أصابع، المهم أن يلوح بقبضته.

- كفّ عن هذا يا «فيلبي».

سيقبّل عنقها، ويخلع عنها بدلتها الزرقاء ويداعب ضفائرها. «تينسي». وسيفتح سخّابها إلى أسفل خصرها، وسيهنأ بجسدها الطيّب. سيضبط إيقاع أنفاسه على إيقاع أنفاسها، وسينسلّ بين فخذها النحاسيتين. على مهل. وبعد ذلك ستطلب منه أن ينظر إليها. زمّ «فيلبي» شفّته وكتّم نفسه، لأنّ «تينسي» تنتظر طفلاً، ولن يتمكّن من رؤيتها وهي تحمل طفلها بين ذراعيها.

ضربه الألم من جديد. حاول أن يستند مادّاً بصره نحو الطريق الذي ينبغي أن يعود منه «باولينو».

كل الآخرين ماتوا.

والآن سيموت وحيداً، مرمياً في الجبل، يقبّل صورة «تينسي». «تينسي». «تينسي».

ينبغي له أن يطلق على نفسه رصاصة. رصاصة واحدة. في التوّ واللحظة. كان ينبغي لـ «باولينو» أن يطيعه عندما طلب منه أن يقتله، لكنه لم يقتله.

- لا أريد أن يقبضوا عليّ حيّاً

لم ينصّع رفيقه إلى رجائه.

- لن يقبضوا عليك.

طوّق خصره بذراعه، وثبّته على كتفه ليتعكّز عليه وساعده في المشي إلى أي مكان آمن قبل أن يذهب ليطلب النجدة. اختبأ معه ساعاتٍ تحت الجسر الذي عبره جنود الحرس المدني متصرّين وقد علّقوا جثث رفاقه على البغال.

وفي مخبئتهما، عالج «باولينو» جرح «فيلبي» بضادة من صمغ الصنوبر واستمع إليه وهو يتحدث عن زوجته: كم أحبها، وكم يحبها.  
- خذني لأراها.

توسّل إليه أن يأخذه ليرأها. توسّل إليه طويلاً، ولم تؤلمه الرصاصة التي استقرّت في خاصرته، بقدر ما تألم من غياب «تينسي».  
- خذني لأراها.

- ينبغي لنا أن نخرج الرصاصة أولاً.  
فكّر «باولينو» في السيد «فيرناندو»، لأنّه كان طبيباً، وما زال مديناً لهما بخدمة من أيام «باراكويوس». نعم، تذكّر الدكتور «فيرناندو» أورتيجا»، وتذكّر «باراكويوس» ديل خاراما».

تعرّف إليه «فيلبي» و«باولينو» في الاجتماع الأوّل لمجلس دفاع مدريد الذي عُقد في وزارة الحرب، ورأوه بعد ذلك ببضعة أيام قرب مطار باراخاس مع «كولتسوف»<sup>(1)</sup> عندما كانوا ينقلون أكثر من ألف سجين سياسيّ من سجن «موديلو». قالوا إنهم ينقلونهم إلى سجن آخر. ما زال مديناً لهما بخدمة. تشغيل أخت «أورتينسيا» في بيته يُعدّ مُساعدةً، لكنه ليس خدمة.

ودون أن ينصت إلى «فيلبي»، الذي كان ما يزال يهمس باسم «تينسي»، قرّر «باولينو» أن يلجأ إلى السيد «فيرناندو». اتّخذ قراره وهو ينتظر اللحظة المناسبة ليذهب للقاء وسيطته في بستان «إل ألتوجانو». لن يدع رفيقه يموت، لن يسمح بذلك. لم يتمكّن من الحيلولة دون موت الآخرين، لأنّه لم يتمكّن من إقناعهم بضرورة تغيير مكان المخيم صباح هذا اليوم، عندما اقترب منهم رجل يجمع الحطب في عربة تجرها الثيران.

---

(1) ميخائيل كولتسوف، صحفيّ سوفيتي وكان يُعدّ رجل ستالين في إسبانيا في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية.

أخذ كلبه ينبع، فنزل الفلاح من العربة ليرى ما الأمر. وقف الكلب وصاحبه على بعد مئة متر من المجموعة، التي استلّ كل أفرادها أسلحتهم عندما سمعوا النباح. حاول الرجل أن يهرب.

- إياك أن تتحرّك.

لم يتحرّك. لم يكن يقو على الحركة.

- لا بد أنّك قد خمنت هويّتنا. نحن مقاتلون ندافع عن الجمهورية.

- سمعت بكم.

- وماذا تفكر أن تفعل؟

- لا أعرف ما الذي ينبغي لي فعله.

- ما ينبغي لك فعله هو أن تسدّ فمك وألا تقول لأحد إنّك رأيتنا.

- لن أقول لأيّ أحد.

- إذا قلت إنّك رأيتنا فستعرّض نفسك للخطر. لعلّ الخطر لا يحيق

بك لا اليوم ولا غداً، لكنّ حياتك ستكون مهددة بخطر الموت ذات يوم.

كان الخوف يعصف بيدي الرجل. صاح: «عاشت الجمهورية»

وابتسم.

ولكن الخوف كان جلياً في جلد يديه المقشعر، وفي شعرهما

الواقف، وفي رعشتها، وفي كل مرة التفت فيها إلى الوراء وهو ذاهب.

- ما لا شكّ فيه أنّه لم يفرح لرؤيتنا. رأيت يديه؟

- ها أنت تعود إلى نفس الموضوع

- هذا الرجل سيبلغ عنا

- كلام فارغ

- إذا بقينا فسيمسحونا مسحاً في مكاننا، سيحدث لنا نفس ما حدث في «سان كيتين».

- نرحل بعد أن نتناول غداءنا.

الكل ألقى اللوم على التعب من مشي الليلة الماضية. كان المطر قد هطل وكانوا مبللين. ولذلك لم يلح «باولينو» في طلبه. أشعلوا ناراً وجلسوا إلى جوارها ليحفظوا ويرتاحوا. وبعد ذلك بقليل أحاط بهم جنود الحرس المدني. كانت الساعة الثالثة عصراً وكانوا يأكلون. وصل جنود الحرس المدني متباعدين وأطلقوا النار عليهم من كل الجهات. بعض الرفاق ماتوا ولقمة الجبن ما تزال في أفواههم. انهاروا أمام أول هجوم. أول هجوم! تمكّن «فيلبي» و«باولينو» من كسر الطوق الذي ضربه حولهما العدو باستخدام رمانة يدوية، لكنهم أصابوا «فيلبي»، ولم يتمكنوا من الهروب إلى أبعد من بضعة أمتار. فاختبأ في حقل قمح.

كان هنالك شجيرات تفصل بين الحقل والأرض القفر، وهناك: طلب من رفيقه أن يقتله.

- يمكنهم أن يتشفوا بموتنا، لا أن يتشفوا بحياتنا. ليس لدي الشجاعة لمواجهة ذلك.

ولم تكن لديه الشجاعة الكافية هو الآخر. ساعده في الزحف حتى الشجيرات. اختبأ هناك رافعين سلاحيهما، مستعدين لأن يقتلوا أو أن يقتلوا. سمعا أصواتاً تقترب منهما.

قُتل اثنا عشر رجلاً من مجموعتهما، وقُتل على الأقل خمسة من الحرس المدني بانفجار القنبلة. هم «فيلبي» بإلقاء قنبلة ثانية، ولكن «باولينو» أوقفه:

- انتظر، لا أعتقد أنهم قد رأونا.

- حسناً، لكنني سأقتل أول واحد يرانا.

أول واحد اقترب منهما كان عنصراً من الحرس المدني، والذي تبعه كان رقيباً.

- سيدي، هنالك دماء هنا، لا بدّ أن أحدهم قد أصيب.

ظنّ «فيلبي» و«باولينو» أنّ أمرهما قد انتهى.

- لبستُ البدلة الجديدة صباح اليوم وستسخ هنا في الجبال.

- سيعطونك بدلةً غيرها.

ربما كان الرّقيب يعرف أنّ الموت مختبئ بين الشجيرات. ربما لذلك لم يقتنع بكلام العنصر عندما أشار إلى الدّم. ثم غادرا.

ربما هربا من «فيلبي» و«باولينو». وربما كان لبدلة الرقيب الجديدة كلّ الفضل في بقائهما على قيد الحياة. انتظراهما حتى غادرا تجاه الجسر مع بقية الدورية.

أدرك «باولينو» أنّ أفضل مكان يمكن أن يخبئ فيه «فيلبي»، ريثما يذهب لطلب النجدة، هو الطريق الذي غادر منه جنود الحرس المدني: الجسر.

ومن مخبئهما، شاهدا على ظهور البغال جثث رفاقهما المضرجة بالدماء، وشاهدا رؤوسهم وأذرعهم وهي تتأرجح. كانوا اثني عشر: إرنستو. إل بوررا<sup>(1)</sup>. إل غايغو<sup>(2)</sup>. شاهداهما، ولم يتمكنّا من تفريق أحدهما عن الآخر. سيّباس. كارلوس. وجهاهما مشوّهان. بيكتوريانو. إل توريرو<sup>(3)</sup>. إل تشيكي. توماس. باكو. ثين بالوس<sup>(4)</sup>. موريو. ولكن «باولينو» لن يسمح للـ«قرطبي» بأن يموت.

---

(1) إل بوررا، ومعناه الهراوة.

(2) إل غايغو، ومعناه الجليقيّ.

(3) إل توريرو، ومعناه مصارع الثيران.

(4) ثين بالوس، ومعناه صاحب المثة عصا.

سيذهب لبحث عن «كارمينا»، وهي ستنادي «بييتا»، و«بييتا»  
ستجلب الطّيب، الذي سيُخرج الرصاصة. وبعد ذلك سيرّ «باولينو»  
بالقسَم الذي قطعه على نفسه لأنّ «فيلبي» يريد أن يرى «أورتينسيا».

- أقسم إنك ستأخذني لأراها. أقسم.

- أقسم لك.

\* \* \*



عينا هذه الصبية المذعورة جعلت «باولينو» ينسى خوفه ورغبته في العودة سريعاً إلى «فيلبي». نظرة عينيها الزرقاوين الثابتين أوقعته في لعبة طائشة ما كان ينبغي له أن يقع فيها. عرف «باولينو» أن المسؤول عن كمين الأمس هو الرجل الذي وقف شعر يديه. كان متأكداً من ذلك. ولم يكن يساوره أي شك في أن الحرس المدني سيعودون إلى التل. وسيطته حذّرتهم من عودتهم:

- وضعوا جثث جماعتكم على الأرض في المحطة لكي يراهم الجميع قبل أن يرموهم في الحفرة. ولكنهم يعرفون أن هنالك قتيلين اثنين ناقصان. يعرفون أنّ رجلين قد هربا من الهجوم ويشكون أن أحدهما هو «الجاكيت الأسود».

سيعودون.

سيعودون، سيعودون، هذا ما قالته له. استغلّ اللحظة المناسبة ليطلب من وسيطته أن تُبلغ «بييتا». وركض بعدئذ عائداً إلى «فيلبي» دون أن يضيّع دقيقة واحدة.

وينبغي له أن يعود الآن أيضاً إلى «فيلبي» دون أن يضيّع دقيقة واحدة.

ولكن العينين الزرقاوين هاتين لا تكفّان عن النظر إليه.

- ينبغي لي أن أذهب، سيفوتني القطار.

- «فيلبي» مصاب

- مصاب؟

اتّسعت العينان الزرقاوان بالمزيد من الخوف:

- مصاب؟

- إنّهُ بحاجةٍ إلى طيب.

طيب. «فيلبي» بحاجةٍ إلى طيب، و«بييتا» ما زالت لا تعرف ما الشيء الذي جاء «باولينو» في طلبه.

- هل إصابته خطيرة؟

- إنه بحاجةٍ إلى طيب.

- سبق أن قلتَ لي هذا الكلام. هل إصابته خطيرة؟

- استقرّت رصاصة في جسده، وينبغي إخراجها.

- وما الرسالة التي أرسلها؟

- أنت تعملين في بيت طيب.

- السيّد ليس طبيباً.

- كان طبيباً.

- السيد «فيرناندو»؟

ساورتها الشكوك، لكنها لم تعرف بعدُ ماذا سيطلب منها «باولينو» أن تفعل.

- السيد «فيرناندو» ليس طبيباً. لم أسمع أحداً يذكر أنه طيب، ويعملُ في محل صياغة الفضة في شارع «موراتين».

- كان طبيباً. وإذا كان المرء طبيباً يوماً فإنه يبقى طبيباً إلى الأبد.

- كيف سيكون طبيباً!

- إنه طيب، لا تصرّي يا صغيرة. و«فيلبي» بحاجة إلى إخراج الرصاصة، لأنها إن بقيت، فسيموت.
- يا أمّي<sup>(1)</sup>، يا أم حياتي وقلبي.
- نعم، عرفت «بييتا» الآن ما سيطلبونه منها.
- وبالتأكيد ستطلب مني أن أحضر السيّد. يا إلهي! وكأنّ الأمر يحدث أمام عينيّ: أتريد أن أحضره هنا.
- لا، لا تحضره هنا. سيخبرونك الليلة إلى أين ينبغي لك أن تحضره. التّل لم يعد مكاناً آمناً.
- لم يعد مكاناً آمناً. التفتت «بييتا» برأسها إلى اليمين واليسار، وإلى الأمام والخلف، كما رأت جارتها تلتفت مراراً.
- يمكن أن يبلغ عني السيّد لو طلبت منه هذا الطلب.
- قولي له إنك من طرفي. قولي له إن «باولينو غونثاليث» هو من أرسلك.
- قد يبلغ عنك أنت أيضاً.
- لن يبلغ عني.
- ألا ترى أنّك ذكيّ جداً ولديك إجابة عن كل شيء؟!
- ضحك «باولينو» من جديد، وعادت «بييتا» تسأله عن سبب ضحكه.
- وما الذي يضحكك الآن؟

(1) ينادي الناطقون بالإسبانية أمّهاتهم عند الخوف أو المفاجأة، ويمكن أن يُقصد بها الأم الوالدة أو السيدة العذراء.

- ستخبركِ وسيطتي بالمكان الذي ينبغي أن تحضري إليه الطبيب.  
عند الساعة الثانية تماماً، اذهبي إلى سوق «لا ثيبادا» وابحثي عن البسطة  
ذات الرقم 27 واسألي عن «كارمينا». وهي ستسألك إن كنت تريدين  
شراء البطاطا، ردّي عليها وقولي إنك تريدين أن تشتري البطاطا والبصل  
الأخضر والبقدونس. هل حفظتِ؟ سهلة جداً: بطاطا وبصل أخضر  
وبقدونس. كلها تبدأ بحرف الـ«ب».

- مثل «باولينو».

- ومثل «بيبيتا».

كانت تودّ لو تطلب منه ألا ينظر إليها بهذه الطريقة. ولكنها لم تطلب.  
- أريد أن أرى «فيلبي».

- لا

كان جواب «باولينو» «لا». ثم أضاف:

- لن تريه الآن. سترينه اليوم ليلاً. إلى اللقاء يا صغيرة.

استدارت «بيبيتا» عازمةً على الذهاب.

- وداعاً.

استوقفها ممسكاً بذراعها:

- لا تنسي: بطاطا، وبصل أخضر، وبقدونس. ولا تذكري  
الموضوع أمام أيّ أحد، خاصةً أمام زوجة السيد «فيرناندو».

قالت «بيبيتا»: لا تقلق. ولكنها تمنّت لو تسأله لماذا لا يمكن أن  
تعرف السيدة بالموضوع. تمنّت لو أنها قالت له إنها لا تجرؤ أن تتكلّم مع  
أيّ أحدٍ ولا حتّى مع السيد «فيرناندو». تمنّت لو أنّها سألته لماذا لا تتكلم  
وسيطته معه؟ لماذا؟ ولكنها لم تسأل. لماذا ينبغي أن تكون هي؟ ابتعدت  
عن «باولينو» متشبّثةً بشالها وعيناها في الأرض.

لماذا ينبغي أن تكون هي؟ لماذا؟

لا يقتصر الهرب على ركوب القطار، ولا حتّى على الابتعاد. أن يكون الإنسان بعيداً لا يعني أنّه هرب. أسندت «بييتا» رأسها إلى النافذة وتجنّبت النّظر إلى التّل. أغمضت عينيها نصف إغماضة لتتأى بنفسها عن «باولينو». لأنّه ربّت بيده على شعرها، وقال لها إنّ «أورتينسيا» بارعة الجمال أيضاً. قال «أيضاً». وأمسك ذراعها قبل أن يودّعها، ونظر في عينيها مباشرة. ولهذا تجنّبت «بييتا» النّظر إلى التّل لتضع مسافةً بينها وبين «باولينو»، وبين الطلب الذي جاء به «باولينو». أغمضت عينيها على الرغم من أنّها تعرف أنّ القطار سيمضي بها مباشرةً إلى المكان الذي تزعم أنّها هاربة منه. كلّما ابتعدت عن «باولينو»، اقتربت من السيد «فيرناندو»، وهذا يعيدها إلى «باولينو».

- ما يزال هنالك دماء، ألم تريها؟

- لم يسمحوا بتنظيفها.

جفلت «بييتا» من همسات جاراتها في عربة القطار.

سألت بنبرة تقارب الصراخ: أيّ دم؟

- يا صغيرتي، ألم تري أرضيّة المحطّة؟

لا. كانت تنظر إلى الأرضيّة، لكنّها لم تكن تراها.

- قتلوا اثني عشر بالأمس.

- لا بل عشرة.

- قيل لي إنهم اثنا عشر.

همسات. تهاست المراتان، وتقاربن كثيراً لكي لا تسمعها «بييتا». ولكن «بييتا» سمعتها.

- أنا رأيت الجثث، وكانوا اثني عشر رجلاً.

- مجموعة «الجاكيت الأسود» كلها.

- لا تقولي إنهم قتلوا «الجاكيت الأسود»!!

- لا، «الجاكيت الأسود» لم يكن بين القتلى، هرب هو والآخر. وقبل أن يهربا قتل خمسة من الحرس المدني، أو ستة.

- من يدري، فهم لا يفصحون عن هذا الكلام أبداً.

- لا يفصحون عنه ولن يفصحوا، لكنهم قالوا لي في بساتين «إل ألتوجانو» إن «الجاكيت الأسود» قتل خمسة من الحرس المدني أو ستة وأنه هرب مع واحد مصاب.

- إذن، فـ«باولينو» هو «الجاكيت الأسود»!

أفلتت منها الجملة بصوت عالٍ، لكن لم تسمعها المسافرات الأخريات.

نعم: «باولينو» هو «الجاكيت الأسود».

«باولينو» هو «الجاكيت الأسود». وقد نظر إلى عينيها مباشرة. هو «الجاكيت الأسود»، ولذلك يعرف السيد «فيرناندو». والآن عادت «بييتا» لتلتفت إلى التلّ وتساءلت لماذا لم يقل لها «باولينو» إنه «الجاكيت الأسود». إنها تحمل رسالة من «الجاكيت الأسود».

عندما وصلت إلى محطة «ديليثياس» ظلت تفكر في «باولينو». نزلت من القطار على مهلها. وعلى مهلها تمشت وهي تنظر إلى المحبين الذين استيقظوا مبكرين ليعانق بعضهم بعضاً، والعشاق الذين يتواعدون

على رصيف القطار متظاهرين بأنهم مسافرون يتوادعون، لكي يتجنبوا دفع مخالفة خدش الحياء العام لو تعانقوا في الشارع.

وعلى مهلهما اتجهت إلى المترو وهي تنظر يَمَنَةً وَيَسْرَةً، ورأسها غارق بين كتفيها. إنها تحمل رسالةً من «الجاكيت الأسود». انطلقت في المترو وهي تنظر إلى محيطها بطرف عيناها. فهي تحمل رسالةً من «الجاكيت الأسود». ثم ستخرج من المترو وستنظر نظرةً مواربةً إلى كل من يصعدون الدّرج معها. ستراقب المشاة. ستمشي في الشوارع. ببطء. «لا بويرتا ديل سول»، ثم «مونتيلا»، ثم ميدان «خايتيتو بينابيتي»، ثم «أتوتشا». ثم ستقف على عتبة البانسيون وستنظر يميناً ويساراً، قبل أن تدخل. لأنها تحمل رسالةً من «الجاكيت الأسود».

رنت أجراسُ كنيسة «القديس خوداس تاديو» معلنةً انتصاف الساعة. الساعة الثامنة والنصف. ما زال أمامها وقت كافٍ لتنظف الحُمام وتساعد السيّدّة ثيليا في المطبخ قبل أن تذهب إلى بيت السيد «فيرناندو». عندما فتحت «بييتا» الباب وجدت مديرتها في الممرّ.

- لماذا لم تخبريني بأنك ستخرجين؟

سألتها السيّدّة «ثيليا» بترقب، لأنّ «بييتا» توقظها كلّ صباح لتقول لها إنها ستخرج إلى المحطة لجمع الفحم.

لمست «بييتا» الفضول في صوت السيّدّة «ثيليا» أكثر من الغضب. اكتشفت لحظتها أنّ ساقها ترتجفان وأنها تتنفس بصعوبة، وأنها غير قادرة على الوقوف على قدميها ولا على النّظر إلى وجه مديرتها. لأنها تحمل رسالةً من «الجاكيت الأسود». فوجئت عندما وجدت نفسها هناك: في ممر البانسيون، لأنها لا تذكر أنها مشّت في الشوارع، ولا تذكر أنها ركبت المترو، ولا أنها مشّت على رصيف القطار في المحطة، ولا أنها وصلت إلى محطة «ديليثياس» بالقطار. لا تذكر شيئاً سوى أنّه ينبغي لها أن توصل رسالةً إلى السيّد «فيرناندو». عليها أن تذهب إلى بيت السيد «فيرناندو».

- وجهك أبيض كالشمع، ماذا أصابك؟

لا تريد «بييتا» أن تردّ، لأن رأسها مليء بالزبد، زبدٌ كثيف، وتسمع صفيراً بعيداً، صفير قطارٍ مغادر. عليها أن تذهب إلى بيت السيد «فيرناندو». فهي تحمل رسالة من «الجاكيت الأسود». تبذل جهداً هائلاً لتسمع مديرتها، ولتنظر إليها، ولتثبت بصرها عليها، ولتسمعها، وتبحث بكتفها عن الجدار.

- أين إناؤك؟ ألم تكوني في المحطة؟ أليس كذلك؟

لا تريد أن تردّ. تشعر بصفير القطار وهو يخترق زبدَ رأسها. هي ذاهبة مع القطار. ذاهبة.

وقبل أن تسقط على الأرض انزلق جسدها على الجدار.

لا تريد أن تردّ، ولكن وهي تتهاوى همست: أنا أحمل رسالةً من «الجاكيت الأسود».

\* \* \*



اقتربت ليلة الميلاد. تركت السيدة «أمبارو» رسالةً على مائدة الطعام لزوجها السيد «فيرناندو». تطلب منه أن يحضر لها بعض نباتات الحزاز لأنها تريد أن تعمل مجسماً لمغارة الميلاد. وطلبت منه بالمعية أن يعطيها بعض النقود، فقد صرفت مصروف الأسبوع الذي أعطاها إياه ولم يتبقَّ معها ما يكفي لشراء الديك الرومي لعيد الميلاد ولا لعيدية «بييتا».

قرأ السيد «فيرناندو» سريعاً، باحثاً عن أي أثر للحب من طرف زوجته في الورقة التي يحملها بين يديه. ولكنه لن يجد أي أثر لذلك الحب.

ختمت الملاحظة بقولها إنهما لن يذهبا يوم بعد غدٍ الأحد إلى القُدَّاس في كنيسة «سان فرانثيسكو إل غراندي»، بل إلى كنيسة «سان سباستيان». وذكرته بأن أعمال التصلّيات بدأت بعد طول انتظار في كنيسة «سان فرانثيسكو» وأنهم سيرمون أخيراً المذبح الذي دمّره القصف.

مضى على السيد «فيرناندو» ستان تقريباً دون أن يتكلّم مع زوجته. منذ أكثر من سنتين لا يلتقيان إلا أيام الأحاد. يعقدُ ذراعهُ بذراعِها عند باب البيت ويمشيان إلى الكنيسة وهما ينظران إلى الأمام، ويردان تحيةً من يلتقيهما، ويتسلمان، كما تستدعي قواعد اللباقة. هكذا كان اتفاقهما.

اتّفقا على أن يرافق السيد «فيرناندو» السيدة «أمبارو» إلى القُدَّاس في أيام الأحاد، حتى لا يفسح المجال للشائعات. وأن تعيش هي في الطابق العلويّ. وأن يُعيدا «فيليسا» إلى قريتها، وأن يتعاقدا مع خادمة تتلقّى أجرها بالسّاعة.

- لا أريد أن ينام أحدٌ هنا. لا أريد أن يكون هنالك شاهدٌ يمكنه أن ينقل للناس ما نفعله وما لا نفعله.

تعلمت السيدة «أمبارو» استخدام جملة: «لا أريد».

لا أريد أن أراك في الطابق العلوي. ولا أريد أن أنزل إلى الطابق السفلي وأنت حاضر فيه.

لا أريد أن أصادفك في الممرات.

«لا أريد» اعتادت سريعاً على تكرار هذه الجملة.

- لا أريدك أن تشرح لي أي شيء. ولا أي شيء. أتفهم؟ لا أريد، في حياتي، أن يخاطب لساني لسانك مرةً أخرى.

هذا هو الاتفاق الذي توصل إليه الدكتور أورتيجا مع زوجته عندما أخبرها بأنهم عرضوا عليه وظيفة محاسب في محلّ لصياغة الفضة في شارع «موراتين» وأنه سترك مهنة الطب.

- لقد رأيت دماء كثيرة يا «أمبارو».

- الحرب هي الحرب، وفي الحرب لا بدّ من الدماء. هذا ما قلته أنا لوالدك لكي لا يبلغ عنك. ماذا ستقول له الآن؟ ستقول له بعد كل هذا العمر إنك تخاف من الدم؟

ذكرته بأنه ما يزال على قيد الحياة بفضلها، وأنها هي من أقنعت والده بالألا يذكره في التحقيق العام.

- لقد أخزيت به فيه الكفاية.

تكرّر السيدة «أمبارو» أنّ السيد «فيرناندو» أخزى والده:

- أرى أنك أخزيت به فيه الكفاية.

تكرّر الكلام وهي تعرف أنّه صحيح. لأنّ والد السيد «فيرناندو» طبيبٌ أيضاً، وصديق شخصي من أصدقاء «فرانيسكو فرانكو»، لحقّ به في أثناء الحرب إلى «بورغوس» ليعمل في المنطقة الواقعة تحت سيطرة القوميين. هذا الولاء جعله أهلاً لأن يعينه فرانكو بعد انتهاء الحرب

مستشاراً للشؤون الطبية في وزارة الداخلية. ولم يغفر الأب يوماً لابنه أنه بقي مخلصاً للجمهورية وظلّ يقدم خدماته في المستشفى الميداني في حيّ «تشامارتين».

أخزاه في أثناء الحرب، وأخزاه عندما ترأس الـ«خينيراليسمو»<sup>(1)</sup> أول مواكب النصر في شارع «باسيو دي لا كاستيانا» ورفض ابنه أن يحضر الاحتفال. كانت كل العائلة مدعوة لتحضر الموكب من مقصورة الشرف، جنباً إلى جنب مع أعضاء السلك الدبلوماسي. اصطفّ الحرس المغربي<sup>(2)</sup> لحماية المنصة التي وقف عليها الجنرال «باريلا» عندما أنعم على الخينيراليسمو بوسام «صليب القديس فيرناندو المكلّل بالغار»<sup>(3)</sup> ورفض ابنه أن يحضر.

- اذهبي أنت، أمّا أنا فلن أشارك في مهزلة كهذه. أتعرفين كيف حاز على وسام الغار؟

- لا تكلمني في المهازل يا «فيرناندو»، لا تخاطبني أنت في المهازل. أنت: أيها الصّدق المتجسّد في رجل، يا حضرة النقيب الطبيب أورتيغا، بطل «باراكويوس».

- قلت لك مراراً إنني لم أكن في «باراكويوس».

---

(1) الخينيراليسمو: واحد من ألقاب عديدة أطلقت على فرانيسكو فرانكو، ومعناه الحرفي: الجنرال الأعظم.

(2) استعان فرانكو في الحرب الأهلية بفرقة من الجنود المغاربة ساندوه في اجتياح مدريد، وصاروا بعدئذ حرسه الشخصيين ضمن فرقة عسكرية تتبع له مباشرة وليس للجيش الإسباني.

(3) وسام صليب القديس فيرناندو المكلّل بالغار هو أعلى وسام عسكري لدى مملكة إسبانيا.

ذَكَرَتِ السَّيِّدَةُ «أَمْبَارُو» زَوْجَهَا بِهَذَا النِّقَاشِ وَأَضَافَتْ إِنَّهَا هِيَ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنْ إِقْنَاعِ وَالِدِهِ بِأَنَّ السَّيِّدَ «فِيرِنَانْدُو» لَمْ يَكُنْ مُوجُوداً فِي «بَارَاكُوْيُوسِ دِيلِ خَارَامَا».

- أَبِي لَمْ يَقْتَنِعْ يَوْماً بِهَذَا الْكَلَامِ.

- لَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ عَنْكَ، وَلَمْ أَبْلُغْ عَنْكَ أَنَا أَيْضاً. لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّنِي مَا فَعَلْتَ أَوْ لَمْ تَفْعَلِ.

- «أَمْبَارُو»، عَلَيْكَ أَنْ تَفْهَمَنِي. الدَّمُ يَشِيرُ قَرْفِي، يَقْرَئُنِي.

- كَيْفَ سَأَفْهَمُ؟ أَنَا تَزَوَّجْتُ جَرَّاحاً، هَذَا مَا أَفْهَمُهُ، تَزَوَّجْتُ جَرَّاحاً، وَإِذَا لَمْ تَعُدْ جَرَّاحاً فَنِي وَسَعَكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى رُوسِيَا مَعَ أَصْدِقَائِكَ الشُّيُوعِيِّينَ، وَحِينَئِذٍ سَتَعْصُ أَصَابِعُكَ نَدْماً. لَنْ أَسْمَحَ لَكَ أَنْ تَعْرِضَنِي لِمُهَانَةٍ أَنْ أشرحَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ تَرَكْتَ الطَّبَّ لِأَنَّكَ تَتَقَرَّزُ مِنَ الدَّمِ. ضَعُ فِي اعْتِبَارِكَ أَنَّنِي لَنْ أَقُولَ لِأَيِّ أَحَدٍ أَنَّكَ تَرِيدُ الْآنَ أَنْ تَصْبِحَ مُجَرِّدَ مُوظَّفٍ عَادِيٍّ يَبِيعُ التَّوَافَةَ. لَا تَحَاوِلْ، لَنْ أَحْوَلَ نَفْسِي إِلَى مَسْخَرَةٍ، أَتَفْهَمُ؟ وَلَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِأَنْ تَفْعَلَ الشَّيْءَ ذَاتَهُ بِنَفْسِكَ.

حَاوَلَ السَّيِّدُ «فِيرِنَانْدُو» أَشْهُراً أَنْ يَهْدِيَّ غَضَبَ زَوْجَتِهِ. اسْتَمَرَ بِعَمَلِهِ طَبِيباً، وَأَقْسَمَ لَهَا إِنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى الْكَلَامِ فِي الْمَوْضُوعِ. تَمَكَّنَ مِنْ جَعْلِهَا تَسْتَقْبِلُهُ بِقُبْلَةٍ عِنْدَمَا يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ. كَانَ السَّيِّدُ «فِيرِنَانْدُو» يُحِبُّهَا. تَمَكَّنَ مِنْ إِقْنَاعِهَا بِأَنْ تَهَبَهُ شَيْئاً مِنْ رَقَّتِهَا فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ. كَانَ يُحِبُّهَا، وَلَكِنَّهُ أَحْسَنَ أَنْ إِقْبَالَ زَوْجَتِهِ عَلَيْهِ يُلْزِمُهُ بِالْخُضُوعِ التَّامِّ بِطَرِيقَةٍ كَسَرَتْ نَفْسَهُ. كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ اسْتِسْلاماً أَكْثَرَ حَمِيمَةً، وَأَنْ يَخْضَعَ خُضُوعاً أَلْقَى بِهِ فِي هَوَّةِ كَابَةِ مَا عَادَ قَادِراً عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا.

- لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَسْتَمَرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَا «أَمْبَارُو»، عَلَيْنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ.

- لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَسْتَدْعِي الْكَلَامَ. أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِأَيِّ شَيْءٍ.

- سَأَعْمَلُ فِي مَتَجَرِّ الْفَضَّةِ.

استصعب أن يقولها، لكنه قالها. ولم تقبل زوجته، كما كان متوقعاً.  
نقلت كل أغراضها إلى الطابق العلويّ وصرخت قائلةً إن لسانها  
لن يخاطب لسانه مرةً أخرى في حياتها.  
- في حياتي، أسمعني؟ لن يخاطب لساني لسانك مرةً أخرى  
في حياتي.

وأضافت محدّرة إياه ألا يفكر أبداً في صعود هذا الدرج:  
- لا تصعد أبداً، إلا إذا كنت قادماً لتقول لي إنك صرت طبيباً مرةً  
أخرى. وأنا لن أنزل ما دمت أنت في الأسفل وما دمت مجرد محاسبٍ في  
متجرٍ لبيع التّوافه.

في مساء نفس اليوم، ذهبت «فيليسا» لتودّع السيدة «ثيليا». ثم  
ذهبت السيدة «ثيليا» لزيارة السيد «فيرناندو» بالنيابة عن «الجاكيت  
الأسود».

- أختُ إحدى الرفيقاتِ السجينات بحاجةٍ إلى عمل.  
وعلى خلاف العادة التي تقتضي أن تتعاقد سيدة المنزل مع الخدم،  
عيّن السيد «فيرناندو» الخادمة دون أن يستشير زوجته. وعند تمام السّاعة  
العاشرة من صباح اليوم التالي، فتح السيّد «فيرناندو» باب بيته لفتاةٍ  
عيناها زرقاوان ثاقبتان.

\* \* \*



بدأ الثلج يتساقط أول مرة تلك السنة عندما وصلت «بييتا» إلى بيت السيد «فيرناندو». دقت الباب بخجل، دقة رقيقة وناعمة وقصيرة. دقة واحدة فقط. كان ينتظر «بييتا»، وكان مستعداً للخروج، مرتدياً على كتفيه الرداء الإسباني<sup>(1)</sup> وحاملاً قبعته بيده. استغرب طريقة الباب الضعيفة تلك. استغرب، فقد كانت الساعة العاشرة، موعد وصول «بييتا»، ولم تعتد «بييتا» على طرق الباب بهذه الطريقة. قبل أن يفتح الباب، نظر السيد «فيرناندو» من وراء زجاج إحدى النوافذ ليقرر هل يُحضر المظلة أم لا. ثم اقترب من الباب ونظر من عين الباب. نعم، إنها «بييتا». خبأ رسالة زوجته في جيبه. وفتح الباب.

كان الثلج يتساقط.

- صباح الخير.

- صباح الخير يا سيدي.

- أرايت؟ إنها ثلج.

لم تبادله «بييتا» الابتسامة. لم تغلق الباب. ولم تخلع معطفها ولم تتجه إلى المطبخ كعادتها. ظلت واقفة عند المدخل محدقة به. أما هو، فارتدى قبعته أمام مرآة المشجب، مستغرباً من هدوئها. كان الثلج ينهمر، ولم تركض إلى النافذة لتراه.

(1) كان الرداء الإسباني جزءاً من لباس رجال الدين والأدباء والنبلاء، وهو رداء مفتوح بلا أزرار ولا أكمام، له مشبك واحد عند العنق، ويغطي ملابس الرجل كلها حتى منتصف الساق.

- هل السيّدة هنا؟

- ذهبت إلى القدّاس.

عندئذ، أغلقت «بييتا» الباب ووقفت وراء السيد «فيرناندو». انتبه في المرآة إلى الهالات السوداء تحت عينيها، وإلى شفّتها الشاحبتين، وإلى عينيها المحمّرتين. استدار نحوها وسألها إن كانت قد بكت.

- هل كنت تبكين؟

- يجب أن أقول لك شيئاً.

انحنى السيد «فيرناندو» نحو عينيها.

- هل أنت بخير؟

انتبه للونها الشاحب. أمسك برسغها باحثاً عن نبضها.

- يبدو أنك تكادين تفقدين الوعي.

- يجب أن أقول لك شيئاً مهماً جداً.

وخشية أن تفقد وعيها مرّةً أخرى، قبل أن تقول ما يتوجب عليها قوله، أخذت «بييتا» نفساً عميقاً وكرّرت:

- يجب أن أقول لك شيئاً.

اقتادها السيّد «فيرناندو» إلى أقرب كرسيّ وأعانها على الجلوس.

- سأحضر لك كوب ماءٍ مع القليل من السكر.

عندما عادَ السيد «فيرناندو» من المطبخ وهو يحرك السكر في الماء بملعقةٍ صغيرة، وجد «بييتا» وقد وضعت مرفقيها على ركبتيها، وأخفضت رأسها وغمرت وجهها بيديها.

- خذي، اشربي هذا.

- شيء من طرف «باولينو غونثاليث».



الذي انخطف لونه في هذه اللحظة هو السيد «فيرناندو». أصرّ  
وهو يمدّ إليها الكوب:

- اشربي هذا.

جلسَ إلى جوارها.

- اشربي ببطء.

شربت «بييتا». ببطء.

- اشربي الكوب كله.

الرشفة الأخيرة هي الأكثر حلاوة.

- حضرتك طيب.

بقي صامتاً.

نُطقُ الكلمات الأخيرة هو الأصعب. الكلمات التي لم تقلها بعد.  
ولكنها الكلمات التي ستهذئ روعها. ستقول له على نَفْسٍ واحد أن «باولينو  
غونثاليث» بحاجة إلى طبيب، لأنّ رصاصةً قد استقرّت في جسد «فيلبي»،  
وينبغي إخراجها وإلا فسوف يموت. ستقول على نَفْسٍ واحد إن السيد  
«فيرناندو» هو الطبيب الذي يحتاج إليه «باولينو»، وأن «فيلبي» هو زوج  
أختها «أورتينسيا»، وأن «أورتينسيا» سجينه وحامل، وأنها ستموت لو  
مات «فيلبي»، وأن وسيطةً في الساحة ستعطيها الإشارة لتأخذ سيدها  
ليستخرج الرصاصة من جسد «فيلبي». وأن السيدة ينبغي ألا تعرف  
الموضوع.

- لا أعرف لماذا ينبغي للسيدة ألا تعرف الموضوع، ولكن ينبغي  
ألا تعرف السيدة. هذا ما قاله لي «الجاكيت الأسود». هذا ما قاله. وقال  
إنك لن تبلغ عني، هذا ما قاله لي، قال إنك لن تبلغ عني.

\* \* \*



شارع «آبي ماريا»، العمارة رقم ستة عشر. «آبي ماريا، هذا ما قالته «كارمينا» لـ «بييتا» في سوق «لا ثيادا» بعد أن طلبت منها البطاطا والبصل الأخضر والبقدونس. «آبي ماريا». ميّزت «بييتا» المرأة التي تعلّق الملابس على الشرفة. تكلمت «كارمينا» دقيقةً دون حتى أن تنظر إليها. أبلغتها بمكان الموعد وزمانه: شارع «آبي ماريا» العمارة رقم ستة عشر، الطابق الثالث، الشقة اليمنى، هذه الليلة عند التاسعة والنصف. ثم مضت إلى الجزء الخلفي لبسطة الخضار.

عادت «بييتا» إلى البانسيون. أكلت قليلاً وهي صامته. ساعدت مديرتها في تقديم الطّعام وجمعت فئات الخبز الأسمر في حقيبتها المخملية. بصمّت جمعت الأطباق والملاعق عن الموائد، وبصمّت جمعت الفئات، دون أن تجيب عن أسئلة مديرتها، وهزّت رأسها نافيةً كلّ ما همست به في الصباح قبل أن تفقد وعيها.

- ولكن ألم تقولي إنك تحملين رسالة من «الجاكيت الأسود»؟

- لا يا سيّدي.

وأمام تكتّم الصّبيّة قرّرت السيدة «ثيليا» ألا تلحّ عليها أكثر.

ولكن، وهي تعدّ شراب الهندباء في المطبخ، جاءت «بييتا» وهي تغالب دموعها: جلست على كرسيّ وانفجرت باكياً وحكت لها كلّ شيء. كلّ شيء، تكلمت دون أن تطلب منها ذلك.

ولما كانت «بييتا» تغسل الصحون وهي تبكي، شربت السيدة «ثيليا» كوب الهندباء وحاولت أن تهدّئها.

- لا تتوتري هكذا يا صغيرتي، ستنتهي الأمور على خير. «الجاكيت الأسود» يعرف عمله. وستعتادين على التعامل مع الموضوع بهدوء.

- لا أنوي أن أعتاد على أي شيء. فَلْيُنَسَى موضوعي بعد هذه الليلة وَلْيَكْفَ عن طلب أي شيء مني، فهذا لن يجلب لنا إلا المصائب، ولا شيء سوى المصائب، وقد مرّ على رأسي الكثير من المصائب. لا أعرف عنك، أمّا أنا فلم يقدم إليّ «الحزب» إلا المصائب. سأخذ له الطيب هذه الليلة وسأبتلع خوفي، لأنّ ابتلاع الخوف هو خيارى الوحيد. ولكنني لن أعود إلى كلّ هذا بعد الآن. ستحلّ علينا مصائب وستبكي عيوننا، وهذه هي آخر مرة سأبكي فيها، لقد عشتُ نصيبي من الحزن وبكيت ما كُتِبَ عليّ أن أبكيه، ولا أنوي أن أبكي أكثر.

- قلتُ نفس هذا الكلام عندما ذهبت إلى المقبرة أول مرة.

- الوضع مختلف.

- نعم، الوضع مختلف.

وكان الوضع مختلفاً فعلاً، لأنّ السيدة «ثيليا» لم تعد تبكي، ولأنّها كانت تذهب إلى المقبرة كلّ صباح لتزور ابنتها، كما كانت تظنّ «بييتا». لم تكن تعرف حتّى إن كانت «المودينا» مدفونة في تلك المقبرة. كانت متيقّنة فقط بأنّ ابنتها ميّتة. نعم، كان الوضع مختلفاً، وقد شعرت السيدة «ثيليا» بذعرٍ كهذا الذي تعانیه «بييتا» الآن، عندما اقتربت منها ابنة أخيها «إيزابيل» في ساحة «أنتون مارتين» وهمست في أذنها:

- يجب أن أطلب منك معروفاً يا عمّتي.

كانت ستطلب منها معروفاً. كانت إيزابيل ستبلغها بأنّ حفّار القبور يتغذى كل يوم في البانسيون عندها. وقالت لها إن النساء تصطّف كلّ صباح عند باب مقبرة الشرق<sup>(1)</sup>.

(1) مقبرة الشرق هي أكبر مقبرة في مدريد ومن أكبر المقابر في غرب أوروبا، ويبلغ عدد الموتى المدفونين فيها حوالي الخمسة ملايين.

- ينتظرون، ولكنهم لا يسمحون لهنّ أبداً بالدخول.

النساء المتجهرات يعرفن أن أحد أقربائهنّ سيُعدم رمياً بالرصاص،  
ويأتين آملا أن يُسمح لهنّ برؤية موتاهن.

- قبل أن يرموهم في القبر الجماعي.

وعندما وصلتا إلى شارع «دوري» بالقرب من باب السوق، قالت  
لها ابنة أخيها إن الشيء الوحيد المطلوب منها هو أن تطلب من حفّار  
القبور أن يسمح لها ولفتاة أخرى بالاختباء داخل أحد الأضرحة.

- تقتصر مهمتك على أن تطلبي منه هذا الطلب فقط.

- فقط؟ أن أطلب منه فقط؟ تتكلمين كأنه أمرٌ سهل. وكأنّه لا  
فرق بين أن أسأل حفّار القبور إن كان من الممكن لامرأتين أن تختبئا في  
ضريح أو أن أسأله عن الساعة. لقد جئت يا «إيزابيلا»!

ومع ذلك طلبتُ منه الطّلب في نفس اليوم. وعرضتُ عليه بالمقابل  
أن تعطيه طعاماً وخبزاً أسمر أكثر من سواه. طلبتُ منه الطّلب، وعند  
فجرِ اليوم التالي ذهبت هي نفسها مع ابنة أخيها «إيزابيل» إلى المقبرة،  
واحتملت الخوف الذي أطبقَ على حلّقها. ولكنها لم تُعدّ تخاف. فقدت  
الخوف، كما فقدت الدّموع. ومع فقدان الخوف والدّموع فقدت غضبها  
الأول، وحنقها ونزقها الذي كان ينبغي لها أن تكبحه وهي مختبئة في  
ضريح في مقبرة الشرق، عندما سمعت صوت رصاص البنادق وصوت  
رصاصات الرحمة. لم تشعر حينئذٍ إلّا بغضبٍ مُرٍّ، ابتلعت به ببطءٍ ويأسٍ لما  
كانت تقترب من الجثث وهي تحمل مقصّاً في يدها.

استمعت السيدة «ثيليا» إلى «بييتا»، وهي تتأفف وتكيل الشتائم،  
وهي تغسل الصّحون بغضب وتبلع دموعها.

- اللعنة. أنا أفعل كل هذا من أجل أختي، أففهميني؟ من أجل  
أختي فقط، لأنني أحزن عليها. الله وحده يعلم. اللعنة على أمّ الحزب،

واللعنة على أمّ «الجاكيت الأسود». الحزب اللعين هو السبب في كلّ شيء. اعذريني يا سيدي إن كنت قد أسأت الأدب، ولكن لو كان لحزبنا المبجل أّية فائدة لما وصلنا إلى هذه الحالة، ولا تقولي يا سيّدة «ثيليا» إنني لست محقّة، فحبال الحزب طويلة. سأخذ له الطّيب هذه الليلة، وستكون هذه آخر مرّة.

عندما ذهبت السيّدة «ثيليا» إلى مقبرة الشرق أوّل مرة، قالت لنفسها أكثر من مرّة إنها لن تذهب مرة أخرى. وذهبت ودموعها على وجهها. ذهبت من أجل «المودينا»، لأنّ السيّدة «ثيليا» لم تتمكن من معرفة موعد إعدام ابنتها. لم يتسنّ لها أن تدفنها، ولا أن تغمض لها عينيها، ولا أن تغسل وجهها، لتنظّفه من الدّم قبل أن تُسلّمها للأرض. «المودينا». تذهب لأجلها كلّ يوم إلى مقبرة الشرق، وتحتبئ مع ابنة أخيها «إيزابيل» في أحد الأضرحة وتنتظر حتى يتوقّف صوت الرصاص.

ولهذا تركض بعد ذلك بقليل إلى الموتى، وتقصّ بمقصّها قطعاً صغيرة من قماش ملابسهم ثم تُريها للنساء المنتظرات عند الباب، اللواتي عرفن في الوقت المناسب ساعة أحبائهنّ، لعلّهن يتعرّفن إليهم من خلال قصاقيص القماش الصغيرة تلك، فيدخلن المقبرة، ويتمكّن من إغماض أعينهم، وغسل وجوههم.

- أتعقدين يا سيّدة «ثيليا» أنّه صار في وسعي أن أخفف الحِداد؟



مشت «بييتا» فوق الثلج وهي تضيق عينيها اتقاءً البرد، وترفع قدميها أكثر من اللازم وتثني ركبتها ببطءٍ وكأَنَّها طائرٌ طويل الساقين. حذاؤها ليس الأفضل لمثل هذه الليلة التي غطاها الثلج، ولكن ليس لديها حذاءٌ سواه. رأَتْها السيدة «ثيليا» عندما مسحت الحذاء ولمعته حدًّا البريق، وغيّرت الأرضية الكرتونية التي تضعه فيه منذ وجدت ثقباً يهدد بتمزُّق النعل. رأَتْها وهي تتعل الحذاء، وتعَدّل خطَّ جوربها، وتنظر إلى ساقها في مرآة الخزانة، من الأمام ومن الجانب، وتُسبِّل تنورتها بيديها، كما كانت تفعل «المودينا» قبل أن تغادر غرفتها وتخرج للقاء فتى من الفتيان.

زاد توترُ «بييتا» مند عادت من بيت السيد «فيرناندو».

- سيدة «ثيليا»، هل تمنعين لو لم أساعدك اليوم على العشاء؟  
يجب أن أصلح فستاني.

- لا يهم يا ابنتي، سأندبر الأمر.

كان ذلك هو الفستان الذي أعدته من أجل فكّ الحِداد: فستانٌ ذو تنورة واسعة، رُسِمت عليه زهورٌ بنفسجية كبيرة وبقااتٌ رمادية وسوداء، أهدتها إياه السيدة «ثيليا».

- انظري، كيف أبدو بالفستان؟

- جميلٌ جداً، جميلٌ جداً.

- ولكنه طويلٌ عليّ، أليس كذلك؟

- قليلاً.

- سأكفّه.

وأمام نظرات السيدة «ثيليا» الحنون ركضت «بييتا» إلى غرفتها وهي تُخلّق وسط أزهار تنورتها. ولكنها عادت مباشرة إلى المطبخ.

- هلاً ساعدتني في تقصيره؟

ابتسمت السيدة «ثيليا» وأخذت منها الدبايس. طوّقت «بييتا» خصر الفستان براحتي يديها المفتوحتين.

- كيف تبدو كُسرات الصدر؟

- جيّدة.

- أليست صغيرةً علي؟

- لا.

- وتقوية الذراعين؟

- جيّدة.

- لا أعرف، يبدو لي أنّهما واسعتان عليّ.

- ليست واسعة.

عادت إلى المطبخ ثلاث مراتٍ أخرى، لتسأل السيدة «ثيليا» في كلّ مرّة إن كانت ترى أن ستتين من لبس الأسود الكامل كافيتان للحداد على والدها.

قالت «لا أريد أن أسيء لذكراه»، ثم قالت «ماذا لو غضبتُ «أورتينسيا»؟ ثم قالت «أليس من الأفضل أن أبلغ «أورتينسيا» حتى تخلع هي الأخرى ثياب الحداد؟»

الإجابات التي سمعتها هدأت اضطرابها:



«نصف إسبانيا ترتدي ثياب الحداد. أنا متأكدة أن والدك كان سيُسَرُّ برؤيتك تحلعيه» و«هل يُعقل أن تغضب أختك لهذا السبب يا صغيرتي؟» و«اشتري لها قطعة قماش من متجر بونتيخوس وخذيها لها في الزيارة القادمة».

عند تمام الساعة التاسعة خرجت «بييتا» من البانسيون مُتَأَنِّقَةً، كأنها ذاهبة إلى حفلة، ترتدي فستانها المزيّن بالأزهار الذي كان لـ«ألودينا» من قبل، وفوقه معطف أبيها.

كان السيد «فيرناندو» ينتظرها عند الباب حاملاً حقيبة بيده. احمرّت «بييتا» خجلاً عندما رأت الحقيبة، وتذكرت جرح «فيلبي»، وندمت على ارتدائها هذا الفستان.

وها هي الآن تمشي على رصيف شارع «آبي ماريا» وهي ترفع قدميها وتنظر إلى الثلج. لا يمكنها أن تتجنّب القلق الذي يثيره في قلبها اللقاء الجديد مع «باولينو»، ولا يمكنها أن تنسى قلقها ولا كربها ولا ذعرها من هذا الموعد السري.

خافت من أن تكون قد وقعت في شباك العنكبوت الشُّعُور فاحم السّواد. أخذت تنظر إلى الثلج، لكي لا ترى شيئاً سواه. لكي لا ترى أنها يقتربان من العمارة رقم ستة عشر. لكي لا ترى العالم. لو كان الأمر لها، لعادت أدراجها، ولكانت في قرطبة. لو كان الأمر لها لعادت إلى صيفيّة عام ستة وثلاثين، إلى بدايات ذلك الصّيف، قبل أن تلبس «أورتنسيا» زيّ الغيرريا، ولما كان «فيلبي» يحاول أن يكسب قلبها. أو لعادت إلى الكرنفال، إلى حفلة الأقنعة الراقصة، حين كان والدها ما يزال قادراً على أن يعلمهما الضحك.

ويغمرها الشعور بالذنب، لأنها تشوّق إلى رؤية «باولينو»، ولأنّها تزهو بفستان «ألودينا»، ولأنّها ليست سجينّة مثل أختها ولا جريحة مثل «فيلبي» ولا ميّتة مثل أبيها. يغمرها الشعور بالذنب لأنها لبست ذلك

الفسّتان. ترفع قدميها وتثني ركبتيها. وحتى تحرّر نفسها من شبك العنكبوت التي تخيلها لزجة ومعقّدة، فهي تحاول أن تتكلم مع السيد «فيرناندو»:

- لقد انهمر الثلج.

ابتسم.

- نعم.

- الثلج كثيرٌ إلى درجةٍ حَبَّبَتِ العالم.

\* \* \*

- أحتاج إلى إضاءة أقوى.

مُمدّداً على منضدة المطبخ، كتم «فيلبي» آهاته عندما تحسّس السيد «فيرناندو» حافة جرحه.

- لا تتحرّك.

الإصابة أقلّ خطورة مما كان يخشاه السيد «فيرناندو». حقن المريض بحقنة التخدير الموضعيّ، وأعطى «فيلبي» جرعة من الكحول الإيثيليّة على قطعة شاش.

- أريد إضاءة أقوى، أليس من ضوء آخر؟

لا، لم يكن هنالك ضوء آخر. لم يكن هنالك إلاّ المصباح المعلقة في السقف. ومع ذلك، تمكّن من إخراج الرصاصة بمهارة، وسلّمها لصاحبة البيت، التي كانت مساعده كذلك في أثناء العملية. وضعت الرصاصة في كوب ماء لتنظفها، ثم جففتها بقماشة وعرضتها على الجريح عندما استيقظ:

- أتريدها؟

أجاب بالنفي وهو ما يزال مُحذراً بالمادة التي استنشقتها، وطلب منها أن تنادي أخت زوجته.

- نادي أخت زوجتي.

- سآتي غداً لأغيّر لك الضماد.

- لا داعي لذلك يا دكتور أورتيغا. لقد فعلت المطلوب منك.

- سآتي غداً، في نفس الموعد.

انتظرت «بييتا» و«باولينو» معاً في غرفة صغيرة بلا نوافذ قرب غرفة الطعام. أمضيا الوقت الذي استغرقته عملية «فيلبي» وهما يحاولان ألا ينظر أحدهما إلى الآخر. تكلمت «بييتا» عن «أورتينسيا»، عن حبّهما هي و«فيلبي»، وبالحنن الذي تحسّ به لأنّ أختها سجيّنة. وبعد ثوانٍ من الصمت، عقدت يديها أمام صدرها ووقفت في مواجهة «باولينو» وسألته السؤال الذي لم تتجرأ على طرحه وهما في التل. السؤال الذي شغل بالها منذ توادعا:

- لماذا أنا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا كان عليّ أنا أن أحضر السيد «فيرناندو»؟ لماذا لم تأتِ به «كارمينا»؟

- لأنّ «كارمينا» تعرفني من قبل، وتعرفك، ولم تكن نريدها أن تعرف السيد «فيرناندو» أيضاً.

- ولماذا يا ترى؟

- هكذا تجري الأمور يا صغيرة. من الخطورة أن يعرف شخصٌ واحداً الكثير من الناس.

- أنا أعرف الكثير من الناس، ولا أعرف لماذا كان عليك أن تورطني في هذا المأزق.

- أنتِ متورّطة أصلاً في هذا المأزق.

أومأت بيدها إيماءة مستاءة. أشاحت ببصرها ناحية المشمّع الذي يغطي المنضدة، وحكّت أحد أطرافه بظفرها. لم تُضيف شيئاً، وفكرت في أنّ «باولينو» محقّ في ما قاله. لقد أحاطت بها شبك العنكبوت من كلّ

جانب. لقد تورّطت، تورّطت تماماً في هذا المأزق. ودون أن تنظر إلى «باولينو» أو أن تفكر، قالت له إنه لا يبدو عليه أنه «الجاكيت الأسود».

- لا يبدو عليك اليوم أنك «الجاكيت الأسود».

ولم يكن يبدو عليه أنه «الجاكيت الأسود» لأنه لم يكن يحمل بندقيته، ولا قبعته ذات الحافة، ولا جاكيت الكوردروي. كان يرتدي سترة عليها صفّان من الأزرار وصدراً وقبة منشأة وربطة عنق.

- «الجاكيت الأسود»؟

- أنت «الجاكيت الأسود»، لا تحاول أن تنفي.

- من الأفضل لك ألا تعرفي الكثير.

- يا للأسف، وهلاً تفضّلت عليّ وشرحت لي السبب؟

لم يردّ، اكتفى بالتبسّم.

كانا قد مكثنا أكثر من ساعة في تلك الغرفة عديمة النوافذ، عندما فتحت الباب المرأة التي ساعدت السيّد «فيرناندو»:

- انتهى الأمر. يا صغيرة، زوج أختك يناديك.

نهضا وذهباً إلى المطبخ. مشّت «بييتا» أمام «باولينو»، ودون أن تنتبه أخذت تتبختر في مشيتها. ظلّ «باولينو» ينظر إليها خلسةً حتّى وصلا جوار «فيلبي».

- لن أموت يا «بيبا».

- لا تناديني «بيبا»، قلّ «بييتا».

- كما كان اسمك عندما كنتِ صغيرة؟

- نعم.

- لم أشكرك في المرة الماضية.

- لا داعيَ للشكر، هذا واجبنا.

- شكراً «بييتا»، شكراً من كل قلبي.

رفعت خصلةً عن جبهتها وكرّرت:

- هذا واجبنا.

ابتسمت. ابتسم الاثنان. مدّ «فيلبي» يده فأحاطت بها «بييتا»

بكلتا يديها.

- ما أجملك.

حينئذٍ، نظرَ إليها «باولينو» علناً وقال:

- نعم. لون عينيها مستحيل.

وابتسم هو الآخر. احمرّ وجه «بييتا»، وابتلعت ريقها وضغطت

على يد «فيلبي»:

- الحمد لله أنك لن تموت.

- سأذهب لزيارة «تينسي».

بحث «فيلبي» في عيني «باولينو» عن تأكيد على الوعد الذي

قطعه له في التّل.

- «باولينو» سيأخذني لأراها.

هزّ «باولينو» رأسه مؤكّداً، أمّا «بييتا» فأخذت توبّخهما لمجرّد

التفكير في هذا الجنون:

- هل جُنتما؟

- اهدئي، لقد خططنا الأمر جيّداً.

- تتكلمان مثل بُلهاء القرية. لقد طار عقلكما، أليس كذلك؟

سيقتلونكما إذا قبضوا عليكما.

- لن يقبضوا علينا.

- لا تورطاني في مصيبتكما هذه، حسناً؟ فأنا أعرف إلى أين سيقودنا هذا الكلام.

- اهدئي يا امرأة.

- أهدأ؟ انظر يا فتى، سأغادر هذا المكان فوراً. لا أريد أن أعرف شيئاً.

أفلتت «بييتا» يد «فيلبي» وخرجت من المطبخ.

- انتظري.

لم تنتظر «بييتا». اتجهت إلى الغرفة التي لا نوافذ لها، حيث كان السيد «فيرناندو» مستعداً للخروج، ولكن قبل أن تفتح الباب حاول «باولينو» أن يستوقفها ممسكاً بكتفيها.

- لقد أقسمتُ له إنني سأأخذه، وسأبرّ بقسمي.

- أنت أدري بوعودك وأيمانك، لكن لا تنتظر مني شيئاً.

- سيدخل «فيلبي» السجن مع فتاة من «بينياراندا دي براكامونتي»، أمها مسجونة في «لاس بينتاس». سيتحل «فيلبي» شخصية زوجها يوم عيد الميلاد. ستعمّ الفوضى يومئذٍ، لن يطلبوا الهويات ولن يتبهاوا.

- يا لمهارتكم في توريط الناس! ولكن فليهدأ بالك، لأنك لن تتمكن من توريطي أبداً. أبداً! أفهم؟

- ليس عليك أن تفعل أي شيء.

- إذن لا تشرح لي الخطّة، فأنا لا أريد أن أعرف. فأنتم تُورطون الناس صباح مساء، ولكن يوماً ما سيأتي أحدهم ويورطكم أنتم. من يدري، لعل ورطتكم تأتي من «بينياراندا دي براكامونتي».

- إنها فتاة موثوق بها، وعضو في اتحاد «التضامن العمالي».

- قلت لك إنني لا أريد أن أعرف! أتفهم ما أقوله؟

- لا تغضبي. ما كنتُ لأخبركِ بالأمر لو كنت أشكّ أنّه سيعرّضكِ للخطر.

- أنا لا أعرفُ إن كنتُ مُعرّضةً للخطر أم لا. ما أعرفه هو أن أبي ميّت، وأختي مسجونة، وأنكما ستموتان مقتولين. ولا أريد أن أعرف نصف كلمةٍ فوق ما أعرفه. سيقتلونكم جميعاً. جميعاً.

أخذت «بييتا» تصرخ، ثم خرجت صاحبة البيت إلى الممرّ، وهي تحمل معطف «بييتا» وخرجَ بعدها السيد «فيرناندو».

- يا الله، ما كلّ هذا الضجيج؟ ستخربون بيتي.

- اعذريني، لم أكن أقصد، وها أنا ذاهبة. هل ستبقى أم ستذهب يا سيدي؟

- أنا ذاهبٌ أيضاً، كنت بانتظارك.

- هيا بنا، انقضى الأمر، فلتصبحوا على خير، ولا أريد أن أعرف نصف كلمة أخرى، نقطة وسطر جديد. من الأفضل أن نذهب يا سيدي، هيا بنا.

ارتدت «بييتا» معطفها وفتحت الباب. تركها السيد «فيرناندو» تمرّ وخرجَ الاثنان إلى الردهة.

ودّعتهما صاحبة البيت:

- تصبحان على خير.

قال «باولينو» وهو يمسك بالباب:

- تصبحين على خير.

ولكنّه لم يغلقه. وعندما نزلت «بييتا» والسيد «فيرناندو» الدّرج ناداها بصوتٍ منخفض:



- «بييتا».

- ماذا؟

- انتظري.

- ماذا تريد مني الآن؟

نزل «باولينو» الدرجات التي تفصل بينهما واقترب من أذنها  
وسألها:

- هل لك حبيب؟

\* \* \*



ضوء الطابق العلوي مضاء. يمكن للسيد «فيرناندو» أن يسمع صوت خطوات زوجته من الطابق السفلي. ومن وقع قدميها يعرف أنها كانت تنتظر عودته بقلق. يعرف أنها تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وأنها ستستمر في ذلك بعض الوقت، وستضرب الأرض بقوة حتى تعتبر أن الرسالة قد وصلت: الوقت متأخر. الوقت متأخر. وهي ما تزال مستيقظة. الوقت متأخر للوصول إلى البيت. سيهدأ صوت حذائها شيئاً فشيئاً، حتى يختفي. وسيقسم السيد «فيرناندو» صوتها وهي تبكي، كما بكت كثيراً قبل الآن.

سيقرب من الدَّرَج، وسيشدّ نابض الساعة المعلقة على جدار الممرّ، وسيثير الضجة اللازمة، الضجة الكافية، حتى تعرف السيدة «أمبارو» أنه يسمع صوتها وهي تبكي. كان يودّ لو يصعد إليها ويقول لها إنه ما زال يحبّها. وهي كانت تودّ النزول. ولكن لن يُحَلَّ أيُّ منهما بالاتفاق. سينامان منفصلين، وهما مدركان أن الهوة بينهما تتسع، وسينتظران يوم الأحد المقبل ليمسك كلُّ منهما بذراع الآخر. مضى عليهما عامان تقريباً وهما في انتظار يوم الأحد.

ستكتب له رسالة هذه الليلة، ستقول فيها: لا أعرف مع مَنْ كنت ولا يهمني. سيقروها هو في الصّباح. وستساوره الشكوك حول عمله في متجر الفضة. وسيفكر إن كان قراره خاطئاً. كان يحبّ الطبّ. وسيشعر بثقل في صدره يدفعه إلى أخذ نفسٍ عميق، ولكنّ التوتر سيعيق تنفّسه على الرغم من انتفاخ رئتيه. لأنّه سيتذكّر «كولتسوف»، مراسل صحيفة

«برافدا» الذي سُيعرف لاحقاً باسم «ميغيل مارتينيث»، والذي يُقال إنه كان عميل ستالين في إسبانيا.

ضحكا معاً يومَ تعارَفا. لا يعرف السيد «فيرناندو» إن كان «كولتسوف» هو الذي أعطى الأوامر. يقولون إنه هو. هكذا يُقال. ويقولون إنه كان المسؤول عن إخلاء السّجناء السياسيين من سجن «موديلو». أكثر من ألف رجل. كانت الحكومة قد فرّت إلى «بالنثيا». مهما حاولوا تجميل ما حدث: لقد كان فراراً. كانت مدريد تحت الحصار. والنقيب الطبيب «أورتيجا» يختنق في «باراكويوس ديل خاراما». يختنق، لأنّه لم يوقف المذبحة. النقيب الطبيب «أورتيجا» فرّ هارباً، وعلى طريق «باراخاس» سلّم على «كولتسوف» ولم يتمكّن من النظر إلى وجهه. يختنق.

رأى السجناء يموتون. لم يتبعد عن الحرس الذين كانوا يطلقون النار. لم يتبعد حتى انتهت المذبحة. ظلّ ينظر فحسب، وكان مذنباً. ظلّ ينظر. لم يقل: توقّفوا! ظلّ ينظر إلى الجثث وهي تتهاوى. يختنق. ظلّ ينظر إلى الدّم المتدفّق. ظلّ ينظر. وأعجبه منظر الدّم. وهو يعرف أنّه أعجبه. نظر إلى الدّم وهو يتدفّق. الدم. أوردة وشرابين. وأوداج، وشریان سباتي، وأبهر، وشرابين السيقان والأفخاذ. دُم الأوردة أكثر قتامة. هذه الرصاصة اخترقت وريد السّاق. ظلّ ينظر. ولم يطلق ساقيه للريح إلّا عندما انتبه أنّه يراقب تدفّق الدم وكأنه يُشخص مصدر نزيّفٍ ما. ظلّ ينظر. لم يرمش رمشةً واحدة. وشعر الآن فقط بالتقرّز. ربّما كانوا أكثر من ألف قتيل، ولكنه لم يرَ وجه أيّ واحدٍ منهم.

سيقراً رسالتها صباح اليوم التّالي: «لا أعرف مع مَنْ كنت ليلة أمس ولا يهتمني». وسيحدث ما يحدث دائماً، لأنّه كان جرّاحاً، ولا يريد أن يعود إلى الجراحة. لا يريد المزيد من الدّماء، وها هو يختنق، على الرغم من أنّه تمكّن اليوم من استخراج رصاصة، دون أن يرتعش. أمسك اليوم بمبضع الجراح دون أن يتذكر الدّماء التي سُفكت في «باراكويوس ديل

خاراما». سيقراً صباح الغد الرسالة التي تركتها السيّدّة «أمبارو» في الخزانة قبل أن تذهب إلى القدّاس.

سيتمنّى لو أنّه ينتظر عودة زوجته من الكنيسة، ليقول لها إنّّه عاد إلى الطّب، وأنّه سيعود متأخراً هذه الليلة أيضاً، وألا تقلق، فهو ذاهبٌ لزيارة المريض الذي أجرى له عمليّة بالأمس. لكنه لن يفعل أيّاً من ذلك. سيذهب إلى متجر الفضة مرتدياً ردائه الإسبانيّ وسيترك في الصحن الصغير، الموضوع على الخزانة، المال الذي طلبته السيّدّة «أمبارو» في رسالة: «لم تترك لي عيديّة «بييتا»، ولا المال لشراء الديك الروميّ، وسيأتي والداك لتناول عشاء عيد الميلاد معنا».

\* \* \*



ستشتري «بييتا» قطعة قماش لـ «أورتينسيا» من العيديّة التي أعطتها إياها السيّد «أمبارو». وستخيط لها فستاناً واسعاً ليناسبها طوال حملها وليدفّئها جيداً. ستبحث لها عن قماش صوفي رماديّ مزين بزهور بيضاء. إذا استعجلت فسيكون أمامها مُتَسَعٌ من الوقت للمرور على متجر «بونتيخوس» قبل أن تذهب إلى ميدان «سول» لشراء الديك الرومي الذي طلبته منها السيّد «أمبارو».

أسرعت الخطأ. لا تحبّ «بييتا» أن تستغلّ مشاوير التسوّق لشؤونها، ولكن إن لم تشتري القماشة الآن فلن تتمكن من البدء بالخياطة الليلة. لم يبقَ على الزيارة التالية إلا ثلاثة أيّام، أيّ إنّه لم يبقَ أمامها إلا ثلاثة ليالٍ لخياطة الفستان. ستركض، حتى لا تسألها السيّد «أمبارو» عند عودتها عن سبب تأخرها. قطعت ميدان «خاينيتو بينابيتي» وهي تمسك بشالها وتنظر إلى الأرض، لكي لا تنزلق على الثلج. وقبل أن تصل إلى الجهة المقابلة، انتبهت لأحد الناس يتبعها. إنه رجل. هنالك رجلٌ يتبعها عن قرب.

ولكن لا، مرّ الرجل بجانبها ثم تجاوزها. تنفّست الصعداء ورفعت بصرها عن الأرض لحظة ثمّ عادت تنظر إلى الثلج وحبست أنفاسها. ثبتت في مكانها. رأت الرجل الذي تجاوزها واقفاً عند زاوية شارع «لا بولسا» يحيطها رافعاً قبعته وهو يطفئ سيجارته بكعب حذائه. أغمضت «بييتا» عينيها. أدارت كتفها وتوارت خلف شالها قبل أن تنظر مرّة أخرى إلى الزاوية التي كان ذلك الرجل يقف عندها مستنداً إلى الجدار. نعم! إنّه يحيطها مرّة أخرى ويشدّ قبعته إلى الأمام. أخذت «بييتا» خطوة إلى الوراء. بدأ الرجل يمشي إليها.

- اشبكي ذراعك بذراعي يا صغيرة، لا تخافي.

إنّه «باولينو»، نعم إنه هو. لم يقل أيّ شيءٍ آخر. أخذها إلى كنيسة «القديس خوداس تاديو» وأضاء شمعةً في الدّاخل، ثمّ أعطاه «بييتا» وأشعل أخرى:

- سنذهب إلى «تولوز»<sup>(1)</sup>

كانت الشمعة في إحدى يديه، وقبعته في يده الأخرى، وكرّر إنهم ذاهبون إلى «تولوز». اقترب من أيقونة القديس خوداس وسألها إن كان هو القديس الذي يجد عريساً للصبايا. فأجابته بالنّفي:

- لا، القديس الذي يجِدُ العرسان هو القديس أنتونيو دي لا فلوريدا.

- أين أضع الشمعة؟

- هنا، هات يا صغيري.

وضعت «بييتا» الشمعتين على رفّ الشموع.

- وماذا يفعل هذا القديس؟

- إنه شفيع المستحيلات.

- هل ستذهبن إلى القديس أنتونيو دي لا فلوريدا؟

- وما علاقتك أنت بالموضوع؟!

- لا تذهبي إلى القديس أنتونيو، فلن تحتاجي إليه.

لم يكونا وحيدتين في الكنيسة، وكان بعض المصلّين ينظرون إليهما. ولكن «بييتا» تحرّرت دفعةً واحدة من خوفها من أن يراها الناس مع

---

(1) تقع تولوز في جنوب فرنسا، كانت تُعدُّ عاصمة المنفيين الإسبان من الجمهوريين.



«باولينو». تحرّرت من الخوف الذي شلّها في السّاحة عندما رأت «الجاكيت الأسود» واقفاً عند الزاوية. لم تعد تخاف من أن يروها وقد عقدت ذراعها بذراعه، ولم تعد تخاف من أن يلمسها «باولينو». اقتربت منه وسألته عن مكان «تولوز».

- في فرنسا، لكنني سأعود قريباً، وسأتي إليك إن كنت تريد أن تكوني حبيبتني.

- عندي حبيبٌ في قرطبة.

- هذا كذب.

- وهل ستعرفني أكثر من نفسي؟!

- هذا ما قاله لي «فيلبي».

- كيف حاله؟

- أفضل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- متى ستذهبون؟

- هل ستعطينني جواباً؟

- جواباً عن أيّ شيء؟

- عمّا جئت أطلبه منك.

- لا تجري الأمور بهذه الطّريقة في قرطبة.

- وكيف تجري الأمور إذن؟

- تأخذ الأمور وقتها. يحوم الرجلُ حول الفتاة، وإن أعجبها،

تسمح له بأن يحوم حولها. ويستمرّان على هذه الحالة فترةً طويلةً إن كان الشابّ جاداً.

ليس أمام «باولينو» الوقت اللازم ليكسب ودّ امرأة بالطريقة التي تطيب لـ «بييتا». ولذلك أعطاهها موعداً حاسماً:

- تعالي هذه الليلة إلى شارع «آبي ماريا» وأبلغيني ردّك.

قالت لهما امرأة تقف وراءهما: «صه» حتى يصمتا. أضواء «باولينو» شمعةً أخرى وأعطاهما «بييتا»، وهمس في أذنها طالباً منها أن تقدّمها نيابةً عنه إلى القدّيس شفيع المستحيّلات.

نظرت بطرف عينها إلى المرأة التي أسكتتهما، وهمست لـ «باولينو» دون أن تحرّك شفّتيها:

- ماذا تريد أن أطلب منه؟

كانت «بييتا» تقبض على الشمعة بيديها الاثنتين، فأحاطهما بيديه وقال:

- أنت تعرفين طلبي يا صغيرتي.

ثم ذهب. رأته يمشي تجاه الباب. رأته يبلل أصابعه بالماء المقدّس ويرسم إشارة الصليب على وجهه كيفما اتّفق دون أن يرفع عينيه عنها. وعندما كان سيُقبّل إبهامه، سارعت «بييتا» إلى رسم إشارة الصليب ورفعت إبهامها أيضاً إلى شفّتيها، دون أن ترفع عينها عنه.



عندما يُقبَضُ على أحد الرِّفاق فعلى البقية أن يأخذوا حذرهم. قبضوا على «كارمينا». ينبغي أن يغادر «فيلبي» و«باولينو» البيت الذي في شارع «آبي ماريا». سيغادران صباح هذا اليوم، حال عودة «باولينو». سينزلان في بيت تلك العائلة في قرية «بينياراندا دي براكامونتي»، في شارع «آيالا» وسيبقيان حتى يوم عيد الميلاد، وسيذهبان من هناك إلى سجن «لاس بيتاس»، وبعدئذٍ فسينطلقان تجاه «تولوز».

ظَلَّ «فيلبي» جَزَعاً في انتظار «باولينو»، الذي ارتكب حماقة الخروج إلى الشارع. لم يتمكن من منعه، فالـ«جاكيت الأسود» عنيد، كما أنه رفض أن يعطي أي مبررات لخروجه، ولم يأخذ بعين الاعتبار احتمالية افتضاح أمره. خرج إلى الشارع بعد أن تلاسنَ مع «فيلبي» الذي زجره قائلاً:

- إلى أين تذهب؟

- سأخرج قليلاً، وسأعود سريعاً.

- هل جُنتت؟ هل صدَقْتَ أنَّك لم تعد فارّاً من وجه العدالة،

لمجرد أنَّك خلعتَ جاكيت الكوردروي؟

- ها أنا متنكر في زيّ أهل المدينة، وتنكرني مقنع.

- ولكنّه ليس مقنعاً بما يكفي حتى تخرج بحماقة أمام الأنظار. ما

الذي أصابك؟

- سأعود خلال ساعة. أقسمُ لك.

- ولكن، إلى أين ستذهب؟

- ينبغي أن أخرج.
- لن تذهب إلى أيّ مكان.
- «فيلبي»! سوف أخرج.
- ألا تخبرني بوجهتك على الأقلّ؟
- سأخبرك إذا أضرتّ عليّ.
- أنا مُصرّ، أقسمت عليك برحمة أمواتك.
- أنا خارجٌ لأرى «بييتا».
- ماذا قلت؟
- قلت إنني خارجٌ لأرى «بييتا».
- وماذا بينك وبينها؟
- كلُّ خير. سأعود خلال ساعة يا رفيق، أقسمُ لك.
- لستُ «رفيقتك» أيّها السافل ما دمت تحوم حول فتاةٍ وأنت تعرف أنّها يتيمة الأم والأب وتعرف أنّها وحيدة وأنك تعرّضها للخطر. هي وأنت وأنا، كلنا ستتعرّض للخطر إن خرجت أنت إلى الشارع.
- خطرٌ أكبر من خطر الذّهاب لرؤية «تينسي»؟ أليس كذلك؟
- لا تذكر حتّى اسمها على لسانك يا ابن القحبة، والله سأقتلك.
- لم يُفذهما الجدل في شيء، فقد خرج «باولينو»، تاركاً «فيلبي» على الدّرج وهو يكيّل له الشتائم.
- عندما عاد «باولينو»، أخبره «فيلبي» بأنّ «كارمينا» سقطت في قبضتهم، وأنّ عليهما أن يغادرا في التّوّ واللحظة. تجادلا مرةً أخرى، لكنهما خرجا بملابس أهل المدينة بعد أن تعانقا.

لم يكن «باولينو» مرتاحاً في ملابسه، وكان يُدخل أصابعه بين الفينة والأخرى في ياقة القميص لكي لا يختنق من قساوتها. لم يتوقف عن التفكير في «بييتا» وهو في القطار المتجه إلى ميدان «مانويل بيشيرا». كان جالساً إلى جوار «فيليب» ويردّ على أسئلته بإجابات متناهية في القصر. يعرف أنّه يحاول أن يتحدث معه، ليلطفّ الجوّ بينهما، بعد كل الشتائم التي كاهها إليه منذ أقلّ من ساعة، لكنه لم يكن راغباً في الكلام.

- لا تنظلي عليّ خدعك. أنت منزعجٌ من ملابس المدنيين هذه لأننا نبدو مدنيين حقاً.

- آها.

- وهذا معروف.

- ما المعروف؟

- معروف أنّ هذه الملابس تزعجك، وفي النهاية ستخلع الياقة.

- آها.

- اتركها إذن، لقد أثّلت أعصابي!

لقد تخلّى عنها. تخلّى عن «بييتا» كما تخلّى قبلها عن «إلبيرا» وعن أمّه في ميناء «أليكانتي». من الممكن ألا يراها مرّة أخرى وأن تختفي وسط ظلال هذه الفوضى، كما اختفت أمّه وأخته اللتان لم يصله أيّ خبر بشأنهما منذ ذلك الحين. لا يعرف «باولينو» إلّا أنّهم اعتبروا كلّ الذين كانوا في الميناء سجناء سياسيين، وأنّهم فصلوا النّساء عن الرّجال وحبسوا الجميع. حتّى دور السينما في «أليكانتي» تحوّلت على عجلٍ إلى سجون.

واستخدموا بعض الأديرة سجوناً. وعندما فاضت دور السينما والأديرة بالسجناء أخذوا النّساء إلى معسكر اعتقال «لوس ألمندروس»، وأخذوا الرّجال إلى معسكر اعتقال «ألباتيرا». أخبره أحد رفاقه في الحزب أنّهم نقلوا لاحقاً عدداً كبيراً من النّساء إلى مدريد. أخذوهنّ بالقطار، وفي

الطريق مات خمسة أطفال. استغرقت الرحلة خمسة أيام في قطار عرباته ملحومة وكان الحرُّ خانقاً. في اليوم الأول أعطوا المرأة الواحدة حبة برتقال وعلبة سردين. وفي اليوم الثالث أعطوها نصف رغيف من الخبز الأسمر، وكان هذا هو كل طعامهن طوال أيام الرحلة الخمسة.

- مدريد جميلة.

لم يتمكن من إبلاغ «بييتا» بأنه سيغادر شارع «آبي ماريا». لم يستطع. ولم تُرد صاحبة البيت أن تحمل إليها رسالة منه. قالت لا، وأنها لا تريد أن تكون الرسالة في حوزتها إذا قبضوا عليها. غضب منه «فيلبي» مرة أخرى عندما سمع ما كان يطلبه منها.

- لقد انزاح عقلك من مكانه يا فتى! تبخر عقلك كله في لحظة!

- كنت أريد أن أرسل إليها رسالة فقط.

- اللعنة! بشأن أية رسائل تتحدث؟ ألا تفهم أنه لا يمكن لهذه

المرأة أن تعرف حتى اسمها؟ وها أنت أيها الأحق تعطيها الاسم والعنوان!

- طلبتُ منها أن تأتي الليلة.

- طلبت من «بييتا» أن تأتي هنا؟

- نعم.

- أبدعت!

رأى «فيلبي» في وجه «باولينو» ذعراً لم يره قبل تلك اللحظة، ولا حتى في أثناء أسوأ الفظائع التي شهداها معاً. نظر إلى عينيه مباشرة وطلب منه ألا يقلق، وأنها سيخبران «بييتا» كي لا تذهب إلى البيت في شارع «آبي ماريا».

- انظر، حاولنا بناء متراس هناك ولم ننجح في مهمتنا.

كان القطار يدور حول «بويرتادي ألكالا».

- نعم.

سيبحث عنها عند باب السّجن. وسيحاول الاقتراب منها  
وسيعطيها رسالة. سيكتبها اليوم.

- كمّية الثقوب التي أخذتها الرصاصُ هائلة! تبدو الجدران مثل  
شبكة الصيد!

«فيلبي» غريب الأطوار، فقد حضنه حضناً غامراً قبل أن يفتح  
باب البيت في شارع «آبي ماريا» عندما قال له:

- لا تقلق على «بييتا». تعال إليّ أيها الأزعر. عانقني يا ابن  
الكلب، فعلى ما يبدو أن جرحك أعمق من جرحي.

يُظهر «فيلبي» القسوة، لكنّه رقيق، خاصةً عندما يتحدث بشأن  
«تينسي». لم يشتم «باولينو» إلّا لأنّه ذكر اسمها. كما أنّه يحبّ «بييتا»  
كثيراً، فهذا واضح، لأنّه توقّف على الدرج ليعانقه عندما أخبره بأمر  
دخولها إلى كنيسة «القديس خوداس تاديو». وهكذا زال عنه الغضب.

من أين أتى «باولينو» بهذه الحقيبة المبطّنة التي أخفى في بطانتها  
الأسلحة؟ لا بدّ أنّه حصل عليها هذا الصّباح، لأنّها لم تكن معه بالأمس.  
لم يسمح له بحملها، فلا أحد أكثر منه عناداً. قال له: «إن أوقفوني تصرّف  
كأنك لا تعرفني، سأ تقدّم عنك بضع خطوات، وإذا رأيت أنّهم أوقفوني  
فتصرّف كأنك تنظر إلى الأفق وتابع مسيرك كأنّ شيئاً لم يكن، كل  
الاحتياطات واجبة». ومع ذلك، جلس إلى جواره في القطار ولم يتوقّف  
عن التحدّث معه، لأنّه رقيق ولا يحتمل أن يبقى غاضباً.

- قاربنا على الوصول.

لن يسمح له بأن يحمل الحقيبة مرة أخرى. إذا اقتضى الأمر  
فسيترك الحقيبة من يديه عندما ينزلان من القطار. فقد رأى كل شيء في  
وجهه عندما عانقه وقال له «جرحك أعمق من جرحي». شدّ «باولينو»

ياقة القميص مرّة أخرى، ثم أغمض عينيه. «بييتا». تراءت له وهي جالسة على الحجر في طريق التلّ وهي تحاول أن تغطّي وجهها بالشال. تراءت له وهي تمشي مذعورةً حول الشجيرة وهي ترفع شعرها عن جبهتها. وتراءت له بفستانها المزهر وحذائها المبلل وهي تتبختر في مشيتها. تراءت له غاضبةً، وصارخةً، وتراءت له وهي تحمل الشمعة في كنيسة «القديس خوداس تاديو». تراءت له وهي ترسم إشارة الصليب وهي تنظر إليه ثم تقرب إبهامها من فمها.

شعرها على شفّتيه.





سيكون فستان «أورتنيسيا» جاهزاً في عيد الميلاد: المرأة التي ستموت ستكون مرتديةً هذا الفستان عندما تذهب للقاء الموت. فستان من الصوف الرماديّ مزين بزهور بيضاء. وخَزَت «بييتا» إصبعها وهي تخطط آخر غرزة. مصّت قطرة الدم التي نبعت من إبهامها وهي سارحة الذهن تنظر إلى الشارع من الشرفة. مساءً يوم الأحد يشارف على الانتهاء، والثلج الذي تساقط خلال الأيام الماضية تحوّل إلى أكوام بُنية اللون كبيرةٍ وصغيرةٍ تذوب ببطء على جنب الطريق. تركت «بييتا» الشّرفة وذهبت إلى المطبخ. كانت ما تزال منعزلة عن كل ما حولها وكان فستان أختها بين يديها. ستستأذن السيدة «ثيليا» لتستخدم المكواة:

- أسمحين لي يا سيّدي بأن أكوّي فستان أختي؟

- طبعاً يا ابنتي. دعيني أشاهده. أحسنتِ صنعاً، الفستان جميل جداً.

راقبتها السيدة «ثيليا» وهي تملأ المكواة بالفحم، وتختبر درجة حرارتها بسماع الصوت الذي تُحدثه عندما تلمسها بإصبعها المبللة باللعب. راقبتها وهي تمرر المكواة على القماش في مسارات قصيرة ودقيقة وهي تستمع إلى المسلسل الإذاعي. لم تقل لها مديرتها أيّ شيء، لأنّها لم ترغب في كسر الصمت الذي أحاط بـ«بييتا»، وهي تقلب الفستان لتكوي التنورة، وترشّ بالماء زهوره المجعّدة التي تعاند الكيّ، وتكرّر تمرير المكواة بعد أن تعود لتضع إصبعها عليها لتتأكد أنّها ما تزال ساخنة.

لن تتكلم معها السيدة «ثيليا»، ليس لأنّها مهتمةٌ جداً بالمسلسل الذي تستمع إليه. لم تلتزم الصمت لاعتقادها أن «بييتا» مستغرقة في

الكيّ، بل لأنها تعرف جيداً أن «بييتا» لا تجدُ في نفسها رغبةً في الكلام.  
وتعرف السبب جيداً.

وظلّت السيدة «ثيليا» تنتظر.

راقبتها وهي تطوي الفستان، ثم انتبهت لها عندما تغيّر لونها:  
- الرجال قليلو الحياء. في البداية يتقربون منك كالأبطال، ثم  
يرمونك ويذهبون.

قريباً سترغب «بييتا» في الكلام، ولكن لم يحن الوقت بعد، ومديرتها  
تعرف ذلك، وتعرف أنّ عليها أن تنتظر لأنّ كلمات «بييتا» ما زالت مجرد  
تنهيدة. سمعتها السيدة «ثيليا» وهي تنهد، ولذلك ظلّت تنتظر.  
- آه يا أمي.

صمتت «بييتا» من جديد. لن تتأخر في بثّ شكواها، ولكن ليس  
الآن، بعد العشاء سيمتقع وجهها من جديد وهي تجفف مقلادةً بقطعة قماش.  
- يهربون دون أن يقدموا أيّ مبرر. يرمونك وكأنّك قدرٌ قديم،  
ثم يذهبون وكفى الله المؤمنين شرّ القتال. لا تلتمسي له الأعذار يا سيدة  
«ثيليا»، فأنا أعرف جيداً ما أقوله. لا تلتمسي الأعذار لهذا المهرّج، فهذا  
اللئيم المتنكّر في ملابس السادة يظنّ أنّه القردة التي ارتدت ثوب  
الحرير<sup>(1)</sup>، ويظنّ أنّ القدرَ والقيمة يأتيان هديةً لكلّ من ارتدى بدلةً  
رمادية. إذا كان قادراً على المجيء إليّ طالباً القرب فلا بدّ أنّه كان قادراً  
على العودة ليقول لي «انسي ما طلبته». والله ليندمنّ أشدّ الندم. عندما أراه  
سيندم.

---

(1) تقصد هنا «بييتا» المثل الإسباني القائل «تبقى القردة قردةً حتّى إن لبست  
الحرير» ويقابله في لهجة أهل بلاد الشام: «الحلو حلو ولو قايم من النوم، والقرد  
قرد ولو التحم كل يوم». أيّ إن حقيقة «باولينو» وطبعه لن يتغيّر لمجرد أنّه  
ارتدى ملابس أهل المدينة.

ها قد عادت إليها الرغبة في الكلام، ويتعين الآن على السيدة «ثيليا» أن تحاول مواصلة «بييتا» التي كُسِرَ قلبها منذ يومين وليلتين، عندما كانت خارجةً من بيت السيد «فيرناندو» واقترب منها سيّد يرتدي قُبعةً بُنْيَة وسألها عن الساعة. فقالت له:

- لا ألبس ساعة، ولكن إن انتظرت دقيقة واحدة فستسمع دقّة الساعة التاسعة بأذنك.

وهذا ما حدث: دقّت الساعة التاسعة. ولكن «بييتا» لم تسمع دقات الساعة، فقط سمعت الصوت الذي سألها عن السّاعة يتحوّل إلى همس:

- وإذا سألتكِ عن البطاطا؟ فماذا سيكون ردّك؟

وسمعتُ نفسها تردّد دون تفكير وبصوتٍ هامس:

- بطاطا وبصل أخضر وبقدونس.

- أحمل رسالةً لك من شارع «آبي ماريا». قالوا لي أن أُبلغكِ ألا تذهبي لأنّهم اضطرّوا إلى المغادرة، وأخبري الطيّب أيضاً.

ودون أن يعطيها مجالاً للردّ، رفع السيّد الذي كان يرتدي قُبعةً بُنْيَة اللونِ صوته، وهو يقول:

- إنّها الساعة التاسعة إذن. شكراً يا آنستي.

وتركها عند باب منزل السيّد «فيرناندو».

- لا تلتصبي له الأعذار يا سيدة «ثيليا»، فما فعله لا يُغتفر، فما قد ذهب هذا المهرج إلى فرنسا دون أن يلتفت وراءه.

- ولكن الظروف كانت أقوى.

- لا أقوى ولا أضعف، ولا أقبل ظروفه مهما كانت. هو رجلٌ بلا ضمير، وأنا أحمقُ الحمقاوات، ولا تجري الأمور بهذه الطريقة في قريتي يا سيدي.

ستنام «بييتا» الليلة، وهي تظنّ أنها حمقاء، وستصحو باكراً في اليوم التالي لتذهب إلى محطة القطار لتجمع الفحم وهي تفكرّ في حماقتها. وستقول لمديرتها إن موعد ذهابها إلى المقبرة قد حان، وستقبلها السيدة «ثيليا» قبل أن تضع مقصاً في الحقيبة.

ستلبس «بييتا» يوم عيد الميلاد الزيّ الأسود الذي اشترته لها السيدة «أمبارو» ومئزرها المنشئ وأكمام الدانتيل وقمطتها وقفازيها البيضاءوين. ستفكرّ في «باولينو» عندما تنظر إلى نفسها في المرآة، وستفكرّ فيه عندما ترى جمال السيدة «أمبارو»، وكيف ينظر إليها السيّد «فيرناندو». وستقدّم الطّعام كما علّموها: تقدّم الصواني من جهة اليسار، وتخدم السيّدات أولاً، وتنحني بالقدر الكافي، ولا تنظر مباشرة إلى أيّ من الضيوف، دون أن ترتجف يداها كما ترتجف السيدة «أمبارو» عندما ترفع الكوب الزجاجيّ إلى فمها.

ارتعشت السيّد «أمبارو» لأنّها شعرت بأن زوجها ينظر إليها.

تمنّت «بييتا» لو أن «باولينو» ينظر إليها بنفس الطريقة.

بعد أن قدّمت القهوة في صالون البيانو، قدّمت في صينية من الفضة حلويات «البولبورون» و«ألفاخور» و«التوررون» و«البيلاديا»<sup>(1)</sup>، دون أن تنظر إلى بريق الوسام المتألق على صدر والد السيّد «فيرناندو»، ولا إلى أقراط أمّه. انسحبت إلى المطبخ ووضعت ما زاد من الديك الرومي في إناء له غطاء.

ستبتسم ابتسامة خفيفة، لأن السيدة أعطتها ما زاد من الديك الرومي، وستأخذه مساء هذا اليوم إلى «أورتينسيا». وستقتسمه «أورتينسيا» مع «عائلتها»، هكذا تكتب في رسائلها عن رفيقاتها في

---

(1) أربعة أصناف من الحلوى التي تُقدّم عادةً في عيد الميلاد، تعتمد كلّها على اللوز والسكر.

السّجن: من يتشارك معها الجّوع والأكل. «توماسا» الاكسترمادورية التي لا يزورها أحد، و«ريمي»، الأمّ لثلاث بنات ووليد أحق، و«إليرا» الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي يزورها جدّها. تبسم ابتسامة خفيفة، لأنّ أختها ستفاجأ اليوم عندما تجد الديك الرومي في قاع السفرطاس.

زاد الكثير من الطعام، وسيكون كافياً ليخادعن جوعهنّ حتّى الصباح. تبسم، لأنّها اشترت أكبر ديك روميّ وجدته في «بويرتا ديل سول» وجرتّه وراءها بحبل لأنّ الحيوان حرّ، وكان أثقل من أن تحمله بين ذراعيها. كان ديكاً ضخماً. ابتسمت «بييتا»، وكانت تعرف أنّ السادة لن يتمكّنوا من أكله كلّ حتّى بمساعدة والدي السيّد «فيرناندو». ابتسمت وهي تتذكّر كيف كانت تشدّ الحبل لتقدّر حجم الديك، وتحسب كمّية اللحم التي ستزيد، وهي تفكّر في أنّ السيّد «أمبارو» كريمة جداً. ابتسمت لأنّ الناس كانوا ينظرون إليها عند مرورها، وكانوا يتوقفون ليتفرّجوا على مشهد المرأة الضئيلة الجسد وهي تحاول السيطرة على ذلك الحيوان الضخم. كانت تشدّ الحبل وتضحك لأنّها كانت تفكّر في «أورتينسيا». كانت تحمل قمّاش فستانها بيد وتسحب بالأخرى الديك الرومي إلى قدره.





كالعادة، بدأت الحركة في المجمع الثاني مبكراً. استيقظت السجينات عند الساعة صباحاً. كان يوم عيد الميلاد، وكان اليوم يوم الزيارة. ذهبن إلى القُدَّاس مُرَغَمَات، كحاهنَّ في كل أيام الآحاد، والقليلات تناولن القربان المقدَّس. ظلَّت الأخريات واقفاتٍ احتجاجاً طوال القُدَّاس واستمعنَ مرفوعات الرَّأس إلى القسِّيس وهو يدعو عليهن في الموعظة:

- أنتنَّ هنا لأنكنَّ حثالة. وإن كنتن لا تعرفن هذه الكلمة، فسأقول لَكُنَّ ما معنى حثالة: خراء، معناها خراء.

انفعلت «توماسا»، وعند الخروج من القُدَّاس طلبت التداعي إلى اجتماع استثنائي، واقترحت فيه الإضراب عن الطَّعام حتَّى يعتذر القسِّيس عن شتائمهم.

- المزيد من الجوع؟

قالتها «ريمي» وهي تنظر إلى «أورتينسيا» بعينين متوسلتين، كأنَّها تستغيث بها، أو تتسَوَّل منها الخبز.

- لا نريد المزيد من الجوع، بحقِّ الله.

دعمت بعض النساء فكرة الإضراب، فاستلمت «أورتينسيا» الكلام وقالت:

- علينا أن ننجو بأنفسنا أيَّتها الرفيقات. هذا هو واجبنا الوحيد: النِّجاة.

- النِّجاة النِّجاة! ولماذا نريد أن ننجو؟

- لكي نحكي الحكاية يا «توماسا».

- وماذا بشأن الكرامة؟ هل سيحكي أحد قصة خسارتنا لكرامتنا؟

- لم نخسر كرامتنا.

- لا، خسرنا الحرب فحسب، أليس كذلك؟ هذا هو ما تفكّر  
فيه جميعكّن، تفكّر أنّنا خسرنا الحرب.

- لا نكون قد خسرنا الحرب إلا إذا كنا ميّات، لذلك دعونا  
نصعّب عليهم مهمة هزيمتنا. كفانا جنوناً، لا نريد المزيد. المقاومة تعني  
الانتصار.

تعالّت الأصوات مع الإضراب عن الطّعام وضدّه، ورنّت كلمة  
«كرامة» لتعلو فوق كلمة «جنون». حينئذٍ وصلت «إليرا» راكضة إلى  
غرفة الاستحمام وهي تقول:

- جاءت «لا بينينو»! جاءت «لا بينينو»!

كلّ من كانت تحمل منشفةً لقت بها شعرها أو وضعتها على  
كتفها، ومن لم يكن معهن مناشف تظاهرن بتجفيف أيديهنّ بالتنانير.  
انتهى الاجتماع. اقتربت «لا بينينو» ومعها «ميرثيديس» من الباب. كانت  
تحمل تمثال يسوع الطّفل بين يديها. أدارت «ميرثيديس» المفتاح في القفل  
ودفعت الباب، تركت مديرها تمرّ ثم دخلت وراءها إلى المهجع. أغلقت  
الباب بالمفتاح ثم علّقه على خصرها، ودفعت أحد دبابيس شعرها الذي  
كان قد خرج من تسريحتها التي تشبه الموزة.

- اصطفاف!

لم يكن الوقتُ موعدَ العدّ، لكن أحداً لم يسأل عن سبب دعوتهم  
إلى الاصطفاف. صفّقت «ميرثيديس» ثلاث مرّات اصطفت على إثرها  
السجينات. حملت أمامهنّ الأخت «ماريا دي لوس سيراфинيس» تمثال



الطفل يسوع المتوّج بتاج من النحاس الأصفر، ومرّرت يدها تحت ركبتيه المكتنزتين والمتقاطعتين ودفعت قدمه نحو أول سجينة:

- العبادة تشكّل جزءاً من إعادة تربيتكّن. لم ترغبن في تناول القربان المقدّس على الرغم من أن اليوم هو عيد ميلاد المسيح. ستقمن جميعاً بتقبيله، ومن لا تقبله فستُحرّم من الزيارة هذا المساء.

أخذت السجينات يقبلن القدم الممدودة لهنّ، واحدة تلو الأخرى. طأطأن رؤوسهنّ لتقبيل يسوع الطّفل. حملت «لا بينينو» التمثال قبالة بطنها لتجبرهنّ على الانحناء الشديد. وبعد كلّ قبلة كانت «ميرثيديس» تحفّف القدم المصنوعة من الكرتون المقوّى بقماشية من الكتّان المنشّى.

- حان دورك يا «توماسا».

حان دور «توماسا» التي لم تكن قادرةً على كبح غضبها. عندما اقتربت منها «لا بينينو» حدجتها بنظرة طويلة وزمّت شفّتها الغاضبتين. وبعد بضع دقائق أرغمتها الراهبة إرغاماً: سحبت رأسها نحو الطفل يسوع، فأخفضت «توماسا» رأسها وقربت شفّتها من القدم الصغيرة، وبدلاً من أن تقبله فتحت فمها.

رنّ صوتٌ شيءٍ يتحطّم وسط صمت المهجع.

تحطّم.

رفعت فمها المبتسم وكان هنالك إصبع قدمٍ تُطلّ من بين أسنانها. سُمعت صرخة: أيتها المتوحشة الشيوعية!

جاءت الصرخة من الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس». قربت «ميرثيديس» قماشتها المنشأة من قدم الطفل يسوع وغطّت طرفه المبتور وكأنها تداوي جرحاً.

صرخت الراهبة من جديد:

- متوحشة شيوعية!

لَكَمْتُ «توماسا» لكمة قاسيةً على فمها.

تطايرت مسوحها وأكمامها البيضاء الواسعة وهي تلکم الوجه الذي لم تغادره الابتسامة.

قوة اللكمة جعلت «توماسا» التي انتهكت المقدس تبصق، فطارت إصبع الطفل يسوع في الهواء. انتهت مراسم تقبيل القدم، وأمرت «الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس» بالبحث عن الإصبع المقطوعة. خرجت السجناء من طاورهن وهنّ يكتمن قهقهاتهن. سال من عيني «إليرا» دمعتان وهي تحاول أن تسيطر على نفسها، أمّا «أورتينسيا» فأمسكت بطنها بيديها وهي تصيح:

- يا أمي! يا أم حياتي وقلبي!

لكي لا يضحكن، راحت السجناء يبحثن عن الإصبع الضائعة دون أن تنظر أيّ منهنّ إلى الأخرى. ولكي لا يضحكن، تجنّبن النظر إلى «توماسا».

- ها هو.

«ريمي» هي التي وجدت إصبع الربّ وسلّمته للراهبة.

بدأت شفة «توماسا» تنزف. دفعتها الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس» إلى «ميرثيديس»:

- خذي هذه المدّنة من وجهي.

نعم، ستمكّن من إلصاق الإصبع. نظرت إليه بذهولٍ وسالت الدّمة من زاوية عينها. ستمكّن من إلصاقها، لكن خطّ اللصق سيبقى بارزاً كالندبة.

ستضحك سجينات المهجع الثاني عندما يتجهّزن للذهاب إلى قاعة الزيارة. صخب الفرحة بقاء أهلهم سيُنسيهنّ الحزن الذي غمرهن عندما رأين «توماسا» وهي تحاول المحافظة على توازنها وهنّ يدفعن بها خارجاً ليعاقبنها. سيتسنى لهنّ الضحك حالما ينسين الأسى الذي أصابهن عندما رأينها تمشي وهي تغلق أزرار فستان أم «إليرا». وهنّ يتجهّزن للزيارة سيتمكّننّ فحسب من الضحك. و«ريمي» هي التي ستثير ضحكهن، لأنّها تقرص خديها كما تفعل الأخريات حتى تبدو أكثر صحة وأقلّ هزالاً وجوعاً. قالت لهن وهي تقرص خديها:

- والآن سيصدّقون أنفسهم عندما يقولون إنّنا الشيوعيات نأكل الأطفال. كم هي حمقاء هذه الملعونة.

تضحك «ريمي» قبل الجميع، ثم تضحك «إليرا» بعد أن تسأل «أورتينسيا»:

- هل انتبهت لوجه «لا بينينو»؟

- أرايت كيف امتقع! كاد قلبها يقف.

يظهر التوتر المتراكم في القهقهات. تستعدّ السجينات الذهاب إلى الزيارة وتساعدهنّ اللواتي لن يذهبن.

- خذي يا «ريمي»، ارتدي هذا الوشاح الأحمر، سيعطي وجهك شيئاً من البهجة.

نظّفت «ريمي» يديها بلعابها، فقد قطعوا الماء منذ فترة. نظّفت نفسها وهي تفكر في «بينخامين». ما كان ينبغي لها أن تطلب منه الصابون في الزيارة الماضية، فالصابون نادر. ما كان ينبغي أن تطلب منه لا الصابون ولا كرسيّ القش كذلك. ما كان ينبغي أن تطلب أيّ شيء من «بينخامين» المسكين، فهو يقدّم إليها دائماً ما يقدر عليه. ابتسمت وهي تفكّر في حفيدها الذي ستراه أوّل مرّة هذا المساء.

إنه ابن ابنها وقد وُلد في «ليون» منذ ستة أشهر فحسب.

كانت «أورتينسيا» متحمسة أكثر من العادة دون أن تعرف السبب. كانت تضفر شعرها في ضفيرتين، كما يحبّه «فيلبي»، حينئذٍ اقتربت منها سجيناً جاؤوا بها منذ بضعة أيام من «سالامانكا». وجهوا إليها تهمة التعاون مع قطاع الطرق، هذا كلّ ما كانوا يعرفونه من أمر هذه المرأة الصغيرة الحجم والمشحونة بالطاقة التي دخلت إلى المهجع الثاني يمين دون أن يطلّ الخوف من عينيها. البعض ظنّوا أنّها مُقاتلة، لكنّها كانت في الحقيقة من إدارة الحزب الشيوعيّ في «سالامانكا».

- اسمي «سولي».

بعد أن عرّفت بنفسها قالت إنّها قابلة، وأنّ ابنتها أرسلت إليها رسالة:

- طلبت مني ألا أفارقك، وأن نخرج معاً إلى الزيارة، من الضروريّ جداً أن نكون معاً.

- لماذا؟

- هذا ما لم تقله لي.

أما «إليرا» فكانت تغني غناءً أسعدَ من كلّ الأيام، وهي تعقد الشريط على تسريحة ذيل الفرس، التي يحبّها «باولينو». لم تتعافَ تماماً من الحمى لكن هذا يُسعدُها اليوم، لأنّ جدّها سيراها بخدين محمّرين.

لا تعرف «إليرا» أنّها ستري أخاها «باولينو» بعد بضع دقائق، و«باولينو» لا يعرف ذلك أيضاً.

«باولينو» يمشي تجاه سجن «لاس بيتاس» رفقة «فيلبي».



تفحص «باولينو» الطابور الطويل الذي تشكّل عند باب السّجن. كان يبحث عن «بييتا». «باولينو» و«فيلبي» و«أماليا»، الشّابة العضو في «التضامن العمالي» التي وصلت توّاً من قرية من «سالامانكا»، كلهم لم يكونوا يعرفون أنّه ينبغي لهم أن يأتوا مبكرين لكي يتمكنوا من الدّخول أولاً والوقوف عند زوايا قاعة الزيارة، فهي أفضل مكان يمكن فيه للأهالي والسّجينات أن يتسامعوا، حتى إن كانوا يسمعون بصعوبة.

الطّابور أطول كثيراً ممّا تصوّروا. يمكن لكلّ سّجينة أن تستقبل في الحدّ الأقصى خمسة من أهلها، ونظراً إلى أنّ اليوم عيد الميلاد فكل العائلات أتوا في مجموعاتٍ من خمسة أشخاص، وكلّهم يريدون أن يدخلوا أولاً لكي يصلوا إلى الزوايا. ستدخل السّجينات إلى قاعة الزيارة في مجموعات من عشرة، ويبقى عشر دقائق. هنّ أيضاً يركضن تجاه الزوايا.

كانت «بييتا» من أوّل الواصلين، وكذلك السيد «خابيير» جدّ «إليرا»، وبنات «ريمي» الثلاث العازبات، وابنها الصغير وزوجها «بينخامين» المسكين. لن يدخل «بينخامين» إلى قاعة الزيارة، فقد جاء ابنه الكبير ومعه حفيده، و«ريمي» لم ترّه بعد، وقد جاؤوا من «ليون». عددهم سبعة، ولن يتمكن السبعة من الدّخول.

- يا للأسف. هذا غير ممكن. ستدخل حضرتك معي، والطفل كذلك، فمع هذه الفوضى اليوم لن يطلبوا منّا حتّى الهويّات.

- معقول؟

- اسمع مني.

كانت المجموعة قد تحلّقت حولها، أخذت «بيبيتا» تُري بنات «ريمي» الفستان الذي خاطته لأختها. لم ترَ «باولينو» الذي كان يقترب منها شاقاً طريقه بين الناس، وهو يضغط بيده على الرسالة التي وضعها في جيبه. لم يرها، لكنه سيراها بعد قليل. سيراها، عندما يجدُ السيد «خابيير» شبهاً كبيراً بين الشاب المقبل عليه وبين حفيده.

- مستحيل!

راح يصيح بكلمة «مستحيل». مستحيل. نظرَ إليه الجدّ غير مُصدّق. هذا التشابه ليس عابراً. نعم! نظرَ إليه وفتح عينيه المشدوهتين. أكثر! أكثر! هذا ليس تشابهاً عادياً.

هذا ليس تشابهاً.

إن الشاب الذي يقترب هو حفيده «باولينو». لم يتمكن من كبح صرخته:

- «باولينو»، بُني!

مدّ ذراعيه إليه. نظرَ إليه «باولينو» وقد غمرته الدهشة. انحنى ليتمكن جدّه من الإحاطة بوجهه بيديه. تعانقا دون أن يعطيا وقتاً للدموع. قال له جدّه إنه بات رجلاً والألم يعتصره بكل ما أوتي من قوّة، أمّا الحفيد فسأله إن كان يعرف شيئاً من أخبار أمّه وأخته.

- «إلبيريتا» هنا.

- هنا؟ أين؟

التفت «باولينو» يمنةً ويسرةً. بحث عن أخته متعجلاً وسط الجمع الواقف في الطابور.

- أين؟ أين هي؟

- في الداخل يا بُني، «إلبيريتا» في الداخل.

أشار السيّد «خايير» بيده إلى بوابة السّجن.

أرغمه الألم على أن يبحث عن شيء ليستند إليه. نظرت إليهما «بييتا» محتارة، وشيئاً فشيئاً، أدركت خطورة أن ينتبه أحدٌ سواها لهذا اللقاء، فأشارت إلى عائلة «ريمي» لكي يتحلّقوا حول الجد وحفيده.

- وماذا بشأن أمّي؟

- ماتت في معسكر اعتقال «لوس المندروس».

بحث عن شيءٍ ليستند إليه، فوجدَ كتف «بينخامين».

- أريد أن أرى «إلبيريتا».

وقفت «بييتا» أمامه ونظرت إلى عينيه مباشرة.

- أين «فيليبى»؟

- في الخلف، مع الفتاة التي جاءت من «سالامانكا».

- انتظر هنا لحظة. لا تتحرّك من هنا، سندخل كلنا معاً.

ذهبت «بييتا» لتجلب «فيليبى» و«أماليا»، وعلى الرغم من احتجاجات المصطفّين في الطابور، سحبتها معها.

- من أين جاء هذان؟

- جاءا من بيتي، حسناً؟ هذا أخي وهو مريض ولا يمكنه أن يبقى واقفاً ساعتين، وهذه زوجته. ألا ترين أنّه مريض؟ ولهذا جئت أنا مبكرةً لأحجز المكان يا سيّدي، أنا واقفة في الطابور منذ الظهر، وهذا أكثر مما يمكنهما احتماله، فكلّ جسدي يؤلمني من البرد الذي تحمّلته.

ضمّتهما إلى مجموعتهما، ونظّمت العائلات الثلاث في لحظات حتى يتمكّن الجميع من الدّخول:

- سنقول إنك زوجي يا «باولينو»، وسيدخل هذا البريء معي ومع زوجي على أنه ابننا. ولا تقلق يا «باولينو»، فابننا يبدو أحق، لكنه ليس كذلك.

أمسكت بيد ابن «ريمي» وتعلقت بذراع «باولينو»، ثم أشارت إلى «بينخامين» وقالت لـ «فيلبي»:

- هذا الرجل اسمه «بينخامين»، سيدخل معك ومع زوجتك يا «فيلبي» على اعتبار أنه حموك.

التقت عيناها الزرقاوان الثابتان بعيني جد «إلبيرا» الزرقاوين الثابتين، الذي كان ينتظر أن تقرّر «بييتا» كيف سيدخل ومع من.

- سيّد «خابيير»، أنت ستدخل وحدك كالعادة، حتى تصرف الأنظار عنّا. والأخوات الثلاثة يدخلن مع أخيهن الذي أتى من ليون ومع الطفل، وهكذا يصبح عددهم خمسة.

فتحوا البوابات.

شرحت «بييتا» لـ «لا بينينو» صلة القرابة التي تربط بينهم بسرعة وثبات جعلتها تسمح لهم جميعاً بالدّخول.





هزّت حماسة السّجينات المهاجع كلّها عندما سمعن الخبرَ الذي أذاعته «لا بينينو». ابتداءً من الغد سيُسمح للسّجينات العمل في التطريز والخياطة، كلّ يومٍ ما عدا أيّام الآحاد والأعياد، سيُعطى لكل واحدةٍ عملها عندما يخرجن للتنفّس في الساحة، وسيؤخذ منهنّ في الليل. وافقت مديرة السجن على الطلب الذي تقدّمت به السّجينات في السابق: سيُسمح للسّجينات أن يُسلّمن لعائلاتهن الملابس التي قمن بخياطتها. ومع اقتراب موعد الزيارة، تحوّلت سعادة السّجينات إلى حماسة.

تحاول «أورتينسيا»، دون نجاح، أن تسيطر على أمعائها، وعلى الرغم من اشمئزازها من الحّمّات إلا أنّها تُضطر إلى الذهاب إليها مراراً وهي تغطّي أنفها بأصابعها.

قطعوا الماء منذ ساعات وانسَدّت الحّمّات من جديد. رافقتها القابلة «سولي» إلى كلّ مكان.

- أنا سأشتغل بالإبرة.

أخذت تروي لها وهي تنتظرها أن «بيكتوريا كينت»<sup>(1)</sup> هي التي أمرت ببناء سجن «لاس بيتناس» وأنّه صُمّم ليؤوي خمس مئة سجينة. اشتكت من قلة المساحة، واشتكت من أنّهم يضعون الآن اثنتي عشرة حصيرة على أرضية الزنزانة في نفس المساحة التي كانوا يضعون فيها من قبل سريراً وخزانة صغيرة ومنضدة ومقعداً. اشتكت من أنّ الممرّات

(1) محامية وسياسيّة إسبانيّة جمهوريّة، كانت ثاني امرأة تحصل على درجة الأستاذيّة في المحاماة في إسبانيا كلها سنة 1924.

والأدراج تحوّلت إلى أماكن للنوم، واشتكت من الحاجة إلى القفز من فوق النائمات للوصول إلى الحمام.

- هذا الوضع قذر، ولهذا فنحن على هذه الحالة. لا يمكن لأحد عشر ألف إنسان أن يقضوا حاجاتهم في هذه الحمامات القليلة.

لكنّ «أورتينسيا» لا تلقي بالاً لكلّ هذا الكلام عن أوضاع الحمامات السيئة، ولا تهتمّ بمعرفة أسباب القذارة التي تحيط بهن، ولا الأمراض التي يعانين منها بسبب قلة النظافة، التي تصرّ «سولي» على ذكرها:

- سعة الرأس والتيفوس والقمل والبقّ والديزنتاريا. هذا الوضع مُشين.

لا، «أورتينسيا» ليست مُهمّة الآن، لأنّها قلقة، تفكّر في «فيلبي» ولا تريد أن تفكّر في أيّ شيء سواه. «فيلبي» فقط، ولا تترك لها حماسها مجالاً للتركيز في أيّ شيء آخر. تريد فقط أن تتذكر قبلة واحدة، قبلة مسروقة، القبلة الأخيرة التي انتزعتها من «فيلبي» في تلّ «أومبريا». القبلة التي بدت لها قصيرة جداً وبدت له طويلة جداً. نهرها قائلاً: الجبل ليس مكاناً للقبّل! ليس مكاناً للقبّل!

- يأتي الناس إلى الجبل ليناضلوا.

- لا تكن أحمق.

- اتركني يا «تينسي»، فقد يروننا.

- من؟

- أيّ أحد.

دون عجلة. كانت تريد قبلة مُتمهّلة يحسّان بها في ألسنتهما، لكنه سحبَ فمه فجأة قبل أن تشتبك الشفاه. هكذا توادعا. هكذا تعانقا وقبلها آخر مرّة عندما ذهبت «أورتينسيا» لشراء المؤونة. وقبل أن تبدأ بالنزول تجاه «إل جانو» التفتت لتقول لزوجها مرة أخرى:

- أنت أحق.

- هيا اذهبي، وعودي سريعاً، سأنتظرك هنا.

ولكنّ «أورتينسيا» لم تعد. لم تعد على الإطلاق. وعادت تتساءل الآن كما تساءلت كثيراً منذ ألقوا القبض عليها، كيف لم تنتبه لنباح الكلاب عندما وصلت إلى البستان. كان «فيلبي» في انتظارها، وهي لم تعد. كانت الكلاب تنبح بطريقة غريبة، لكنها لم تنتبه. انتبهت فقط للذي أبلغوها به: المزارعة ترتدي منديلاً معقوداً على رأسها، وفكّته عندما رأتها.

كانت الكلاب تنبح.

- أتبعين الدجاج؟

نبحت الكلاب، ونظرت المزارعة إلى الأرض وهي ترم المنديل بين أصابعها:

- نعم.

نظرت إلى بطن «أورتينسيا»، ثم أطلقت ساقها للريح وهي ترفع المنديل المبروم قبالة عينيها.

كانت الكلاب تنبح.

كان ينبغي لها أن تركض هي أيضاً، لكنها لم تركض. شعرت بالخطر عندما رأت المرأة تركض، وعندما رأتها ترفع المنديل إلى عينيها عندما سمعت الكلاب تنبح. ولكنها لم تركض. حبست أنفاسها. صوّب جنود الحرس المدني أسلحتهم إلى ظهرها. فكّرت في «فيلبي». كان قد قال لها «سأنتظرك هنا». ربط واحدٌ من الحرس المدني يديها ودفعها:

- امشي. سنقدّم نحن إليك مرقّ الدجاج وأفضل أنواع الحساء. سنملؤها لك بحبّات الحمص.

ضحك ثلاثتهم.

مكثت تسعةً وثلاثين يوماً في «الداخلية». تسعة وثلاثون يوماً ضُربت فيها كثيراً وجلست خلالها ساعات طويلةً على ركبتيها. ولكن «أورتينسيا» لا تريد أن تفكر في هذا الآن. جلست على المرحاض وتلمّست ركبتيها وفكرت في «فيلبي». تذكرت القُبلة الأولى. كانت في قرطبة. غمرتها ذكرى قرطبة وفم «فيلبي» وهو يبحث عن فمها. تلمّست ركبتيها. تماثلت ركبتيها للشفاء تقريباً، لكنها ما زالت تشعر أن حبة حمّص عُلقت بالداخل. نعم، هنالك ورمٌ قاسٍ تحت جلدها ويؤلمها. قال لها الطبيب إنها تميّؤات. ولكن هذا الطبيب لا يرى أمامه، فهو عجوزٌ وفي عينيه رَمَصٌ أصفر. أضف إلى ذلك أنّه طبيب أسنان، فما الذي يُدرّيه.

هي مُصرّةٌ على أن جلدها نما فوق حبة حمّص. عاجلها مرةً واحدة، عندما عادت من «الداخلية». لم يسألها عما كان يؤلمها، لم يكن يريد معرفة شيء إلا سبب احتجازها هناك. قال لها إنّ وجهها على ما يُرام على الرغم من أنّها لم تكن قادرةً على فتح عينيها من شدة الانتفاخ. تتلمّس ركبتيها وتذكر. كحول. فَرَكَ طبيب الأسنان جراحها بالكحول وتألّت أكثر مما تألّت هناك في الطابق الثاني من مبنى «الداخلية» عندما كانوا يفركون جراحها بالخلّ. كان هنالك صليبٌ على الجدار، ولوحٌ على الأرض عليه الكثير من حبات الحمّص والملح. كانوا يأخذونها إلى الطابق الثاني كلّ يوم فجراً عند الساعة الثانية أو الثالثة، ولاحقاً يُنزلها اثنان لأنها لم تكن تقوى على الوقوف. تسعة وثلاثون يوماً. تسعةً وثلاثون يوماً دون أن تتكلّم مع أحد. السجينة في الزنزانة المجاورة كانت تمضي الساعات وهي تغني. كان اسمها «مانوليتا»، وكانت تغني أغنية «أشربُ وأدعو»<sup>(1)</sup> لـ«غارديل». لا تعرفُ عنها إلا أن اسمها «مانوليتا».

(1) تقول كلمات الأغنية:

أشربُ وأدعو، اطلب كأساً  
فأنا محتاجُ اليوم لقتل الذكريات.  
الأغنية تُسترجع على الرمز QR

- هيا يا «مانوليتا» إلى الأعلى، دعينا نرى إن كنتِ ستغنين لنا أغنية تانغو.

لم تسمع أخبارها بعد ذلك، عرفت أن اسمها هو «مانوليتا» فحسب. كانت تجيد الغناء، وذات يوم اختفى صوت غنائها. غَضِب. لم تشعر بشيء سوى الغضب عندما كانوا يَصْبَوْنَ الخَلَّ على جراحها. غضب. الغضب هو الشيء الوحيد الذي كان يُبْقِي فمها مزموماً. والغضب هو الشيء الوحيد الذي جعل شفيتها تنفر جان لتصرخ من ألم بطنها.

- لا تضر بها هناك أيها الحيوان، ألا ترى أنها حبلى؟

سيكون هذا الطّفل قوياً، بل قوياً جداً، فقد تجاوز كل ما مرّ عليه. ها هو يتحرّك الآن. سيكون قوياً مثل أبيه. وسيكون شعره مجعّداً وأسود، وستكون يدها كبيرتين وستكون شفّاه مكنتزتين مثل شفّتي أبيه. خرجت «أورتينسيا» من الحّمّام وهي تضع يدها على فمها. لحقّتها القابلة. تلمّست شفّتها. لم تتوقّع أن تشعر بلسانه في القُبْل. حدث هذا في قرطبة، وكان شعرها مربوطاً في ضفّيرتين.

\* \* \*



- لا تتبعدي عني.

كانت «أورتينسيا» عند باب قاعة الزيارة وراء «ريمي» و«إليرا»، في انتظار خروج السجينات العشرة اللواتي دخلن في دور الزيارة الأول. همست لها القابلة بآلا تتبعد عنها، ثم أضافت:

- ستلقين زيارة مميّزة جداً هذا المساء. ركّزي جيداً على زوج ابنتي.

- على زوج ابنتك؟

- نعم، على زوج ابنتي.

شدّت على كلمة «زوج» وغمزتها، وشددت على الكلمة عندما كرّرتها.

- على زوج ابنتي، ولا تصرخي عند رؤيته. لا تتكلمي معه، انظري إليه فحسب.

تذكّري ما قلته لك: لا تتحدّثي معه ولا تذكر اسمي.

لم يكن بإمكان «أورتينسيا» أن تعرف عمّن كانت تتكلّم «سولي»، لكنها عرفت.

- زوج ابنتك هو...؟

- لا تذكر اسمي.

- ولكنه...؟ هل هو من أظنّ أنّه هو؟

- نعم. إنّهُ عند باب قاعة الزيارة. لم أرغب في إخبارك من قبل خوفاً من ألا يسمحوا له بالدخول. ولكنّها قد صار عند الباب. موظفة

استلام الطرود أرسلت إليّ هذه الرسالة، انظري: «دخلت ابنتك مع زوجها».

- اصمتن! ألا تعرفن أن الكلام ممنوع في الطابور؟

«ميرثيديس» هي التي كانت تصرخ لإسكاتهنّ. تريد «ميرثيديس» أن تتعلّم الصراخ. استدارت بتسريحتها التي تشبه الموزة إلى «أورتينسيا» و«سولي» وصرخت:

- تقدّما إلى الأمام.

صرخت لأنّ الأخت «ماريا دي لوس سيراڤينيس» وبّختها توبيخاً قاسياً بعد حادثة إصبع الطفل يسوع. قالت لها إنها رخوة مع السجينات وآته ينبغي لها أن تتعلّم كيف تضع لهنّ حداً إن لم تكن تريد أن تخسر وظيفتها.

- سيركبن على ظهركِ ويُدلّين أقدامهنّ يا «ميرثيديس»، وإذا ركبن على ظهركِ فسيركبن على ظهورنا جميعاً. لديّ من ينقلون إليّ الأخبار، فلا تظنّي أنني لا أعرف أغنيتهنّ التّافهة، أنا أعرف كلّ ما يجري في هذا السّجن على مدار السّاعة وأعرف أنّهن يركبن على ظهركِ. لا تنسي: على مدار السّاعة.

ولا تنسي. اقتربت «ميرثيديس» من «أورتينسيا» شاهرة إصبعها في وجهها:

- هل تريدن أن أعاقبك بحرمانك من الزّيارة؟

كانت «أورتينسيا» تريد أن تقول «لا». لا تريد أن تُعاقب، لكنّ الكلمات تحشّرت في حلقها فلم تبدر منها أي كلمة.

- ما بها؟ ألا تريد أن تردّ؟

- الحقيقة إن «أورتينسيا» مريضة.



«سولي» هي مَنْ رَدّت.

- ولذلك تتكلّم في الطابور؟ لعلّها تحدّثت بما فيه الكفاية ولم تعد بحاجة إلى الدخول إلى قاعة الزيارة لتتكلّم أكثر.

- إنّها مريضة، أصابها إغماء، وأنا جديدة ولم أكن أعرف أنّ الكلام ممنوع في الطابور. أصابها إغماء فتكلّمتُ معها أنا، لأنني قابلة وهي حامل. لقد سألتها في أي شهر هي.

بدأت سجينات الدّور الأول بالخروج من قاعة الزيارة. نظرتُ إليهنّ «أورتينسيا»، ثم نظرت إلى «ميرثيديس»، زمّت شفّتها وحاولت أن تحبس دموعها. دفعها يأسها إلى الكلام:

- اليوم عيد الميلاد. أستحلفك بالله أن تسمحي لي بالدخول.

لم تتمكن «ميرثيديس» من رفض طلبها، وأمرت بدخول الدّور الثاني بعد أن عاقبت «أورتينسيا» و«سولي».

- غداً ستنظّفان المهجع. ادخلن واحدة تلو الأخرى. ستدخلان أنتما بعد الجميع.

الأولى التي دخلت إلى القاعة كانت «إليرا». ركضت إلى الزاوية اليمنى ووقفت ملتصقة بالشبك الحديديّ.

- هنا، يا جدّي، أنا هنا.

جدّها كان أوّل الدّاخلين أيضاً. مشى بأسرع ما يمكنه والتصق هو أيضاً بالشبك الحديديّ الذي يسيّج الممرّ من جهته.

- لكِ عندي مفاجأة.

لكن حفيدته لم تتمكّن من سماعه مع ضجيج صراخ السجينات إلى أهاليهن.

- هنا، هنا.

- هنا يا أمّي، أنا في المنتصف.

اقتربت مفاجأة «إلبيرا» من الشبك الحديديّ، كان يبحث بعينه. لم تميّز «إلبيرا» أخاها مباشرةً. أشار جدّها إلى الرّجل الواقف إلى جواره ونظرت هي إليه. دقت النظر فيه. نظر كلّ منهما إلى الآخر. عامان قد مرّا منذ اجتماعاً معاً آخر مرّة. ذيل الفرس الأحمر دلّ «باولينو» على الطفلة التي تركها في ميناء «أليكانتي».

- صغيرتي.

وهي، دون أي تفكير، أخذت تهزّ رأسها يميناً ويساراً وكأنها تجلد الهواء بشعرها الأحمر.

- «باولينو».

رفع سبّابته إلى شفّتيه آمراً إياها ألا تقول اسمه. كان ابن «ريمي» إلى جواره، رافعاً الحفيد بين ذراعيه إلى الأعلى. لم يكفّ الطّفل عن البكاء. وكذلك «ريمي».

حاولت «ريمي» أن تسيطر على نشيجها. قالت:

- أحضروه إليّ يوم عيد «عذراء الرحمة».

لكن ابنها لم يسمعها، فكلّ ما كان يسمعه هو صراخ «بييتا» وهي تنادي «أورتينسيا»

- هنا، هنا يا «أورتينسيا».

دخلت «أورتينسيا» وهي تمسك بذراع «سولي»، وكنّ آخر من دخل. حاولت «سولي» أن تفسح لهما مجالاً قرب «ريمي»، وأبعدت سجينته كانت تدافعهنّ لتحمي مساحتها. راحت عينا «أورتينسيا» تبحث عن «فيليبّي». أفلتت ذراع «سولي» واستندت إلى كتفي «ريمي».

- «تينسي»، هل أنت بخير؟

تقدّمت خطوةً إلى الأمام، وتعلّق هو بالشبك.

تمكّنت «سولي» أخيراً من الحصول على فسحة، دافعت أكثر وأفسحت مجالاً لـ «أورتينسيا» أيضاً. مدّت يدها إليها وتركتها تسحبها إلى مكانها وهي تنظر إلى «فيلبي».

المرأة التي لا تعرف أنّها ستموت، اقتربت من الشبك الحديديّ. لم تحاول أن تتكلّم. استشعرت لذّة نظرة «فيلبي».

- «تينسي».

لفظَ اسمها آخر مرّة. نظر إليها ملفوفاً بالصّمت. استشعر لذّة نظرتها.

تحسّست وجنتيها بأصابعها، وفعل هو الشيء ذاته.

الحارسة التي تتمشى في الممر الفاصل بين السجينات والأهالي تمشي ببطء مسندةً يديها إلى خصرها. تنظر إلى اليمين وإلى اليسار وهي تتبرّم. تتفحص الأهالي. تراقب السجينات. إنها «لا ثاباتونيس» وتكرّر بصوتٍ مُنخفضٍ نفس الصلوات التي تهمس بها في كلّ مرّة تراقب فيها قاعة الزيارة.

يظنّ البعض أنّها تصليّ، لكن لا، إنّهُ بيان الحرب الأخير. كان أوّل بيانٍ يكتبه «الخينير اليسمو» الغالي على قلبها بنفسه. كتبه هو على الرغم من أنّه كان مصاباً بالزّكام ويعاني من الحمّى. حفظته عن ظهر قلب: «اليوم، وقد بات الجيش الأحمر مأسوراً ومنزوع السلاح، نعلن أن جنودنا الوطنيين قد حققوا أقصى أهدافهم العسكرية. الحرب قد انتهت». نظرت إلى السجينات. نظرت إلى عائلاتهنّ، وكرّرت باحتقار مرّة تلو الأخرى: «وقد بات الجيش الأحمر مأسوراً ومنزوع السلاح». مرّة تلو الأخرى: «مأسوراً ومنزوع السلاح».

المقرّ العام للخينير اليسمو

القيادة العامة

قسم العمليّات العسكريّة

بيان الحرب الرسميّ

الأول من نيسان (إبريل) من سنة 1939

سنة الظفر الثالثة<sup>(1)</sup>

اليوم، وقد باتّ الجيش الأحمر مأسوراً ومنزوع السلاح، نعلن أنّ جنودنا الوطنيين قد حققوا آخر أهدافهم العسكرية.  
الحرب قد انتهت.

حرّرَ في «بورغوس» في الأوّل من نيسان (إبريل) من سنة 1939

سنة النصر

الخينير اليسمو

---

(1) اتّبع نظام فرانكو هذه الطريقة البروتوكولية في الإشارة إلى سنة 1939، وعلى نفس المنوال كانوا يعتبرون سنة 1937 سنة الظفر الأولى، وسنة 1938 سنة الظفر الثانية. وعندما انتهت الحرب سنة 1939 بانتصار فرانكو ومن معه (القوميون) صارت سنة 1939 تسمّى سنة النصر، وكانوا يحتفلون طوال فترة حكم فرانكو بـ«عيد النصر» يوم الأوّل من نيسان (إبريل) من كل عام.

## الجزء الثاني



«ترید أن تبكي  
لكنّه زمنُ القحط.  
ترید أن تبكي لكنّ عينيك  
دوّار شميس ذابل»

مارتین رومیرو مورینو





بصمت ونظام، عادت السّجّينات اللّواتي استقبلن زوّاراً إلى المهجع الثاني. عُدنّ جميعاً، ما عدا «ريمي» التي عادت وهي تحمل كرسيّ القشّ المنخفض الذي أحضره إليها «بينخامين». عادت كلّ واحدة منهنّ بصمتٍ ونظامٍ إلى حصيرتها الملفوفة قبالة جدران الممر الأوسط، أو على الأدراج، أو في الزنازين، وجلسنَ ليحفظنَ الزيارة بصمتٍ ونظام. بعيونهنّ التّائّهة سيحاولن التمسّك بالدقائق العشرة الأخيرة، وسيحاولن استبقاء الوقت الذي انقضى وإيداعه بين الذكريات.

احتفظت عينا «ريمي» التّائّهتان ببكاء حفيدها. وضعت كرسيّها قرب حصيرة «أورتينسيا» ودعتها إلى الجلوس. لا ينبغي لـ«ريمي» أن تبكي، ولم تبك. سترى الطّفل مرّة أخرى في الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) في عيد «عذراء الرّحمة»، ستراه مرّة أخرى بعد ثمانية أشهر. في عيد شفيعة السجون يسمحون بدخول الأطفال إلى ساحة السّجن. يومئذ ستعانق «ريمي» حفيدها أوّل مرة. عشر دقائق. كل واحدة من السّجينات اللّواتي أمضين عشر دقائق قبالة أهلهنّ ستتوه عيناها مراراً.

ستتوه العيون بعد أن صار عندها مكانٌ في الذاكرة لتتوه فيه. عشر دقائق. قبلت «أورتينسيا» كرسيّ القشّ، وأشرقت عينا «فيلبي» من عينيها، وأطلّت بسمته على شفّتيها، يداها الكبيرتان حلّتا في يدي «أورتينسيا» لتداعبا خديها. عشر دقائق. لا ينبغي لـ«أورتينسيا» أن تبكي، ولم تبك. جلست، ولم تبك. وإلى جوارها كانت «إليرا» تفكّ ذيل الفرس حانقة. لا ينبغي أن تبكي، لكنها تبكي. تبكي وتثر شعرها لأنّها لا تعرف متى ستتمكن من أرجحة ذيل الفرس لأخيها.

- تأدّبي يا «إليرا».

تنزعج «لا بينينو» عندما تفقد السجينات السيطرة، وقد بدأت «إليرا» تفقد السيطرة. لن تسمح لها بالبكاء، ولن تسمح لها بتحريض الأخريات. لن تسمح. اقتربت منها وذراعاها معقودتان تحت صورة المسيح المتدلية من رقبتها، وصرخت بها أمرة:

- سيطري على نفسك.

الانضباط يبدأ من السيطرة، والأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» أدري بذلك، وهي مستعدة لعقاب الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي لن تموت. نظرت إلى «إليرا» باحتقار، وهي تبكي وتبعثر شعرها بكلمات يديها بعد أن ألقّت الشريط الذي ربطت به شعرها عند قدمي الراهبة، وبعد أن ألقّت عند قدميها كلّ يأسها.

بطن «أورتينسيا» الثقيل منعها من النهوض بسرعة. كانت تريد أن تأخذ الشريط، وأن تهدّئ «إليرا» خشية أن تعاقبها الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس». ستعاقبها، نعم ستعاقبها.

- تعرفين تماماً أنني لا أريد رؤية دموع هنا. وتعرفين تماماً أنني لا أتهاون مع نوبات الغضب. تعرفين. وإن كنت قد نسيتَ فيها أنا أذكركِ.

أمسكت بها الراهبة من ذراعها ورفعتها بحركة واحدة عن حصيرتها.

- تعالي معي.

وأخذتها.

تغلّبت «أورتينسيا» على حركتها البطيئة، ونهضت وهي تسند ظهرها بيديها واقتربت من الراهبة.

- أيتها الأخت، ترأّفي بها ولا تأخذها، فهي مريضة، حرارتها مرتفعة وتسعل.

لحقت «سولي» و«ريمي» بـ«أورتينسيا».

- يؤلمها صدرها وتسعل سعالاً قوياً.

- إنها مريضةٌ مرضاً عميقاً، لا تعرفين يا سيّدي كم هي مريضة.

استدارت الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» نحوهنّ. كزّت على أسنانها وتجهّمت في وجه النساء الثلاثة، ودون أن تنبس بأية كلمة سحبت «إليرا» من ذراعها ودفعت بها إلى الممرّ.

ستأخذها.

نعم، ستأخذها.

و«إليرا» لم تتوقف عن البكاء.

\* \* \*



شَعْرُ «إلبيرا» الأحمر لم يعد لها. قبل أن تقصّ لها شعرها صففته «لا بينينو» في ضفيرة. ثم قصّتها لها من جذرها، أمام «لا ثاباتونيس» التي كانت واقفة قبالة «إلبيرا» تراقبُ، دافعةً ذقنها إلى الأمام وموسعةً بين ساقيهما، وإيهامها معلقان على الخزام.

- لا تتحرّكي.

«لا بينينو» قصّت لها شعرها من جذوره. ثم ناولت ضفيرتها الحمراء إلى «لا ثاباتونيس»، فدسّته في الحقيبة التي يحتفظون فيها بالشعر لكي يبيعوه.

- لننظرُ إن كانت قد تعلمت الدّرس الآن.

تعلمت «إلبيرا». لا ينبغي أن تبكي. عادت إلى المهجع الثاني بدون شعرها. لا ينبغي أن تبكي، ولا تبكي. جلست على حصيرتها وغطّت رأسها بيديها ونذبت على شعرها دون أن تبكي:

- لقد سرقوا منّي شعري.

حاولت «ريمي» أن تواسيها، وكادت تقول الجملة التي قالتها لنفسها مراراً:

- من يخلق...

ولكن «إلبيرا» قاطعتها بئس وعانقتها:

- لا يُضرب يا «ريمي»، لا يُضرب.

- يا بضعة مني!

رَبَّتْ عَلَى رَأْسِهَا وَقَالَتْ لَهَا «صَغِيرَتِي» عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ «رَيْمِي»  
فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمْ تَكُنْ تَتَفَكَّرُ فِي بَنَاتِهَا.

- سِينُمُو، سِينُمُو قَرِيباً، سَتَرِينَ.

- سَرَقُوهُ مِنِّي.

تَقُولُ إِنَّهُمْ سَرَقُوهُ مِنْهَا، لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ السَّجِينَاتِ يَبْعَنَ شَعُورَهُنَّ  
لِلرَّاهِبَاتِ لِكَيْ يَتِمَكَّنَ مِنَ الشَّرَاءِ مِنْ مَقْصِفِ السَّجْنِ. ثُمَّ يَتَّبِعُهُ الرَّاهِبَاتُ  
إِلَى جَامِعِ النِّفَايَاتِ، لِكَيْ يَنْفَقْنَ الْمَالَ عَلَى الصَّدَقَةِ.

- سَيِّعَنَ شَعْرِي.

رَأَتْ «إِلْبِيرَا» شَعْرَهَا وَهُوَ يَسْقُطُ فِي الْحَقِيبَةِ. رَأَتْ كَيْفَ انْزَلَقَتْ  
جَدِيلَتَهَا، وَكَأَنَّهَا سَمَكَةٌ تَتَلَوَّى وَهِيَ تَقَعُ فِي شَبَاكٍ صَيَّادٍ. وَلَمْ تَرَ «مِيرْتِيدِيسَ»  
آتِيَةً وَهِيَ تَصْلُحُ دَبَابِيْسَ شَعْرَهَا:

- مَا أَجْهَلَ هَذَا الْكَرْسِيَّ.

رَبَّتْ «أُورْتِينِيسَا» عَلَى ظَهْرِ «إِلْبِيرَا» وَأَجَابَتْ، دُونَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهَا،  
بِأَنَّ الْكَرْسِيَّ لَيْسَ لَهَا.

- لِمَنِ الْكَرْسِيَّ؟

- أَتَرَكِينَا فِي حَالِنَا.

- مَاذَا قُلْتِ؟

- أَسْأَلُكَ إِلَى هَذَا الْمَعْرُوفِ رَجَاءً. جَلَسْتُنَا هُنَا لِلْأَحْبَاءِ، وَنُرِيدُ أَنْ  
نُتْرَكَ مَعَ أَحِبَّائِنَا. وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدِينَ أَنْ تَعْرِفِي حَقًّا فَالْكَرْسِيَّ لـ«رَيْمِي».  
وَبِمَا أَنَّكَ صَرْتَ تَعْرِفِينَ الْآنَ فَهَلْ تَرِيدِينَ شَيْئاً آخِراً عَزِيزَتِي؟

اتَّجَهَتْ كُلُّ الْعَيُونِ إِلَى «مِيرْتِيدِيسَ»: عَيُونُ «سُولِي» وَ«إِلْبِيرَا»  
و«رَيْمِي» وَ«أُورْتِينِيسَا»، اسْتَدَارَتْ «مِيرْتِيدِيسَ» نَصْفَ اسْتِدَارَةٍ تَحْتَ  
عَيُونِ السَّجِينَاتِ. قَالَتْ «سُولِي» وَهِيَ تَضْحَكُ مُعْجَبَةً بـ«أُورْتِينِيسَا»:

- اللعنة، يا لجرأتك.

ضحكت «ريمي»:

- هذه ليست جرأة، بل جسارة.

ضحكت «ريمي»، وضحكن جميعاً، وضحكت «إلبيرا».

- سنرى الآن ما أحضروه لنا، فالأحزان تأتي من تلقاء نفسها، أما الأفراح فينبغي أن نخلقها.

- والبطن الممتلئ لا تدخله الأحزان.

كان الفستان هو أول ما رآته «أورتينسيا» بين الأغراض التي أرسلتها «بييتا». فستان من الصوف الرمادي المملوء برسوم لباقات بيضاء.

- تريدني أن أخفف الحداد.

- هيا إذن يا أورتينسيا، هيا إلى الخفة.

- المسكين، كنت قد طلبتُ منه صابوناً. طلبتُ منه قطعة صابون فأحضر لي خبز سمّون. لا بدّ أنّه لم يسمعني جيّداً.

- أحضروا لي لحم الديك الرومي، يا أمّي يا أمّ حياتي، انظري يا «إلبيريتا»، لقد أحضروا لي لحم الديك الرومي.

- والله كأننا ملكات يا ابنتي.

- سأذهب إلى المقصف لأشتري ماءً ساخناً حتى نعدّ القهوة، ما رأيكنّ؟

جميعهنّ كنّ يبذلن جهدهن لتسلية «إلبيرا» التي كفت عن تلمّس رأسها حتى تفتح طردها، وصرخت بحماسة عندما اكتشفت المفاجأة التي أرسلها إليها جدّها:

- توررون!

أخرجت «ريمي» طرداً ملفوفاً بالورق الأسمر. كان لحم خنزير مجفف<sup>(1)</sup>. قطعة صغيرة.

- أحضر لي «بينخامين» لحم خنزير.

- لحم خنزير؟ هل قلت لحم خنزير؟

في تلك الليلة، ولما كانت «أورتينسيا» و«ريمي» و«سولي» يتشاركون في متعة إشباع الجوع، لم تغب عن بالهنّ «توماسا».

ولكن لم تأتِ أية منهنّ على ذكر «توماسا».

«إلبيرا» لا تفكر إلا في أخيها.

أكلت وهي تحاول أن تتذكر شكله، وتوقفت عند الشبه الشديد بينه وبين أبيها. نامت بعد ذلك قرب «ريمي» وقد احتضنتها لكي تشعر بحرارة جسدها، واستيقظت عدة مرات وهي تنادي:

- «باولينو».

رأته وهو يقترب من الشبك الحديدي في غرفة الزيارة، ورأته يقرب سبابته إلى شفّتيه.

نظر كلّ منهما إلى الآخر، وميّز أحدهما الآخر:

- «باولينو».

حاولت أن تنام من جديد وهي تغطي فمها بيدها لكي لا يفلت اسمه منها. عادت إلى النوم فرأته من جديد. ولم تتمكن من كبح اسمه، فصرخت:

- «باولينو».

ومرة أخرى: رفع سبابته إلى شفّتيه.

---

(1) المقصود هنا هو الخامون، وهو لحم فخذ الخنزير تحديدًا، ويُعتبر فخذ الخنزير الكامل هدية فاخرة في إسبانيا يتبادلها الناس، خاصة في موسم عيد الميلاد.



الرسالة التي كتبها «باولينو» ما تزال في جيب جاكيتته. كتبها لـ«بييتا» ونسيها. نسيها تماماً عندما رأى جدّه عند باب سجن «لاس بيتناس». والآن يداعب الرسالة بأصابعه، وتساوره الشكوك. ربّما كان من الأفضل أنّه لم يعطيها الرسالة. شدّ قبضته على الرسالة التي كتبها عندما وصل إلى بيت «أماليا» السالامانكية العضو في «التضامن العمالي» ابنة «سولي». ينبغي لي أن أذهب، ولكن عليك أن تعرفي أنني على الرغم من رغبتني في البقاء معك، إلّا أنّ واجبيّ أهمّ من رغباتي، وستكون الأولويّة للواجب دائماً. لعلّ الأفضل أن أقول لـ«بييتا» أن تنسى ما طلبته منها في كنيسة «القديس خوداس ناديو».

شدّ قبضته على الرسالة. غصّنها.

ومشى نحو «بييتا».

المجموعة التي تكوّنت عند الدخول إلى السجن تفرّقت عند الخروج. كلُّ من دخلوا معاً خرجوا معاً وتوادعوا عند الباب. من جاؤوا معاً غادروا معاً، إلّا «باولينو» الذي قال لـ«فيلبي» أنّه لن يرجع معه وسيوصل جدّه إلى البيت. وطلب من «بييتا» أن ترافقهما.

- إن كنت تريد...

قالت له «إن كنت تريد» ووجهها محمّر خجلاً وتحذّق إلى عينيه. والآن، بعد أن ودّع السيد خاير سارا معاً. وحيدين. عادت العينان الزرقاوان المستحيلتان تنظران إليه بخجل وهو يغصّن الرسالة في جيبه. أخفضت «بييتا» عينها لتتكلّم معه بصوتٍ بين العالي والمنخفض:

- طلبت مني ردّاً، ولم أعطِكَ ردّي بعد. هل أجيبك؟ أم لم تعد تريده؟

- أريدك أن تعرفي شيئاً قبل ذلك.

- ما هو؟

- شيءٌ مهمّ، وأريدك أن تفهميه جيّداً.

- تفضّل

- أريدك أن تفهميه جيّداً، حسناً؟ وسأفهم إذا قررتِ ألا تعودي

إلى رؤيتي مرة أخرى بعد أن تسمعي ما سأقوله، فهمتِ؟

ظلت تنظر إلى الأرض، فالسخط الذي أحست به عندما ظننت أن «باولينو» هجرها ظلّ يتزايد مع مرور الأيام، ولكنّ الغضب اختفى لحظةً رأته في سجن «لاس بينتاس». عندما رأته آتياً تلاشى ألم الهجر، وتلاشى ذلك الخوف من عدم رؤيته مرّةً أخرى. لكنها تشعر الآن بخوفٍ مماثل. ما هو هذا الشيء الذي عليها أن تعرفه قبل أن تردّ؟ هل سيهجرها؟ ما الذي ينبغي لها أن تفهمه؟ لن يعود إلى رؤيتها من جديد.

سألها مرة أخرى:

- أفهمين؟

أجابت وقد غلبها خوف أكبر من ذي قبل:

- تفضّل بالكلام.

- أنا شيعويّ.

قهقهت «بييتا» وغطّت يدها بفمها لتستمرّ بالضحك.

- علامَ تضحكين؟

- توقّعتُ أن تقول لي إنك متزوّج أو إنّ لك طفلاً في بلاد الله

الواسعة.

- ما أغرب أفكارك.

- ولم لا؟ لقد تنقلت كثيراً في الحرب.

- الأمر أكثر أهمية من طفل. أنا شيعي، وسأظل شيعياً طوال عمري. سأذهب إلى «تولوز» لأضع نفسي تحت تصرف اللجنة المركزية. يمكن أن يقبضوا عليّ في الطريق وأن يزجّوا بي في السجن ويمكن أن يقتلوني. أتفهمين؟

- أنت تحسب نفسك مهماً جداً. ما الشيء الذي يستدعي الفهم؟ كنت أعرف من قبل أنك شيعي. «فيلبي» شيعي، أختي شيعية، والسيد «فيرناندو»، وهو آخر من كان يمكن أن يخطر ببالي، شيعي أيضاً. حتى السيدة «ثيليا» شيعية، فكيف يُعقل ألا تكون أنت شيعياً.

- ولكنني هارب يا صغيرتي، أعيش مختبئاً وينبغي لي أن أستمّر بالاختباء. لا أريد خداعك: لا أعرف إلى متى سيبقى الوضع على ما هو عليه. عليك أن تعرفي أنني رجلٌ سياسي ولا يمكن لأيّ كان أن يغيّر أفكاري. لأيّ كان. هذا الشيء أكثر أهمية من إنجابي طفلاً، وسيظل كذلك حتى يوم مماتي، أو حتى يقتلونني إذا كُتِبَ لي أن يقتلوني.

- والمرأة التي ستربط قدرها بقدرك عليها أن تقبل بهذا.

- المرأة التي ستربط قدرها بقدري يجب أن تدرك أن قدرها قد يكون قائماً. فقد يقبضون عليّ أو يقتلونني، يمكن أن نتزوج ثم ترمّل، أو قد يقتلونني دون أن نتزوج، ولذلك فعليك أن تفكري جيداً في الأمر. لا أعرف إن كان من حقي أن أطلب منك ما طلبت، أو ربما كان من الأفضل لو أنني لم أطلبه. لا أعرف إلى متى سأضطر إلى الاختباء.

رفعتُ عينيها عن الأرض. أمسك بيدها ودسّها تحت ذراعه.

- هل تريدان أن تكوني حبيبتني؟

ابتسما. تمنّى الاثنان لو يتعانقان. تعلّقت بذراعه وبدأت تمشي بسرعة.

- إلى أين تأخذيني؟

- إلى حيث يذهب المُحبّون في مدريد.

اقتادته إلى محطة «لاس ديليشياس»، وعندما وصل أول قطارٍ ونزل  
أول المسافرين: عانقته.

واستسلمت لقدرها وسط تلك المعانقة.

طحالب.

قبلتهما كانت كالطحالب العالقة بهاء البحر. طحالب في بحر  
يلتقيان.

طحالب.

نعم.

\* \* \*

- ستة آلاف وستمئة؟

- ستة آلاف وستمئة.

- هؤلاء مجانين.

- لو كنّا اشتراكيين لما أخذوا منا قرشاً أحمر.

- هذا ما قالوه لك؟

- بالحرف. أول سؤال سألتني إياه تلك الشقراء كان: هل أنتم

اشتراكيون؟

كان «فيلبي» و«أماليا» ينتظران «باولينو» في المطبخ عندما كانت الفتاة الاشتراكية التي كان يتحدث بشأنها «فيلبي» تنتظر في الصالة. نعم، لقد كانت شقراء.

أنفها معقوف وذقنها بارز، من إقليم الباسك، من مدينة «سان سباستيان». السالامانكية العضو في «التضامن العمالي» أحضرها إلى بيتها للإعداد لهروب «باولينو» و«فيلبي». ولكن «باولينو» لم يعد بعد أن أوصل جدّه، و«فيلبي» أرغم الشقراء على الجلوس في الصالة ريثما يعود. جلست الشقراء بعد أن تبادلت مع «فيلبي» حواراً قصيراً حاولت فيه أن تقنعه بأن الهرب عبر البرتغال مستحيل، فمنّ يقطعون الحدود البرتغالية يُعيدهم حرس «سالازار»<sup>(1)</sup> مباشرة. الأفضل هو تهريبهم من «إيرون»<sup>(2)</sup>، هذا ما

(1) شغل أنتونيو سالازار منصب رئيس وزراء البرتغال من سنة 1932 حتى سنة 1968. كان نظامه ديكتاتورياً قمعياً قريباً من نظام فرانكو.

(2) قرية في إقليم الباسك شمال غرب إسبانيا، وهي قرية على الحدود الفرنسية - الإسبانية.

فعلوه مع غيرهم من الرفاق، وهذا ما اقترَحْتَه عليه دون أن تقدّم إليه أيّ خيارٍ آخر.

- القرار لك، لكننا لا نُخرج أحداً عبر البرتغال.

- أنا لا أقرر شيئاً وحدي، علينا أن ننتظر عودة رفيقي.

- ليس في وسعي أن أنتظر، لقد اتفقنا على اللقاء عند الثامنة، والساعة الآن الثامنة.

- لا أفهم لماذا أنت مستعجلة إلى هذا الحدّ.

- اسمع: جماعتك يتساقطون مثل الزغاليل، لا بدّ أنّك تعرف هذا الكلام.

- وماذا في ذلك؟

- يعني أنكم خطِرون يا رفيق.

- سنتظرين. الانتظار مشمولٌ في التسعيرة.

حزْمُ «فيلبي» جعلَ الشقراء تبتسم، فأجابت بالحزم نفسه:

- حتّى الثامنة والرّبع. سأنتظر حتّى الثامنة والرّبع، ولن أنتظر بعد ذلك دقيقةً واحدة.

- ممتاز. اجلسي، وسأعود حالاً.

غادر «فيلبي» الصالة، وأغلق الباب بحركةٍ عنيفة، وعندما صار في المطبخ سأل «أماليا» إن كانت هذه الشقراء موضعَ ثقة.

- أخرّجوا الكثيرين. لماذا تسأل؟

- لا شيء، لكنّها تقول لي إن جماعتنا يتساقطون مثل الزغاليل!

- لا يفاجئني ما قالته، فنحن نتساقط في مدريد مثل الزغاليل، أو مثل البراغيث إن أرَدْتُ.

- ما أريده هو ألا يُقال لي هذا الكلام، خاصةً ألا يقول لي هؤلاء.

- إنها موثوق بها.

- حتى لو كانت موثوقاً بها، فهي اشتراكية، لا شبيه لها في الجلالة والفظاظة، ووجهها يثير الريبة.

- إنها موثوق بها.

أخبر «أماليا» حينئذٍ بأنها طالبتة بستة آلاف وستمئة بيسيتا مقابل إخراجهما من إسبانيا. وحينئذٍ قالت له إنهم مجانين، فردّ عليها بأنهم مطالبون بالدفع لأنهم ليسوا اشتراكيين.

- معكما ما يكفي من المال؟

- أخذنا خمسة عشر ألفاً في آخر مداهمة، عندما داهمنا مصنع الطحين.

- ما الذي تنتظره إذن؟ لماذا لا تبلغها بموافقتك؟

- «الجاكيت الأسود» هو الذي يقرّر.

- وأنت؟

- أنا أوافق على ما يوافق عليه.

دخل «باولينو» في تلك اللحظة وهو يتلمّس شفّتيه.

اقترّب منه «فيلبي»:

- ستة آلاف وستمئة بيسيتا.

- ماذا؟

- سيقبض الاشتراكيون ستة آلاف وستمئة بيسيتا مقابل تهريبنا

إلى فرنسا.

ترك «باولينو» قبلات «بييتا» على شفّتيه ودسّ يديه في جيبيه  
ليستمع إلى «فيلبي».

- ستة آلاف وستمئة بييتا، لأننا لسنا اشتراكيين. يا لهم من أنذال!

- عن كلّ واحد؟

- عن كلينا.

وقال له إنّ الشقراء أكّدت أنّه يمكنها استخراج هويات أصلية لهما.

- من «بيلتشتي»<sup>(1)</sup>، فقد دُمّرت القرية كلها، واحترقت أوراق  
البلدية والكنيسة، لذلك فهم يعطون هويات حقيقية لأهالي «بيلتشتي»  
لأنهم بحاجة إلى إعداد قوائم جديدة فقد ضاع كل شيء. نحن الآن من  
«بيلتشتي» يا رفيق.

- وهل يمكنهم أن يحصلوا لنا على إذن مرور؟

- مدته ستة أشهر.

- مدته ستة أشهر!

استغرب «باولينو» لأنّ الحدّ الأقصى لأذون المرور هو شهرٌ  
واحدٌ عادةً.

- متى يمكنهم إخراجنا؟

- يمكنهم إرسالنا بالقطار إلى «سان سباستيان» الليلة، وغداً  
نذهب بالقارب إلى «سان جان دي لوس»<sup>(2)</sup>.

- لحظة، قلنا إنّنا سنخرج من خلال البرتغال.

- مستحيل، لأنّهم يلقون القبض على كلّ من يحاول المرور.

---

(1) قرية من قُرى «سرقسطة». تمّ تدميرها كلها سنة 1937 وبُنيت من جديد بجوار  
أنقاض القرية القديمة، التي بقيت شاهداً على الحرب.

(2) قرية فرنسية على الحدود مع إسبانيا.



بعد أن أطلعته «فيليبى» على كلّ تفاصيل خطة الهرب، ذهب الاثنان إلى الصّالة حيث كانت الاشتراكية الشّرقاء تنتظر، وأبلغاها بموافقتها على شروطها.

- سيأتون لأخذكما عند العاشرة. سيدقون على الباب ثلاث دقات. عليكما أن تكونا مستعدّين عند العاشرة تماماً، فهذه المرّة لن ننتظر أحداً. سيُجلب لكما أحد الرفاق الوثائق وسيأخذكما إلى المحطّة. عندما تصلان إلى «سان سباستيان» خذا القطار ذا الرقم سبعة المتّجه إلى «باساخس» ثم انزلا في الموقف الأخير وانتظرا هناك عند السور المقابل. فليأخذ كلّ منكما حقيبة صغيرة، واحملا القبعات باليد. سيقرب منكما شخص وسيخلع قبعته وسيقول لكما: مدريد. فتردان بالقول: مدريد. مفهوم؟

- مفهوم؟

- لا يمكنكما حمل الأسلحة. هل معكما سلاح؟

- نعم.

- اتركاه هنا إذن. سيتهي أمركما إن أمسكوا بكما في القطار وأنتما تحملان سلاحاً.

اتفقوا على تسليم مبلغ الستة آلاف وستمئة بيسيتا في «سان جان دي لوس». ودّعتهما الشّرقاء قائلةً إنهم سيلتقون مرة أخرى.

لم يأمن «فيليبى» جانبها بعد. حدّث «باولينو» بمخاوفه:

- لا أثق بهذه المتفذلّة. لا أثق بشعرة واحدة من رأسها. ولن يكون اسمي «فيليبى» إذا لم آخذ معي بندقيتي القصيرة، وخنجري أيضاً.

- أيها «القرطبيّ» نحن مختبئان منذ ستين.

تفاجأ «فيليبى» بإجابة «باولينو».

- وما علاقة هذا بالموضوع؟

كلامه صحيح، فقد ظلّا في تلّ «أومبريا» سنتين تقريباً. مضى عليهما وقتٌ طويلٌ وهما هاربان.

ولكن «الجاكيت الأسود» لم يشك يوماً من ذلك. نبرة صوته فضحتُه، ولم يكن «باولينو» يفكر في الأسلحة عندما قال لـ «فيلبي»:

- سأكتب رسالة.

كان «باولينو» يفكر في الرسالة التي أعطاها «بييتا» في محطة «ديليثياس». تلمّس شفتيه من جديد، وتشوق إلى كتابة رسالةٍ أخرى إليها. أخذ يفكر في الرسالة التي سيكتبها. أخرج ورقةً وقلماً. سيكتب. الوقت الذي مرّ عليّ وأنا مختفٍ في التلّ لا يؤلني. يؤلني الوقت الذي يمكن أن نقضيه معاً. تؤلني هذه الليلة. سيؤلني الصباح. ستؤلني كل الدقائق التي ستمرّ ريثما أعود إلى رؤيتك من جديد يا صغيرتي. يجب أن أذهب. سيكتب إليها إنّه يتمنى أن يتزوجها في نفس اليوم الذي يعود فيه. سأعود. سيكتب إليها.

سيعود «باولينو»، لكنّه لن يقدر على زواج من «بييتا» يوم عودته.



رسالتان. بين يدي «بييتا» رسالتان من «باولينو». الأولى أعطاها إياها بنفسه بعد أن قبلها في محطة «دليلثياس». قرأت «بييتا» الرسالة مرّاتٍ كثيرة، في صباحات كثيرة وليالٍ كثيرة. أمّا الرسالة الأخرى فقد دسّتها «أماليا» في جيب معطفها عند باب السجن، وقرأت الرسالة الأخرى مرّاتٍ كثيرة، في صباحات كثيرة وليالٍ كثيرة. تبسم دائماً عندما تقرأها وتبكي عندما تحبّثها. لا تعرف «بييتا» أن «باولينو» كتب الرسالة الأخرى وهو يتبسّم. ولا تعرف أنّه كبح دموعه وهو يضعها في الظرف.

لا تعرف أنّه سحب بعد ذلك منديلاً مطويّاً من جيبه، ومرره على أنفه وهو مطويّ، دون أن يراه «فيليبّي» ثم أعطى الظرف لـ «أماليا»:

- أعطي هذه الرسالة لـ «بييتا» عندما تذهبن لزيارة أمك. احرصني على ألا يراك أحد. أسدي إليّ هذه الخدمة الأخيرة.

- لا تقلق، فلن يراني أحد.

عندما أعاد «باولينو» منديله إلى مكانه، اقترب منه «فيليبّي».

- هل تكنّ لك «بييتا» نفس ما تكنّه أنت لها؟

- نعم.

- ما أجملكما يا صغيريّ. لقد اخترتما توقيتاً ممتازاً لقصص العشق والغرام الجديدة.

رفع يده إلى رأسه وحكّه، ثم طلب هو الآخر معروفاً من «أماليا»:

- هل يمكنك أن تأخذي هذا الدفتر؟ إنه لـ«تينسي» فهي تحب الكتابة كثيراً، أعتقد أنها ستحتاج إليه قريباً.

إنه دفتر أزرق. كان «فيلبي» قد اشترى دفتر أزرق لـ«أورتينسيا».

- بالتأكيد.

- ولكن لا تعطيه لـ«بييتا». يمكنك أن تعطيه لأملك لو تكرممت، ثم تعطيه أملك لـ«تينسي»، وهكذا نُجنّب «بييتا» الخوف، فهذه الصغيرة تخاف من كل شيء.

حانت الساعة العاشرة. دُق الباب ثلاث مرّات.

- افتحي أنت يا «أماليا».

فتحت «أماليا» الباب.

دون أن يدعوه أحدٌ للدخول قال قسيسٌ فجأةً «السلام عليك يا مريم» ودخل إلى الصّالة. كان يحمل هويّات «فيلبي» و«باولينو»، وأذونات المرور الصّالحة لستّة أشهر. أصرّ عليهما أن يكرّرا أسماءهما بصوت عالٍ:

- لا فائدة للأوراق إذا سألوكما عن أسمائكما فتلعثمتما ولو لحظة. عليكم أن تقولوا الأسماء بدون تفكير. ما اسمك؟

- «ماتيو بيخارانو»

- وأنت؟

- «خايمي ألكانتارا»

هزّ القسيس رأسه هزّة واحدة، إيحاءة بسيطة منه كانت كفيلة بجعلهما يحييان:

- «ماتيو بيخارانو». «خايمي ألكانتارا».

- جيّد، احفظا أسماءكما في عقلكما وقلبكما. سقط بعض الرفاق لهذا السبب فحسب.

عانقتهما «أماليا» مُودّعة وتمنّت لهما التوفيق.

- حظاً طيباً «ماتيو»، حظاً طيباً «خايمي»

خرج «فيليبى» من بيت «أماليا» وقد صار اسمه «ماتيو».

تقبّل «باولينو» اسم «خايمي» وأعجبه. اشتكى «ماتيو» في الطريق إلى المحطة من أنهم لم يسمحوا له بحمل الأسلحة:

- الحركة بدون سلاح تجعل المرء مهيبض الجناح.

كرّر شكواه في المحطة عندما ودّعهما القسيس. وكرّرها في «مدينة ديل كامبو» حيث توقّف قطارهما وانتظرا القطار القادم من «سالامانكا» الذي جاء متأخراً. كرّرها في «سان سباستيان» عندما صعدا في القطار ذي الرقم سبعة وعندما ترجّلا في المحطة الأخيرة. وكرّرها كثيراً طوال الساعات الثلاث التي مكثاها مُنتظرين وكلٌّ يحمل قبّعته بيده.

- مهيبض الجناح تماماً.

ثلاث ساعات.

ولم يأت أحدٌ ليقول لهما «مدرید». ظلّ «ماتيو بيخارانو» و«خايمي ألكانتارا» واقفين مستنديين إلى السور دون أن يرفعا عيونهما عن موقف القطار، يدخنان السيجارة تلو الأخرى. أطفأ سجائرهما بكعب الحذاء. وضعوا الحقيبتين على الأرض. عادا فحملاهما. ثمّ عادا فوضعاهما. شعرا بالغرابة مع اسميهما الجديدین، وبالضياع في بدليتهما الرماديتين وقبعتيهما المحمولتين. وفي «باساخس»، وافق الذي كان اسمه «باولينو» رفيقه وهو يسحق عقب سيجارة أخرى على الأرض:

- كان من الأجدر بنا أن نجلب الأسلحة.

- لقد قلتُ هذا من قبل.

أطفأ «القرطبي» سيجارته هو الآخر، ونظر إلى موقف القطار. تمشى على الرصيف. عادَ إلى جوار رفيقه ودقَّ بقبعته على ساقه لحن تارانتو<sup>(1)</sup>:

- ماذا سنفعل إن لم يأتوا؟

يضرب «خايمي» الآن رجله بالقبعة.

- دعنا ننتظر قليلاً

- إذا ظلَّ الوضع على ما هو عليه، فلا أعتقد أن أحداً سيأتي.

- إذا لم يأتوا فسنقطع الحدود بأية طريقة.

تركزت أنظار الرجلين القلقين الأعزّلين على رجل ثالث ترّجل من القطار. قطع الشارع. اقترب. نظر إليهما. ثم التفت يميناً ويساراً. وقف إلى جوارهما ونظر إلى حقيبتيهما، وخلع قبعته وقال «مدريد». فردَّ «ماتيو» و«خايمي» قائلين: مدريد! نفسا القلق الذي تراكم في داخلهما، ونطقا الكلمة معاً، كأنهما ينشدان نشيداً. كرّرا: مدريد! وهما يتنهدان مُفرّغين كل ما تبقى في صدريهما من هواء، وصدرت عنهما الكلمة، كأنها تنهيدة.

- اتبعوني.

اعتمر «ماتيو» قبعته ورفع حقيبته الصغيرة عن الأرض وأعطاهما الرجل الذي جعله ينتظر ثلاث ساعات:

- انتظر قليلاً يا سيدي، واحمل لي هذه الحقيبة فأنا ذاهب لأتبول.

- استعجل، لأنهم ينتظروننا.

وخلال لحظاتٍ كان الرجل الذي تأخّر ثلاث ساعات يحمل حقيبة «خايمي» باليد الأخرى.

(1) شكل غنائي من أشكال الفلامنكو، منتشر في مدينة «المرية».

- احمليها لي، فأنا أريد أن أتبول أيضاً.

أدار الرفيقان ظهريهما للرجل الذي كان يحمل حقيبة بكلّ يد. ابتعدا عنه بضع خطواتٍ واعتمرا قبعتيهما وتبّولا على الجدار.

مجرّد حركة. لم تكن إلّا حركة احتجاج، اعترفا أنّها صغيرة وعديمة الفائدة. تحدّثا بالموضوع عندما صارا على متن الزورق الصغير الذي حملهما إلى فرنسا وسط أنوار المساء الداوية والبحر الذي أخذ يغرق في العتمة. كانا متكئين على درابزين الزورق وتأمّلا ساحل إسبانيا وهو يبتعد. سمعا صوت الرجل الذي حمل لهما الحقيقتين. تكلم إليهما أوّل مرة وكانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي نطق بها طوال الرحلة:

- ها قد صرنا في المياه الفرنسيّة.

تأمّل «خايمي» و«ماتيو» ظلال جبلٍ على يمينهما.

- يا فتى، آخر ما فعلناه في إسبانيا كان التبول.

- التبول على جدار.

\* \* \*





عندما تلّقت «بييتا» رسالةً من «خايمي ألكانتارا» خافت من أن يكون غريبٌ ما قد أرسل إليها خبراً سيئاً. كانت الرسالة من «تولوز». عندما بدأت بقراءتها ميّزت خطَّ «باولينو» فوراً، واستنتجت أن الاسم طريقةٌ للتخفي.

- ممّن الرسالة؟ لقد تغيّر وجهك يا صغيرتي.

سألته السيدة «ثيليا» من آخر الممرّ وهي تحمل فنجان قهوتها بيدها.  
- إنّها من فرنسا.

فرحةً «بييتا» أشبعت فضول مديرتها. استندت السيدة «ثيليا» إلى الباب وقربت طرف الفنجان إلى شفيتها ونفخت عدة مرّات دون أن ترفع عينها عن الصغيرة. استمرّت «بييتا» في القراءة. ابتسمت. دلّ «خايمي» على «باولينو» عندما أتى على ذكر محطة «ديليثياس» وكنيسة «القديس خوداس تاديو». كشف نفسه أمامها فقط، وبعد أن اخترع حكاية أنّه سائق قطار، وأنّه قد مكث السنوات الخمس الماضية مسافراً في فرنسا، قال إنّ الرحلة الأخيرة كانت طويلةً جداً وأنّه مُتعبٌ لكنه بخير. كان «خايمي» يخلّق لنفسه حياةً حتى يتمكّن «باولينو» من كتابة رسالةٍ إلى «بييتا».

وتخيّلت هي أن تلك القصة كانت سلسلةً من الكذبات التي تختبئ بين سطورها حقيقةً واحدة: حقيقة أنّه يحبها. ابتسمت مرة أخرى. ولكن ما لم تتمكّن بييتا من تخيّل هو أن ساعي البريد، أوصل الرسالة إليها ثم ذهب إلى «الداخلية» ليبلغهم أنّه أوصل رسالةً من خارج البلاد

إلى بانسيون «أتوتشا». لم يكن بإمكان «خايمي» أن يتخيل ما حدث. لقد كتب الرسالة حتى يُطمئن «بييتا». اخترع قصة سائق القطار لكي يحميها في حال وقعت الرسالة في يد أحد سواها. كتب لها الرسالة يوم وصوله إلى «تولوز» لكي تعرف «بييتا» أن رحلته قد وصلت إلى نهايتها، وأنه وصل بالسلامة.

الشقراء الاشتراكية التي لم يثق بها «ماتيو» عندما كان اسمه «فيلبي» هي التي استقبلتهما في «سان جان دي لوس». الشقراء ذاتها. فوجئ «خايمي» و«ماتيو» عندما رأياها، إذ لم يتوقعا رؤيتها هناك. ابتسما وسلما عليها. لم تبسم مرة واحدة، وعرفتهما إلى عضو من الحزب الشيوعي كان برفقتها، وسألتهما عن رحلتها، ثم قالت إنه ينبغي لها أن تذهب.

- تنتهي مهمتنا عند هذا الحد. سيأخذكما رفيقكما إلى «بايونا».

قبضت ثمن الخدمة التي قدمتها، وودّعتها قائلة إنهم لن يلتقوا مرة أخرى. وفي «بايونا» ساعدتها «لجنة الباسك» في الحصول على الأذونات حتى تسمح لهم الشرطة الفرنسية بالوصول إلى «تولوز». وعندما وصلا إلى هناك، نزل الاثنان في نفس الغرفة في فندق صغير، وأصرّ عليهما الرفيق الذي أوصلهما أن يناما بضع ساعات، ريثما يذهب هو لإحضار طبيب ليعالج جرح «ماتيو»، وفي المساء سيأخذهما ليعرفهما إلى اللجنة المركزية.

- كيف الأوضاع في إسبانيا؟

- منذ متى وأنت غائب عنها؟

- منذ حادثة «كاسادو». جئتُ مع «دولوريس» من «مونوبار»<sup>(1)</sup>.

---

(1) مونوبار مدينة في بالنشيا، انطلقت منها الطائرات الأربعة الأخيرة التي حملت قيادات الحزب الشيوعي الإسباني إلى المنفى.

- إذن لا بدّ أنّك تعرف أنها كانت كارثة. جماعة «كاسادو» سلّموا الملفات وتساقط رفاقنا واحداً تلو الآخر. حتى إنّ «مجلس كاسادو» ألقى الكثيرين في السجن حتى قبل أن تتم ملاحقتهم.

- وماذا بشأن حرب العصابات؟

- ها نحن نحاول.

- نسمع هنا أنّ الاشتراكيين هم من ينظّمون حرب العصابات.

التقرّز الذي غلب على «ماتيو» جعله يصرخ:

- هذا كذب، حرب العصابات الحقيقية، المنظّمة على أفضل وجه هي عصابات الحزب الشيوعي، وأغلب من عرفتهم كانوا شيوعيين.

- حسناً، قلتُ لك فقط حتى لا تتفاجأ عندما يزعمون أنّ الفضل لهم.

- فليزعموا الفضل الذي يحلو لهم، وليكفّوا عن إثارة القلاقل.

- سأذهب لإحضار الطبيب. ارتاحا قليلاً.

لم يتمكّن «خايمي» من النوم على الرغم من التعب. حاول لكنه لم يستطع. وقرّر أن يستغلّ وقت الاستراحة ليكتب الرّسالة التي تقرأها «بييتا» الآن. أرسلها إليها في مساء اليوم نفسه. كان يوم جمعة. ترك «ماتيو» نائماً ونزل إلى الشارع ليجد طابعاً وصندوق بريد ليرسل الرّسالة إليها، دون أن يشكّ لحظة في أنّ إرساله الرّسالة إلى «بييتا» يعني إرسالها هي إلى «الداخلية». لم يخطر له، أنّه وبعد مرور دقائق من قراءة «بييتا» للرّسالة بافتتان سيأتي رجلان إلى باب بانسيون «أتوتشا»، وهي تحتضن الرّسالة وتشدّها إلى صدرها.

دقّ الجرس عنصران من عناصر الشرطة الخاصة التابعة لوزارة الداخلية. سمعت مديرتها الجرس من آخر الممر وهي تقرب فنجان

القهوة إلى شفيتها وتراقب افتتاح «بييتا». عندما فرغت الصبية ذات العينين الزرقاوين المستحيلتين من قراءة الرسالة وشدتها إلى صدرها: رنّ جرس بانسيون «أتوتشا» بإلحاح ورافق الرنين صوت طرق على الباب.

- ها أنا قادمة! ها أنا قادمة!

قلقت السيدة «ثيليا» عندما سمعت الجلبة:

- افتحي يا صغيرتي، سيكسرون الباب.

فتحت «بييتا» الباب.

هنالك رجلان.

قالا «صباح الخير» وقدّما هويتهما. سأل أحدهما عنها:

- «خوسيفا رودريغيث غارثيا»؟

- أنا هي.

قال الآخر:

- الشرطة الخاصّة.

كان يريد أن يعرف إن كانت قد استلمت رسالةً من فرنسا. كانت «بييتا» ما تزال ممسكةً بالرسالة وحاولت أن تخبئها خلف ظهرها.

- أرنا هذه الرّسالة.

ما شعرت به «بييتا» لم يكن خوفاً، ولا يأساً. في لحظة واحدة قبلت بنصيبتها، الحظ القاتم الذي استشرفه ذاك الذي كان اسمه «باولينو». نظرت إلى السيدة «ثيليا»، أسدلت ذراعيها وأرّثها الرّسالة.

- تفضّلي معنا.

- انتظرا!

السيدة «ثيليا» هي التي صرخت بهما طالبةً منهما أن ينتظرا. ألقت  
فنجان القهوة على الأرض، وركضت تجاه الرجلين اللذين كانا يقتادان  
«بييتا» وقد أمسك كل واحدٍ منهما بإحدى ذراعيها.

- دعوها ترتدي معطفاً.

اتجهت العينان الزرقاوان مرةً أخرى إلى السيدة «ثيليا». لم يتوقف  
الرجلان.

- انتظرا، ألا ترون أنّ ثيابها رقيقة؟ لا يمكنها أن تخرج إلى الشارع  
هكذا في هذا الجوّ البارد.

شعرت السيدة «ثيليا» بالخوف، وشعرت باليأس. وتعلّقت بفكرة  
حماية «بييتا». حمايتها، حتى لو تتمكن من حمايتها من شيء سوى البرد.  
ركضت إلى غرفة الصبية، بحثت عن معطفها في الخزانة. نزلت الدرج  
مُسْرعة، ولحقت بـ«بييتا» في الشارع.

غطّت ظهرها وربّبت على رأسها.

- شكراً.

أدّرات «بييتا» رأسها نحوها وشكرتها.

- شكراً سيّدة «ثيليا».

التفتت إلى الأمام وشدّت الرّسالة إلى صدرها وشعرت بثقل  
معطف أبيها على أكتافها. مشّت خطواتٍ واثقة. مشّت وهي تعرف أنّ  
«باولينو» في مأمن ما دام اسمه «خايمي» وما دام هو في فرنسا. وسيبقى  
في مأمنٍ في فرنسا حتّى لو لم تتحمّل هي ركلةً واحدة.

رأته السيدة «ثيليا» وهي تبتعد وسط الرجلين اللذين اقتاداها.  
فكرت في أنّ هذه الصّبيّة هشةٌ جداً وأنه ينبغي لها أن تتصرّف. فكرت.

وقرّرت. ستذهب لتطلب المساعدة من الدكتور «أورتيغا». ستلجأ إليه. السيد «فيرناندو» يعرف ما الذي ينبغي فعله. اتجهت إلى بيت الطبيب. أخذت تركض. ركضت وركضت وتذكرت ابتها «ألودينا». لم تتمكن من تجنب الذكرى، فركضت وهي تفكر في ابتها، وتتذكر آخر مرة رأتها فيها. كانت تمشي خطواتٍ واثقة وسطَ رجلين.

\* \* \*

مثل احتجاز «بييتا» لحظة فاصلة للسيد «فيرناندو»، الذي كان قد لبث أسبوعاً وهو ينتقي الكلمات التي سيرفض بها العرض الذي عرضه عليه والده للعمل طبيباً في سجن «لاس بيتاس». أعطاه والده أسبوعاً ليفكر في العرض.

- انظر يا «فيرناندو» أنت طبيب، ولست مجرد محاسب.

أعطاه أسبوعاً، وها قد انقضى. ولكن لم يُعدّ للكلمات التي اختارها أي داع بعد أن زارته السيدة «ثيليا». سيقبل بالوظيفة، وسيعطي لوالده الغلبة هذه المرة، لكنه سيطالبه بالمقابل بأن يستغل موقعه كمستشار الشؤون الطبية في وزارة الداخلية حتى يُطلق سراح «بييتا».

ذهب للقاء أبيه من فوره. خرج إلى الشارع متدثراً بردائه الإسباني. رآته زوجته وهو يمرّ عند تقاطع شارعيّ «ريلاتوريس» و«ماغدالينا» حيث وقفت تنتظرُ خروجه من البيت. تقف دائماً في نفس الزاوية عند عودتها من الكنيسة، تحمل بإحدى يديها شال الدانتيل، وتشدّ باليد الأخرى على كتاب الصلاة. تراقب، حتى ترى أنّه خرج، فتتحرك من مخبئها وتقطع شارع «ريلاتوريس» ثم تدخل بيتها. زوجها يعرف ذلك.

عرف أنّها تختبئ منه عندما رآها قابعةً هناك ذات صباح. انكشف أمرها عندما حاولت أن تخبئ نفسها. يومها، كان السيد «فيرناندو» ذاهباً للقاء والده في عيادته الخاصة في ميدان «تيرسو دي مولينا»، ولهذا دار دورة كاملة حول المبنى لكي لا يكشف مخبأ زوجته. ولكنه مستعجل اليوم، لأن «بييتا» اليوم في «الداخلية» وسيسلك الطريق الأقصر حتى يذهب لطلب المساعدة من أبيه.

مشى على مهل إلى الزاوية التي تنتظر عندها السيدة «أمبارو». مرّ بجوارها دون أن يتوقف. حيّاها تحيةً سريعة: مجرد انحناءة من رأسه، ردّت عليها السيدة «أمبارو» بالمثل، ومضى في طريقه إلى الميدان. وصل إلى عيادة والده عازماً على أن يطلب من أبيه التدخل لإخراج «بييتا» من «الداخلية». ليطلب منه إخراج الفتاة التي كادت تفقد وعيها عندما أوصلت إليه رسالة من «الجاكيت الأسود». ينبغي له أن يُخرجها من هناك، قبل فوات الأوان. «بييتا» ستتكلّم، وستقول كلّ شيء: كلّ شيء.

سينتهي أمره. الآن، عليه أن يختار الكلمات التي سيقولها لوالده بحكمة أكبر. ينبغي له أن يقرر وليس من وقت، فلا بدّ أن «بييتا» ستكون قد وصلت الآن إلى غرفة التحقيق. عليه أن ينتقي كلماته لكي لا يفضح نفسه أمام والده. سيتكلّم السيد «فيرناندو» وسيقيس كلماته بعناية. سيقول ما يكفي ليكون موقفه قوياً، وحتى لا تثير رغبته في إطلاق سراح خادمته أية شكوك. ينبغي له أن يخاطر بالضروري: الضروري ولا شيء سوى الضروري. وعليه أن يسرع، دون أن يضيّع ثانية واحدة، فالاسم حتّى يُقال لا يحتاج إلى أكثر من ثانية. عليه أن يقنع والده هذا الصّباح، الآن، حتى لا تؤدّي هشاشة «بييتا» إلى دماره الشخصي.

- أتذكر بييتا؟ الصّبية التي تخدم في البيت؟

- من غير شك، التي قدّمت عشاء الميلاد. صبيّة جميلة جداً.

لم يجلس السيّد «فيرناندو» ولم يخلع رداءه الإسباني. اكتفى بخلع قبعته ووضعها على مكتب أبيه.

- أخذوها توّاً إلى «الداخلية». إذا أخرجتها من هناك الآن فسأقبل بالوظيفة في سجن «لاس بيتاس».

- إنّها جميلة، جميلة فعلاً. ماذا فعلت؟

- لا شيء، تلقّت رسالة من فرنسا، وأخذوها لهذا السبب.



- إذن سيطلقون سراحها، لا تقلق.

- أخرجها من هناك. إذا أخرجتها الآن، فسأقبل بالوظيفة.

- إنك تخيّب أملي يا «فيرناندو». كان عليك أن تقبل بهذه الوظيفة من أجلك أو من أجل «أمبارو».

شدّ السيّد «فيرناندو» يديه على مكتب أبيه. أحسّ والده بتوتره، وأفزرعه وجه ابنه المحتقن.

- اجلس يا فتى، واخلع الرداء حتى لا تصيبك نوبة.

- الأمر عاجل يا أبي.

- اجلس، ولتحدّث بهدوء.

- لم آتِ لأتحدّث. جئت لأقبل بالوظيفة ولأطلب منك خدمة.

- هل تعرف «أمبارو» بما جرى؟

- ليس لـ«أمبارو» أيّ علاقة بالموضوع.

- هذا ما ظننته. ولكن إن أخرجتُ تلك الفتاة من «الداخلية»

ستُخرجها أنت من بيتك، فأنت ملزّم باحترام زوجتك.

- ولكن...

- لا تتعذّر، تُخرجها اليوم وتبدأ عملك غداً في «لاس بينتاس».

تناول السيّد «فيرناندو» قبعته عن المكتب.

- اتفقنا، هيّا بنا.

- لا داعي إلى ذهابك، سأتكفل أنا بالأمر عندما أنهى مواعيد

العيادة.

- أريد أن أخرجها أنا بنفسني من هناك.

- فهمت.

- لسنا بعيدين عن «بويرتا ديل سول»، إذا ذهبنا الآن فيمكننا أن  
نصل في الوقت المناسب.

- الوقت المناسب لماذا؟

- أبي.

أراد السيد «فيرناندو» أن يوصل لأبيه بنبرة صوته ما هو واضح.  
اكتفى بالقول «أبي» حتى لا يقول له «أنت تعرف كل شيء». وفهم الأب  
مقصد ابنه.

- هيّا بنا.

قالها الطبيب الذي يعرف جيداً المعاملة التي يتلقاها الموقوفون في  
«الداخلية» وكيف يخرجون منها.

\* \* \*

- هذه المرأة ميتة.

- وأنا أظن ذلك أيضاً.

المرأة كانت ميتة فعلاً. جرّها شرطيان من يديها على الأرض. المرأة ميتة، نظرت «بييتا» إلى وجهها فعرفتھا: إنها «كارمينا»، البائعة على البسطة ذات الرقم 27 في سوق «لا ثيبادا». وسيطة «الجاكيت الأسود». المرأة التي كانت تعلّق الملابس على الشرفة: ميتة. أخذها رجلان أمام عيني «بييتا» المذعورة، التي دفعها رجلان آخران إلى نفس الغرفة التي جرّوا منها «كارمينا». أحد الرجلين اللذين كانا يسحبان الجثة ظلّ ينظر إلى «بييتا».

- ما أجمل عينيك يا حلوة.

ضحك الآخرون عندما سمعوا المعاكسة وسط هذه الظروف. دفعها إلى الدّاخل، بنفس الطريقة التي أرغموها فيها على صعود الدّرج حتّى الطابق الثاني. دفعها وأمرها بالجلوس. كانت تعرف أنّها ستفقد الوعي. عرفت ذلك لأنّها شعرت برأسها يمتلئ بالزّبّد. تركها الرجلان جالسةً على الكرسي في منتصف الغرفة التي علّق على جدارها صليب، وابتعدا. خرجا إلى الممرّ، ودون أن يغلقا الباب سأل أحدهما زاعقاً:

- هل ماتت هذه بين أيديكم؟

سمعت «بييتا» الإجابة من مكانها على الكرسي.

أجاب ذاك الذي كان يجرّ «كارمينا» من يدها اليمنى:

- على ما يبدو.

وصلت الكلمات بوضوح إلى مسامعها، واختلط صوت الرجال مع الزبد.

- أليست هذه هي التي زعموا أنها القويّة؟

- هكذا قالوا.

وصلت الكلمات واضحة إلى مسامعها، أمّا عيناها فلم تعودا تريان الصليب المعلق على الجدار.

- هل تكلمت؟

الذي أجاب الآن هو الذي كان يجرّ جثة «كارمينا» من يدها اليسرى، توقّف في وسط الممر وقال دون أن يفلت يدها:

- كان من الأفضل لها لو أنّها تكلمت.

- متى ينتهي دوامك؟

اختفى الصليب، والكلمات أيضاً أخذت تتلاشى. انزلقت «بييتا» عن الكرسيّ.

- عند الثانية عشرة، وأنت؟

- وأنا أيضاً. انتظري، سأنتهي من هذه الفتاة ثم نذهب أنا وأنت معاً.

- يا لها من قطعة ممتازة، أهي لك وحدك؟

- لي وله.

لم تعد «بييتا» تسمع شيئاً على الإطلاق. عيناها مغمضتان واستقرّت على الأرض مغشياً عليها.

- اللعنة!

- ماذا جرى؟

- سقطت القطعة. يا رجل! لا يمكن للمرء أن يترك النساء وحدهن!
- أحضر الماء.
- أيقظوها بدلو من الماء البارد. استعادت «بييتا» وعيها وذعرها.

\* \* \*



في بانسيون «أتوتشا» كانت السيّدة «ثيليا» تذرّع الممر جيئةً وذهاباً وبيدها منديلها. ظلت تمشي ولم تستطع أن تقف في مكانها منذ عادت من بيت السيد «فيرناندو» منذ أكثر من ساعة. تمشّت وهي تبرم المنديل وعادت تذرّع الممر جيئةً وذهاباً وهي تنظر إلى عقارب ساعة الجدار. قربت المنديل من عينيها الحمرّاوين الجافّتين. كفّت عن البكاء منذ زمن. عيناها تؤلمانها. ظلت تدعكها حتى وصلت إلى نهاية الممرّ. استمرّت بالمشي وبدعك عينيها عندما وصلت إلى الجانب الآخر. نظرت إلى عقارب الساعة. مشّت وبرمت المنديل. تمنّت لو أنّها تبكي حتى تبرّد جفونها.

ستبكي السيدة «ثيليا» مرّةً أخرى. ستريح الدموعَ عينيها عند رؤية «بييتا»، ولن يطول انتظارها. وستبكي «بييتا» عندما تلقي نفسها بين ذراعي السيدة «ثيليا». بكت وهي تحكي لها أنّ الدم الذي لوّث فستانها ليس دمها. لقد تلوّث عندما جلست على الكرسي، وتلوّث أكثر عندما سقطت على أرض الغرفة التي علّق على جدارها صليب. بكت عندما أخبرتها أنّ «كارمينا» قد ماتت.

- سمعتهم يقولون إنّها لم تتكلّم.

وأقسمت إنّها لم تبُح بسرّ أحد، وأنّها فقدت الوعي. أقسمت وسط الشبهات أنّهم لم يطرحوا عليها أيّ سؤال. وكرّرت أنّها فقدت الوعي مرتين، وأنّها عندما استفاقت أول مرة وجدت أضرارها مفكوكة وجسدها مبللاً. كانت ترتعش لكنها لم تكن تشعر بالبرد. أمروها بالجلوس على الكرسيّ مرّةً أخرى. لا بدّ أنّ لونها كان شاحباً إلى الحدّ

الذي جعل أحد الرجلين يسأل الآخر إن كان يحبّ النساء بهذا البياض، فقال الآخر لا، وأنّ هذا البياض ضربٌ من المبالغة، وأنّهم إن أشعلوا فيها النّار فستصبح كالشمعة. دقّ أحدهم الباب في تلك اللحظة، ولا تذكر شيئاً بعد هذا الحدّ. ما تعرفه هو أنّها كفّت عن الارتعاش، وأنّها أغمضت عينيها، وأنّها كانت عاجزة عن إبقاء رأسها مرفوعاً. وعندما استفاقت في المرّة الثانية وجدت نفسها في غرفة أخرى مُمدّدة على سرير. كان والد السيد «فيرناندو» يفحصها بالسّماع:

- إنّها في أفضل حال. كانت حالة إغماءٍ عاديّة. إذا أردتما أن تبقىا وحدكما قليلاً ففي وسعكما البقاء هنا وسأخرج أنا.  
- لا داعي إلى ذلك يا أبي.

غطّاها السيد «فيرناندو» بالمعطف وأعطاهما يده ليساعدها على النهوض:

- هيّا بنا.

- ستُخرجني من هنا يا سيّدي؟

- أتيتُ لكي أُخرجك. هيّا بنا.

عندما صارا في الشارع، شرح لها السيد «فيرناندو» أنّهم حجزوا الرسالة التي وصلتها من فرنسا. وإذا تلقّت رسالةً أخرى فعليها أن تذهب بنفسها لتبلغ «الداخلية» دون أن تنتظر بلاغ ساعي البريد. مشّت «بيبيتا» صامتة، محاطةً بالأب والابن، دون أن يزول عنها الشحوب والدّعر. عانق السيد «فيرناندو» والده مودّعاً، وسأله متى سيبدأ الدوام في عمله الجديد. استبقاه والده بين ذراعيه قليلاً، ثم أبعده عنه وربّت على خدّ «بيبيتا»:

- إنّها جميلة حقاً. ستبدأ غداً، هذا ما اتفقنا عليه، فقد مضى عليهم أسبوع دون طبيب. تعال إلى عيادتي عند الساعة الرابعة والنصف وسأشرح



لك ما ينبغي لك فعله. إنها جميلة جداً، ولكن سألتك بالله يا رجل أن تُخرجها اليوم من بيتك.

مشى السيد «فيرناندو» و«بييتا» إلى بانسيون «أتوتشا». بعد بضع خطوات استدار ليتأكد أنّ والده قد ابتعد عنها، وأراد حينئذ أن يتقصى ليعرف إن كانت «بييتا» قد ذكرت اسمه في التحقيق. بدأ يسألها إن كانوا قد ألحقوا بها أي ضرر:

- هل آذوك؟

- لا يا سيدي.

- ماذا كانوا يريدون أن يعرفوا؟

- لا شيء.

- ألم يطرحوا عليك أيّ سؤال؟

- لا يا سيدي.

- لا بدّ أنّك قلت شيئاً.

- أنا لم أقل شيئاً.

إلحاح السيد «فيرناندو» أقلق «بييتا». استمرّ في طرح الأسئلة عليها:

- هل ذكرت اسمي؟

- لم أقل شيئاً يا سيدي، لقد فقدت الوعي.

- لم تقولي أيّ شيء يتعلق بي؟

- أقسم لك برحمة أمواتي أنني فقدت الوعي ولم أقل شيئاً. أقسم

لك برحمة أمي وأبي إنني لم أقل شيئاً.

ساورها الشكّ أنّ السيّد «فيرناندو» أخرجها من «الداخلية» لينقذ

نفسه. وشكوكها أفقدتها ثقتها به.

- من كانت الرسالة؟ هل كتب إليك «الجاكيت الأسود»؟ هو الذي أرسل إليك، صحيح؟

- لا يا سيدي، كانت الرسالة من حبيبي.

- أيّ حبيب؟ أليس «باولينو غونثاليث» حبيبك؟ فكّري جيداً يا «بييتا» ولا تخدعيني. لقد رأيتهما معاً، ورأيت نظراتكما عندما ذهبت لأعالج جرح زوج أختك. لست بحاجة إلى الكذب عليّ. لقد ذهبا إلى فرنسا وأنت استلمت رسالة من فرنسا. حبيبك يعرضنا جميعاً للخطر، ألا تفهمين؟

مخاوف السيد «فيرناندو» أثبتت شكوك «بييتا».

- سبق أن قلت لك إنّ «باولينو» ليس حبيبي. حبيبي اسمه «خايمي».

- ولكن من هو «خايمي» هذا؟

- «خايمي ألكانتارا».

- وماذا قال في الرسالة؟

- أشياء في الحب.

- هل ذكر اسمي؟

- لا يا سيدي.

لا يمكن لمن يقرأ الرسالة أن يكتشف أن «خايمي» هو «باولينو». لا أحد سيكتشف، إلا «بييتا». فهمت، الآن فقط، لماذا استخدم رموزاً لا يمكن لأحد سواها أن يفهمها. وعرفت لماذا اخترع قصّة، عرفت السبب بيقين عندما أخذت ترويها، واكتشفت أنّه لم يخترع القصّة ليحمي نفسه، بل حتى يحميها هي.

- هل أنت متأكدة من أنّه لم يذكر اسمي؟

- متأكدة يا سيدي. فحبيبي لا يعرفك. لقد ذهب إلى فرنسا منذ خمس سنوات ليعمل سائق قطار، ذهب قبل أن تبدأ الحرب، ونظراً إلى أن الحرب قد اندلعت هناك فقد أخبرني بأنه سيرجع. هذا هو ما قاله لي في الرسالة، أنه سيرجع، وأنا ستتزوج عندما يرجع. نجحت الذاكرة بوصفها مهرباً، وتذكرت «بييتا» الكلمات التي كتبها حبيبها، وكفّ السيد «فيرناندو» عن طرح الأسئلة.

\* \* \*

مكتبة  
t.me/soramnqraa



أثارَ الاكتظاظُ في عيادة سجن «لاس بينتاس» الذَّعرَ في نفس الدكتور «أورتيغا» وأشعرَه بمزيج من الاشمئزاز والأسى. كان هنالك سجينتان على كل سرير، وكنّ يتشاركن الأسرّة والشراشف المتسخة، ولا يتدثرن بأيّ غطاء.

كنّ يعانين من داء البلاغرا والديزنطاريا والزهري وسوء التغذية والسل، ومن أمراض معدية وغير معدية، وكنّ يُجبن عن أسئلة السيد «فيرناندو» بأصواتهنّ الضعيفة، عندما دخل أول قاعة أخذته إليها «لا ثاباتونيس». عندما ذهب إلى القاعة الثانية الملاصقة للقاعة السابقة توقّف الطبيب مشدوهاً.

كلّ مريضتين على فراشٍ واحد على الأرض أو على سرير ذي نوابض بدون فراش.

- كم عدد المريضات هنا؟

لم تعرف «لا ثاباتونيس» الإجابة.

- يختلف العدد من يوم إلى آخر يا دكتور.

- وكيف ذلك؟

- يموتُ البعض، والبعض الآخر يبقى.

لامبالاة «لا ثاباتونيس» كانت مؤشراً على وضع المكان الذي اختلط فيه الأنين مع السعال.

- من يرعاهن؟

- مات الطبيب قبل أسبوع.

- أعرف ذلك، لكن لا بدّ أن هنالك من يراعاهن، أليس كذلك؟

- هنالك موظفتان هناك، في غرفة المراقبة.

أشارت «لا ثاباتونيس» إلى الشبك الحديدي الذي يغطّي باباً في آخر القاعة الثانية.

- أريد رؤيتهنّ حالاً.

كان هنالك غرفة صغيرة وراء القضبان، فيها منضدة وكريسيان وسرير فحص، جلست فيها الموظفتان تلعبان الورق، ولم يكن لديهن علمٌ بوصول الطبيب.

- افتحوا هذا الباب.

صرخة السيد «فيرناندو» جعلتهما تتركان ورق اللعب على المنضدة. لم تقوما بإخفائه، وقفتا وأخذت إحداهما كومةً من المفاتيح ونفّذت أمر الطبيب.

- هل لي أن أعرف ماذا تفعلان؟

باستغراب، نظرت الموظفتان إحداهما إلى الأخرى.

- لا شيء.

الموظفة التي فتحت الباب قالت «لا شيء»، وأضافت الأخرى إنها قدّمتا الطعام إلى السجينات.

- وليس لديكما عملٌ آخر؟ هل تعتبران نفسيكما ممرّضتين؟

- نحن لسنا ممرّضتين.

تناهى إليهم صوت ضحكاتٍ آتية من الساحة، ومن زجاج النافذة سمعوا صوتاً عالي الطبقة يغني أغنية «لا تارانتولا»<sup>(1)</sup>

---

(1) أغنية «الرتلاء» وهو عنكبوت أسود سام. ترجمت الأغنية بتصرّف للمحافظة على جوّها الساخر وقافيتها. الأغنية على الرمز QR.

بغیضة هذه الحشرة

لا تقتلها حجرة

لا تقتلها عصاي

كان يوماً بارداً وعاصفاً، ولكن الشمس كانت مشرقة. تفاجأ الطبيب بإحساس السعادة الذي حمله إليه النسيم.

الرقص<sup>(1)</sup> هو دواي

ملعونة العنكبوت

التي قرصت قفائي

انتبهت «لا ثاباتونيس» إلى دهشته فاقتربت من النافذة.

- هكذا يمرّرن الوقت، البعض يغني والبعض يرقص، هل يزعجك الضجيج يا دكتور؟

- يا إلهي، من غير ريب لا.

- ألا تريدني أن أسكتهن؟

- ما أريده هو شراشف نظيفة والمزيد من الأغذية.

- لا أعرف إن كان هذا ممكناً.

ولكن تبين أنه ممكن. تمكّن الدكتور «أورتيغا» من الحصول على شراشف نظيفة، وأغذية كافية لكل المريضات. كما طالب بتعيين مُساعدة صاحبة خبرة، بعد أن أخبرته «لا ثاباتونيس» أن الموظفتين اللتين كانتا تلعبان الورق لا تعرفان شيئاً من التمريض، وأنها تعملان هناك لمجرد أن

---

(1) كان الناس يظنون في السابق أن قرصة الرتيلاء تسبب مرضاً اسمه «هوس الرقص».

هذه المناوبة أوكلت إليهما، وستبقيان فيها مدة شهر، ريثما ينتهي الدور الذي تلتزم به كل موظفات السجن.

تقتصر وظيفتهما على إطعام المريضات والسجينات المعاقبات في زنازين الحبس الانفرادي في الطابق الأسفل، عند نهاية الدّرج الذي عند واحدة من زوايا غرفة المراقبة.

- ينبغي أن نبحث عن متطوعة من السجينات يا دكتور.

- ابحثنّ عنها إذن.

كان عليهن أن يبحثن عن متطوعة من السجينات لأن «لا ثاباتونيس» توقعت أنّه ليس بين الموظفات من ترغبُ في التطوع للعمل ممرضة. وفي مساء اليوم نفسه، جاءت مُساعدةٌ وقَدّمت نفسها للعمل متطوعةً للتمريض، وقالت للدكتور «أورتيغا» إنّ اسمها «سولي».

- في خدمتك.

قالت له إنّ اسمها «سولي»، وأنها في خدمته وأنها قابلة، كما قالت إنّها كانت تساعد الطبيب في كلّ ما يحتاج إليه في قريتها «بينياراندا دي براكامونتي» في «سالامانكا». ولكن «سولي» لم تأت وحدها، على خلاف ما توقّعت «لا ثاباتونيس». جاءت معها موظفةٌ أعربت عن رغبتها في العمل مع الدكتور «أورتيغا».

لم تكن تلك الموظفة إلا «ميرثيديس»، وقد ثبتت الدبابيس في شعرها قبل أن تدخل لتتكلّم مع السيّد «فيرناندو».

- ليس لديّ خبرة يا دكتور، لكنّ زوجي كان ممرضاً ورأيتّه وهو يعطي الكثير من الحُقن.

ضعفُ شخصيّة «ميرثيديس» دفعها إلى اتّخاذ هذا القرار. كانت تعرف أنّها لن تتمكن من فرض سلطتها عندما سألت عن صاحبة الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه «أورتينسيا». كانت تعرف ذلك بيقين لا



يخالطه أيّ شكّ عندما التفتت وشعرت بنظرات السجينات تنغرز في ظهرها كالسّهام. آلتها الضحكات وكأنها جراحٌ مفتوحة، وسالت الدموع من عينيها. ستُطرَدُ قريباً إذا ظلّت تتصرّف بهذه الطريقة. ولذلك عندما سمعت أنّ «لا ثاباتونيس» تبحث عن متطوّعات للعيادة فكّرت في أنّ العمل مع المريضات قد يحول دون خسارتها وظيفتها.

سرعان ما قدّر السيّد «فيرناندو» قيمة المتطوّعات، فبفضل طاقة المرأتين تحسّن مظهر المريضات وصرن أقلّ إثارةً للأسى. تمكّنتا وحدهما من تنظيم قاعتي العيادة متّبعات تعليمات الطّبيب. وضعتا المريضات المصابات بأمراض مُعدية في القاعة الأولى، ووضعنا بقية المريضات في القاعة الأخرى. حمّمتا المريضات وسرّحتاهنّ شعورهنّ وأعطتا المريضات اللواتي يسعلن مناديل نظيفة صنعتها من الشراشف القديمة التي أمر السيّد «فيرناندو» بالتخلّص منها.

الموظّفتان اللتان كانتا تلعبان الورق، توقّفتا عن اللعب. وكلّما أعطى الطبيب المتطوعتين تعليماته كانتا تنظران إليهن باحتقار، مرتابتين من ثقته بهنّ. كانتا تتناوبان على التجوّل في الممر لحراسة السجينات، وللمراقبة «سولي» و«ميرثيديس». لم تكن الحارستان ترفعان عيونهما عنهما إلا مرّة واحدة في اليوم، عندما تنزلان إلى زنازين العقاب. أخذ الطّعام إلى سجيناتٍ لا يأكلن شيئاً سوى القليل من العصيدة المُنّنة ليس بالأمر السهل. لذلك، فلمّا كانت الحارستان تهّمان ذات صباح بإنزال الطّعام وهما تشكّيان من هذا الواجب، عرضت عليهما «ميرثيديس» أن تنوبَ عنهما، فقَبِلتا عرض «ميرثيديس» المستجدة وتنازلتا لها بكلّ سعادة عن هذه المهمة البغيضة، وتنازلتا عنها إلى الأبد.

إلى الأبد، أو حتّى تملّ من هذه الخدمة التي تمقتها كلّ السجّانات. «ميرثيديس» أخذت «سولي» معها. حملت القابلة سلّة الخبز وقدر الحساء الذي ترفض السجينات تناوله، لأنّه مرّق فاترٌ ومقرّفٌ تطفو على سطحه

القذارة. كانت «سولي» تناولهنّ الجوع وهي تملأ أنيتهنّ، وتعطينهن السلوى على هيئة قطعة خبز. كانت «ميرثيديس» تفتح أبواب الزنازين الحديدية وتعطي مكانس للسجينات. قلقّت عندما رأت «توماسا» جالسةً على الحصيرة، تتصوّر جوعاً، وجلدها مغطى بتقرّحات الصّقيع، لا تقوى على النهوض لكنس زنزانتها، وتحلّق إلى سلّة الخبز.

اقشعرت «ميرثيديس» وسألتها:

- منذ متى وأنت هنا؟

- لم أكن أعدّ الأيام.

القابلة تعرف. ذكرت «ميرثيديس» بيوم عيد الميلاد وإصبع الطفل يسوع.

- عاقبوها بالحبس الانفراديّ ثلاثة أشهر، مضى عليها شهرٌ تقريباً.

- اكسي أنت الزنّانة يا «سولي».

عادت بعدئذٍ إلى العيادة عازمةً على الحديث مع الدكتور «أورتيغا». عادت عازمةً على الحيلولة دون موت «توماسا».



- أصابتها تقرّحات الصَّقيع في ساقها وركبتها. حتى وجهها مصابٌ بالتقرّحات. أنفها يشبه حبة الفلفل تماماً.

- ماذا قلت للطبيب؟

- طلبت منه أن ينزل لرؤيتها.

- وهل نزل؟

- لا. لكنه رآها بعد أن وصفتُ له وضعها. قلت له إنها باتت جلدأً على عظم يا دكتور، وطلبت منه أن ينزل لرؤيتها حتى لا يأتوا بها إليه ليعلن وفاتها بنفسه، قلت له إنها تعاني من اليرقان حتى إن وجهها صار أشبه بعَلَمِ القوميين: ضامرٌ وأصفر عند الأطراف وأحمر كالفلفل في المنتصف.

- هذا ما قلتَه حرفياً؟

- حرفياً ما عدا التشبيه بالعلم.

- العلم بالعكس. الأصفر في المنتصف.

- لا فرق.

- وماذا قال؟

- لم يقل شيئاً.

استدار حول نفسه نصف دورة وأمر الحارسة المدنية المناوبة أن تجلب «توماسا» إلى الأعلى. وحالما رآها دهنَ مرهماً على تقرّحات وجهها

التي كانت توشك أن تنفجر، وعلى تقرّحات يديها التي كانت قد انفجرت وبدت كأنها أفواه تصرخ، وقال إنّ هذه المرأة تعاني من نقص الفيتامينات وأمر بإطعامها وإخراجها إلى الهواء الطلق. ذهبت الحارسة المدنية لتطلب الإذن من «لا بينينو»، وعادت لتخبره بأن «لا بينينو» قالت إنّه يمكن إخراجها إلى الساحة مدة عشر دقائق في اليوم، أمّا الأكل فقد أكلت بما فيه الكفاية. من الواضح أنّها لم تنسَ حادثة الإصبع.

عشر دقائق. تنازلت الأخت «ماريا دي لوس سيراфинيس» عن عشر دقائق لـ«توماسا». سمحت بأن يخرجوها إلى الساحة كل صباح عشر دقائق، وأن تخرج قبل بقية السجينات بساعة.

- سيخرجونها غداً إلى الشمس، وسأطعمها أنا حساءً بأنبوبٍ سأمرره من القفل.

- احذري أن يراك أحد.

- لا تقلقي، لن يراني أحد.

لم يرَ أحدٌ «سولي» وهي تملأُ علبةً بحصّتين من الحساء الذي يقدمونه إلى المريضات. ولم يرَها أحدٌ وهي تأخذ أنبوباً من العيادة. ولم يرَ تَبَ أحدٌ عندما قالت إنّ أرضية ممر الزنازين وسخة وتبرّعت بتنظيفها، كانت قد أخفت طعام «توماسا» في قعر الدلو المعدني الذي كانت تحمله. دقّت على الباب الحديديّ ثلاث دقات، وهمست من خلال القفل طالبةً من «توماسا» أن تقترب. ثم أدخلت أحد طرفي الأنبوب في علبة الحساء ومرّرت الطرف الثاني من فتحة المفتاح، ورفعت العلبة. رأت «توماسا» طرف الأنبوب المطاطي الذي ظهر أمامها، ثم رأت نقطة تسقط منه. ركعت، ورفعت وجهها وقربت فمها، ومصّت، وكأنّها عجلٌ يرضع من ثدي أمّه.

وكما نظّفت «سولي» أرضية الممرّ اليوم، ستنظفها غداً وفي كلّ الأيام المتبقية من عقاب «توماسا». وهكذا بدأت «توماسا» تكسب وزناً.

السجّانات اللواتي يحرسن «توماسا» انتبهن في أثناء جولتهن الصباحية لتغيّر مظهرها، فتحدثن مستغربات:  
- يا للغرابة، إنها تزداد بدانة!  
- صحيح.

وعندما سمعتهن «سولي» زادت من حيرتهن:  
- ليست بدينة، لكنها منفوخة، لأنّها مصابة بنقص الفيتامينات.  
كانت «أورتينسيا» و«ريمي» و«إليرا» يرينها وهي تتشمّس جالسة على المقعد، ورأين بأعينهنّ ما كانت تنقله إليهنّ «سولي» كلّ ليلة في اجتماعات الحزب:  
- يعالجها الطبيب كل يوم. زال العَلَمُ القوميّ عن وجهها.  
- هذا يعني أنّها تتحصّن.

كنّ يراقبن رفيقتهنّ من وراء الزجاج، ويرافقن وحدتها طوال الدقائق العشرة ويشاركنها من بعيدٍ راحتها برؤية الشمس. يومياً، الثلاثة كنّ ينظرن من النافذة معاً، حتى يوم الحكم على «أورتينسيا».  
- يبدو عليها أنّها لا تبالي بكلّ ما يجري. صحيح؟  
- يبدو ذلك. لا يهتمّ ما يحدث، ولا ما لا يحدث، ولا ما قد حدث معها. لا بدّ أنّ الكثير قد مرّ على رأسها.  
حدثتهنّ «إليرا» بشأن الإشاعات التي تتناقلها السجينات، ولكن «أورتينسيا» و«ريمي» لا يصدّقن الاتّهامات الموجهة إلى «توماسا».  
- لا أحسبها قادرةً على قتل إنسان.

- كما أنّها ليست من «كاستيل بلانكو». فهي من «لوس سانتوس دي ميمونة» وهي قريةٌ قريبةٌ من «ثافرا»<sup>(1)</sup>. هذا ما قالت له لي مرّة عندما

---

(1) «كاستيل بلانكو» و«لوس سانتوس دي ميمونة» و«دون بينيتو» هي ثلاث قرى في إكستريمادورا.

قلتُ لها إنني زرت قرية «دون بينيتو» سنة ست وثلاثين. «إلبيرا» أيضاً لم تصدّق أنّه من الممكن لـ«توماسا» أن تشارك في مذبحه، لكنها أضافت إن السجينات قُلنَ إثمها كانت في «كاستيل بلانكو» في آخر يوم من شهر كانون الأوّل (ديسمبر) سنة ألف وتسعمائة وإحدى وثلاثين، في الإضراب الذي دعا إليه «الاتّحاد الوطني للعمال الزراعيين». وبحسب ما تروي السجينات فإنّ كلّ من كانوا هناك تسلّحوا بالسكاكين والمناجل وذبحوا أربعة من عناصر الحرس المدنيّ الذين حاولوا أن يفرّقوا المظاهرة.

ويُقال أيضاً إنهم قطعوا أطرافهم وأن النساء رقصن على جثث الحرس الأربعة. لم تصدّق أيّةٌ منهن ما رَوته «إلبيرا». نظرت النساء الثلاث إلى «توماسا» بسخطٍ من النافذة.

- قد تكون حادثة «كاستيل بلانكو» صحيحة، لكن «توماسا» لم تكن هناك بكلّ تأكيد.

لاحقاً، عندما يحين دورهنّ في الخروج إلى السّاحة، يتوجّهن دون كلام إلى المقعد الذي تجلس عليه «توماسا» كلّ يوم قبالتهنّ. يشتغلن بالتطريز في المكان الذي غادرتّه منذ قليل، ويرفضن الشائعات التي تقول إنّ «توماسا» كانت في «كاستيل بلانكو». لا. «توماسا» لم تكن في «كاستيل بلانكو».



المرأة التي ستموت باتت تعرف الحُكم الذي حكموا به عليها. عادت تَوَّأ من المحكمة الرقم ثمانية. عُقدت جلسة النظر في قضيتها في القاعة الأولى أمام محكمة عسكرية، في إجراء مُختصر وعاجل إلى أبعد حدّ. جلست «أورتينسيا» لتكتب في دفترها الأزرق الجديد. افتتحت الكتابة على الصّفحة الأولى بقلم رصاصٍ ذاوٍ يتجاوز قليلاً طولَ إبهامها. أظفَع الآلام هو العجز عن مشاركة الألم. شدّت «أورتينسيا» رأس قلمها الممضوغ، وكتبت أنّ المعاناة كانت ستكون أهون لو كان في إمكانها الحديث مع «فيلبي»، لو كان في إمكانها أن تخبره بأنهم حكموا عليها بالإعدام، هي ورفيقاتها الاثنتا عشرة المحكومات في نفس القضية. كانت تكتب بيدها اليمنى وتثبت الدفتر وتُمسّد الورق باليسرى. ظلّ قرطاهما يتراقصان فوق السطور التي تكتبها. تحاول ألا تخرج عن الخطّ المرسوم، ولكن الأمر ليس سهلاً.

تذكرت صيفَ سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين عندما تعلّمت الكتابة. علّمها «الجاكيّتُ الأسود» في «كاسا غراندي دي لاس تريس كروثيس» قرب «دون بينيتو». كانت «إكستريما دورا» قد سقطت كلّها في يد القوميين، ما عدا جيب «لا سيرينا». قاوموا في «كاسا غراندي» وعلّمها «الجاكيّتُ الأسود» الكتابة على الجدار. كان الرجال ينامون في الطابق العلويّ، وفي الصباح كانوا يتبولون من أعلى الدّرج. «أورتينسيا» هي التي كتبت على الجدار، بحروف كبيرة تعلّمها تَوَّأ: «من يتبول من أعلى الدّرج سيُعتَبَر رفيقٌ خنزيرٌ»<sup>(1)</sup>.

(1) في الإسبانية تشبيه المرء بالخنزير يعني أنّه قذر لا يعتني بنظافته.

وهي التي سجّلت على الجدار أنّ الكتيبة رقم خمسة وصلت إلى «كاسا غراندي» يوم الثامن عشر من تمّوز (يوليو) سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين، وكتبت على الجدار أسماء مقاتلي الكتيبة: «بيدرو غوميث»، «أنيثيو إيسيتييث»، «كارلوس بينادو»، «إستريا لوبيث»، «باتريشيا روبيرا»، «إلوي مينينديث». كتبت اثني عشر اسماً على الجدار. كتبت لأنّها صارت تجيد الكتابة. تعلّمت توقيعها في البداية، ثم تعلّمت بقية الأحرف. كان «فيلبي» يضحك منها:

- كان عليك أن تتعلّمي الكتابة وأنّ طفلة.

- ويمكن للمرء أيضاً أن يتعلّم بعد الكِبَر. سترى ما سأفعله عندما يصبح لديّ دفتر.

- سأشتري لك كل الدفاتر التي تريدونها.

فطلبت منه حينئذٍ أن يشتري لها دفترًا بغلافٍ أزرق كتلك الدفاتر التي تستخدمها «بيبيتا» في المدرسة. دأبت قرطبيها، ثم عادت إلى الورق. كتبت إنّها تودُّ لو كانت مع «فيلبي»، وأنّها تتمنى لو تلدُ الصّغير قبل المصادقة على الحُكم، لأنّها تعرف أنّها ستموت ولا تريد لابنها أن يموت معها. كلّ رفيقاتها يعرفن أن «أورتينسيا» ستموت. «سولي» أخبرت «توماسا» وهي تُدخل الأنبوب في قفْل زنانتها الانفراديّة:

- حكموا عليهن جميعاً.

- وعلى «أورتينسيا» أيضاً؟

- وعليها هي أيضاً. ثلاث عشرة ستأخذهن «لا بيبا». لا بدّ أنّها كانت جائعة اليوم.

- ثلاث عشرة، مثل «وردات» سنة تسع وثلاثين.

نعم، مثل «الثلاث عشرة وردة».



تذكرت «توماسا» ضحكة «خوليتا كونيسا» التي كانت ترن كالجرس، و«بلانكيثا بريساك» عندما كانت تعزف على آلة الأورغان في كنيسة السجن، وتذكرت نَمش «مارتينا بارروسو»<sup>(1)</sup>. داعبت في جيبيها الإبزيم<sup>(2)</sup> الأسود الذي احتفظت به منذ ليلة الرابع من آب (أغسطس) سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين. كان الإبزيم من حزام «خواكينا». أرادت «توماسا» أن تعطيه «ريمي» لأنها لم تكن تملك مثله. ولكن «ريمي» لم تقبل.

- احتفظي أنت به.

- حسناً سأحتفظ به أنا، لكنه لي ولك.

- ابتلعي سريعاً يا «توماسا»، فالحساء لا ينزل، وسيمسكون بي.

- لا أرغب في الأكل اليوم.

سحبت «سولي» الأنبوب، أمّا «توماسا» فالتجأت إلى الزاوية. جلست على الأرض واحتضنت ركبتيها ورفضت أن تبكي. ترفض البكاء، لن يتمكنوا من كسر صمودها. ينبغي لها ألا تبكي لكنها تخشى ألا ترى «أورتينسيا» مرةً أخرى. فهي تعرف، كما تعرف كل سجينات المهجع الثاني يميناً، أنّ الحكم قد يُنفذ خلال يومين. يعرفن الإجراءات. سيصادق القاضي العسكري على الحكم، وسيُنفذ حال توقيع «الخينير اليسمو» عليه.

«الخينير اليسمو» غمغمت «توماسا» اسمه وهي تركز على أسنانها واحتضنت ركبتيها بحق. عندما كان في أفريقيا كانوا يسمونه «الخينير اليتو»<sup>(3)</sup>،

(1) «خوليتا كونيسا» و«بلانكيثا بريساك» و«مارتينا بارروسو» كن من الثلاث عشرة ورده.

(2) عُرْوَةٌ مَعْدِنِيَّةٌ في أحد طرفيها لسان، تُوصَل بالحزام لتثبت طرف الحزام الآخر على الوسط.

(3) إضافة «ايتو» إلى أواخر الأسماء في اللغة الإسبانية يعني التصغير، وقد يحتمل معنى تحقيراً، أيّ أنه كان يُعرف باسم «الجنرال الصغير».

على الرغم من أنه قد عُيِّنَ في الأوّل من تشرين الأوّل (أكتوبر) سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين رئيساً للدولة والجنرال الأكبر (الخينيراليسمو) للجيش والبحريّة والجويّة. تخلص سريعاً من لقب «الخينيراليتو».

يُقال إنّ يده لا ترتعش عندما يوقع أحكام الإعدام، ويُقال أيضاً إنّ حكم إعدام «الثلاث عشرة وردة» الموقَّع وصل يوم الثاني عشر من آب (أغسطس)، أي بعد أن مضى عليهن أسبوعٌ تحت التراب. لا أحد يعرف متى سيصل. داعبت «توماسا» الإبزيم الأسود. كانت «خواكينا» قد قالت لإحدى رفيقاتها وهي تنزع حلقات حزامها «وَزَّعي حلقاته على أفضل الرفيقات، وَزَّعيها حتى تنفد».

وَزَّعت الرفيقة الحلقات السوداء. كانت «خواكينا» جميلة جداً، كان لها شعرٌ ناعمٌ وعينان سوداوان وفمٌ كبير. أعطوا «توماسا» حلقةً من الحزام. لها هي. وبعد أقلّ من يومين أعدموهنّ رمياً بالرصاص. قالوا إنهم أعدموهنّ ليكنّ عبرةً لمن يعتبر. اتهموهنّ باغتيال القائد «إسحاق غابالدون» الذي كان مفتش الشرطة العسكريّة في الإقليم الأوّل، والمسؤول عن «أرشفيف الماسونية والشيوعية». كان في سيارةٍ مع ابنته ذات السبعة عشر عاماً. ماتت البنت والأب والسائق في إطلاق نار حدث على طريق «إكستريبادورا» بالقرب من «تالابيرا»، عندما كانوا متجهين إلى مدريد. ثلاثة قتلى، وأرادوا عشرين قتيلاً مقابل كل واحد من قتلهم: حاكموا وأدانوا ستين شاباً من «الشبيبة الاشتراكية الموحّدة» بتهمة الاعتداء على «الحركة الوطنية المضفّرة».

أرادوهنّ عبرةً وأخذوهن بعد يومين إلى السور. هنالك سجناء عاشوا شهوراً في انتظار إعدامهم، ومنهم من انتظر سنوات. مثلها. فقد لبثت أكثر من سنتين في سجن «أوليبينثا» وخطرُ الإعدام يحومُ حولها في كلّ لحظة، حتى جاء تخفيفُ حكمها وجاءوا بها إلى هنا. ربما يخفون حكم «أورتينسيا» أيضاً، ربما لا، لا أحد يعرف. كما لا يعرف أحدٌ لماذا

حكموا على «خواكينا»، مع أنها كانت محبوسة أصلاً في «لاس بيتتاس» عندما اغتيل «غابالدون».

كانت في السجن مع اثنتين من أخواتها. حاكموهن وأدانوهن بتهمة الانتماء إلى الشيبة. الثلاثة كُنَّ في «لاس بيتتاس»، ولكن لم يُسمح لهن قطّ بالإقامة معاً في نفس الزنزانة. حكموا على «خواكينا» مرتين. حكموها بالإعدام مرتين. نجت في المرة الأولى بعد أن خففوا الإعدام إلى حكمٍ بالسجن عشرين عاماً. أمّا حكمُ الإعدام الثاني فنَفَذوه خلال يومين.

بضع سنوات، بضعة أسابيع، بضعة شهور، بضعة أيام.

بضعة أيام، ربّما يومان، وربّما ثلاثة.

مكثت «ريمي» و«إلبيرا» إلى جوار «أورتينسيا» مدّعات الهدوء. لن تعطي «إلبيرا» دروس محو الأمية إلا عندما تعطيها «أورتينسيا». أمّا «ريمي» فلن تذهب إلى مشغل الخياطة حتى لا تترك رفيقتها وحيدة لحظة واحدة. توقفت النساء الثلاثة عن الوقوف عند النافذة لرؤية «توماسا».

وستفتقد «توماسا» رؤوسهن الملتصقة بزجاج النافذة.





- يا للشؤم، أن نكون ثلاث عشرة في القضية، شؤم. ثلاثة عشر، هذا الرقم المنحوس، وعدد الوردات الصغيرات.

توقفت «أورتينسيا» عن الكتابة ووضعت طرف القلم في فمها.  
- لا تعذبي نفسك بالتفكير في الأمري «أورتينسيا».

ولكن «ريمي» لا تكف عن التفكير في الصغيرات الثلاث عشرة حتى إن طلبت من «أورتينسيا» ألا تفكر فيهن. أخذوهن إلى كنيسة السجن في منتصف الليلة التي تلت يوم محاكمتهن. كان ذلك في الرابع من آب (أغسطس). يومئذ، بعد أن انتظرن إلى الساعة الثانية عشرة، قالت «أنيتا»: يمكننا أن ننام الآن. ولكن «أنيتا» لم تنم، أما «بيكتوريا» و«مارتينا» فاضطروا إلى إيقاظهما لكي يأخذوهما. ظلت «ريمي» تفكر في ذلك اليوم الرابع من آب.

تذكرت شحوب وجه السجّانة التي جاءت لتأخذهن، والرعب المهيمن على جسدها المغطى بالرداء الأزرق. تذكرت أن «بيكتوريا» راحت تبكي عندما أيقظوها. عانقت إحدى رفيقاتها وبكت فجيعة أمها: ابنها الكبير مات منذ أيام في مركز الشرطة، وهي و«غريغوريو» الابنان الوحيدان المتبقيان لأما سيموتان عند الفجر. ظلت تكرر وسط الدموع «خوان أولاً، والآن أنا وغويتو»<sup>(1)</sup>.

(1) «غويتو» هو تدليل اسم «غريغوريو».

وضعت «أورتينسيا» الدفتر الأزرق والقلم تحت حصيرتها، وأخرجت من حقيبة الخياطة ثوبَ رضيعٍ ووضعتَه على بطنها لثَّريه لرفيقاتها.

- لقد شارفتِ على إنهائه

- قد يبدو كذلك، ولكن ما زال عليّ أن أطرّز المزيد من الأسطر بغرزة الصليب لكي تبرز الكسرات. انظري.

نظرت الصغيرة ذات الشعر الأحمر إلى الثوب، لكنها لم تجرؤ على النظر إلى «أورتينسيا». لم تنظر في عينيها منذ عادت من المحكمة. لا تجرؤ على النظر إليها، ولا تدري لماذا.

ربما تخشى أن تكتشف «أورتينسيا» خوفها من الموت. أو ربما تخشى من أن تكتشفَ هي نظرةَ الموت في عيني المرأة التي ستموت. وربما يمنعها الخجل، لأنها ببساطة تخجل من النظر إليها. رفعت بصرها عن ثوب الرضيع وجلست وقد أدارت ظهرها لـ «أورتينسيا». أخرجت «ريمي» حقيبة خياطتها وجلست تنسج منديلاً أبيض.

- «إلبريتا» بنيتي، يكاد الصّوف ينفد. اذهبي إلى المقصف واشتري كرة صوف بيضاء، هيا.

ولما كانت تمشي إلى المقصف لمست «إلبريتا» رأسها وفكرت أنّ السبب هو الخجل. نعم، يصيبها الخجل عندما تنظر إلى «أورتينسيا». ليس لها الحق في اكتشاف فحوى عينيها. لم تنظر أيضاً إلى عيني «خوليتا كونيسا»، ولا إلى عيني «بيرتوديس غونثاليث». لم تتجرأ على النظر إلى عيون أيٍّ من الصغيرات الثلاث عشرة. مشت وهي تنظر إلى الأرض. المحاكمات السريعة خطيرة، لأنها تنتهي دائماً بأحكام طويلة.

فرحتُ لأنَّ محكمتها لم تنعقد بعد، ولمست رأسها وتذكرت «بيرتوديس غونثاليت» لأنَّهم حلَّقوا لها شعرها أيضاً، في مركز شرطة «خورخي خوان» قبل أن يأتوا بها إلى سجن «لاس بيتناس». كان اسم حبيبها «بيثيتي» وكان معها في نفس القضية، وكان واحداً من ستين شخصاً حُكِمَ عليهم بالإعدام. تَمَنَّت «بيرتوديس» أن تراه أمام فصيل الإعدام. كانت تريد أن تودِّعه. ولكنهم لم يسمحوا لها بذلك. ولم تتمكن «بيكتوريا» من رؤية أخيها «غريغوريو».

عادت «إليرا» وكرة الصوف في يدها وجلست إلى جوار رفيقاتها وأدارت ظهرها لـ «أورتينسيا»، وظلَّت تفكِّر في الشباب الستين الذين طلبوا أن يُعدموا معاً. كانوا يريدون أن يتوادعوا. تَمَنَّوا لو يلتقون مرةً أخيرة. أخذوا الرجال عند الساعة السادسة صباحاً إلى مقبرة الشرق وماتوا على السور عند الساعة السادسة. أمَّا النساء فأخذوهنَّ عند السادسة والنصف.

- متى يصير القمر بدرًا؟

- بعد غد.

بعد غد. احتضنت «أورتينسيا» بطنها المتنفخ بكلتا يديها. لعلَّه يأتي قبل فوات الوقت. بعد غد سيكون القمر بدرًا.

- هذا الطفل لا يريد أن يرى العالم.

- كم مضى على موعد ولادتك؟

- مضت عشرة أيام. استرحهم محامي الدفاع.

نعم، نقيب الجيش الذي اضطلع بدور محامي الدفاع لم يطلب شيئاً سوى الرِّحمة.

- طلب الرّحمة من أجل الطّفل. أرسلت أختي رسالة استرحام إلى «فرانكو»، يا للصغيرة البريئة. تقول أختي إنّها سمعت أنهم يردّون أحياناً خلال ثلاثة أيام. فلنتنظر ونرّ.

«ريمي» و«إليرا» تعرفان أن ثلاثة أيام دهرٌ طويل. تعرفان ذلك جيداً، فقد كُنّ في سجن «لاس بيتاس» يوم الثالث من آب (أغسطس) سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين، عندما عادت الوردات الثلاث عشرة من المحكمة رقم ثمانية. ما زلن يذكرن أنّ واحدةً منهنّ ارتدت جوربها قبل أن تذهب إلى الكنيسة، وقامت أخرى بقصّ ضفائرها. طلبت أن يعطوا ضفائرها لأُمّها، ولكنّ الضفائر لم تصل إلى أُمّها قطّ. ثلاثة أيام دهرٌ طويل.

- لا أعرف إن كان الاسترحام سيجدي نفعاً. يا للصغيرة، كتبت إلى «فرانكو» شخصياً.

خشيت «ريمي» و«إليرا» من ألا يفيد الاسترحام في شيء، كما لم يستفيدوا من جمع توابع أمّهات الوردات الثلاث عشرة ولا طلبات الاسترحام التي كتبوها راجين الرأفة. لا. لم يُفد في شيء توقيع «دولوريس كونيسا» الذي ذيلت به الرسالة يوم الخامس من آب، سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين، سنة التصرّ، دون أن تعرف حينئذ أن ابنتها كانت قد أُعدمت. وجّهت الرسالة إلى فخامة السيد الجنرال فرانيسكو فرانكو رئيس الدولة الإسبانيّة، وأرفقت معها الاسترحام الذي جمعت فيه توابع أهالي شارع «غاليريا دي روبليس». خمسة وثلاثون توقيعاً مع رسالة كتبتها أمّ.

رّوست الاسترحام بأن خاطبت المرسل إليه بكلمة «السيد» وبعد الفاصلة كتبت: أنا الموقّعة أدناه. أضافت اسمها وعنوانها وذكرت أنها أرملة، وأنّها أمّ المتّهمة «خوليا كونيسا» التي حكمت عليها محاكم هذا



الإقليم بالإعدام. توسّلت إليه كأمّ حتى لا يُنفذ الحكم. كتبت أن «الحكم فادح» وأنّ «تواقيع هؤلاء الأهالي والصناعيين تدلّ على أن الحكم مُجحف». توسّلت بوصفها أمّاً. وقالت: «في هذه اللحظات المريرة، ألتمس المساعدة منك يا صاحب الفخامة والرأفة اللامتناهية، وأدعو الله أن يهبك العمر الطويل حتى تقودَ إسبانيا بيدك لتصبح الأمة العظيمة التي يحذو حذوها العالم كلّهُ».

- إن كانَ يردُّ حقاً خلال ثلاثة أيام، فلربما تصله الرسالة في موعدها. متى يصير القمر بدرًا؟

ثلاثة أيام دهرٌ طويل. تنظر كلّ من «ريمي» و«إليرا» إحداهما إلى الأخرى دون أن تردّا على «أورتينسيا». تعرفان أن الأيام الثلاثة طويلة. داعبت «إليرا» إبنزيمَ حزام «خواكينا».

داعبت هديتها، ونهضت عن حصيرتها. أخذت تبحث في حقيبتها، وانحنت عليها مُتظاهرةً بأنها تضع شيئاً في داخلها لكي لا تراها «أورتينسيا» وهي تبكي وتذكر فجر اليوم الخامس من آب (أغسطس). تذكره جيداً. رأت الوردات الثلاث عشرة من النافذة وهن يقطعن الساحة. خرجن من الكنيسة مثنى مثنى دون أن يطأطن رؤوسهنّ، ورافق كل اثنتين منهن ثلاثة من الحرس المدني. أمروهن بالصعود إلى شاحنات. لم تُخفض أيّة منهن رأسها، وانطلقت بعضهن بالغناء. «خوليتا كونيسا» كانت تغني دائماً.

كلّ توسّلات السيدة «دولوريس» لم تُفد في شيء، ولم يبقَ لها أيّ سلوى سوى الرسائل التي كانت ابنتها تكتبها لها من مُحبسها في «لاس بيتتاس» في المهجع الثاني يميناً. كتبت «خوليتا» يوم وفاتها الرسالة التي أثارت في قلب أمها أكبر الأحزان. أكثر الرسائل حزناً. الأخيرة، والأقصر:

مدريد في الخامس من آب (أغسطس) 1939

أمي وإخوتي، أسألكم بكل حب وقوة ألا تبكوا ولو يوماً واحداً.  
ها أنا خارجة دون أن أبكي، اعتنوا بأمي، إنهم يقتلونني وأنا بريئة، لكنني  
أموت كما ينبغي للأبرياء أن يموتوا.

أمي، يا أمي الحبيبة، سألتحق بأختي وأبي في الحياة الآخرة، لكن  
لا تنسي أنهم قتلوني لأنني إنسانة شريفة.

وداعاً أمي العزيزة، أودّعك وداعاً أبدياً.

ابنتك التي لن تتمكن من تقبيلك ومعانقتك بعد الآن.

«خوليا كونيسا»

قبلائي للجميع، ولا أريدك أن تبكي لا أنت ولا رفيقائي، ولا  
تدعوا التاريخ يطمس اسمي.

لا تبكوا عليّ. كبحت «إليرا» نحيبها. وظلّت تُقلّب حقيبتها  
مُتظاهرةً بأنها ترتبها وراء ظهر «أورتينسيا» واستغرقت في تذكُر  
«خوليتا». تذكرها لكي لا يمحى اسمها.

لا، اسم «خوليتا كونيسا» لن يمحوه التاريخ.  
أبدأ.

\* \* \*

ريثما تصلُ المصادقة على الحكم، ستمضي السجينات الصباحات في الساحة وهنّ يحاولن مخادعة الحزن. أمّا في المساءات فتصبح المخادعة صعبة، لأنّ الليل يقترب، ويقترب موعد «الإخراج»، تقترب السّاعة التي يمكن أن تصل فيها السّجّانة ويدها قوائم الأسماء. تتساقط سعادة الصباحات عندما يحلّ المساء ومعه الخوف من صوت القوائم. ريثما يتحقّق التهديد سيكونُ هنالك اسمٌ واحدٌ لكلّ ما يجري في السجن: الانتظار.

- انظري إلى تسريحتها

- إنّها تسريحة «أرربيا إسبانيا»<sup>(1)</sup>.

رفعت «أورتينسيا» عينيها عن تطريزها ونظرت إلى تسريحة «لا ثاباتونيس»، و«ريمي» و«إليرا» تابعان سخريتهنّ:

- صار شكلها أسوأ

- تظنّ نفسها امرأةً أنيقة، لكنّها ستبقى قِرْدَةٌ ولو استحمت كل يوم.

كانت «لا ثاباتونيس» تتمشّى في الساحة متدثّرة بردائها الأزرق. كانت قد مشطت شعرها في تسريحة عالية ولوّنت شفّيتها بأحمر صارخ أكثر من اللزوم. اقتربت من النساء اللواتي كنّ ينظرن إليها:

(1) Arriba España: معناها «تحيا إسبانيا» وهو اسم لتسريحة شعرٍ عالية انتشرت في سنوات الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين.

- أرأيتِ فمها؟

- ستأتي لثَرِينَا العَلَمَ مرةً أخرى، سَتَرَيْنَ.

عندما وصلت السجّانة إلى المقعد، فرّقت بين شفّيتها لتبرّزَ من بينهما حَبَّةً من حلوى الليمون. لون الحلوى الأصفر يُشعّ وسط الشفتين الحمراوين. دارت حولهن نصف دورة وهي تتباهى بتسريحة «أرربا إسبانيا» وتمشّت في السّاحة باحثةً عن سجينات أخريات لثَرِيْنٍ نسختها المميّزة من العَلَمَ القوميّ. لم يتجاوب معها أحدٌ سوى الواشية التي ردّت على استعراضها بابتسامة.

- تظنّ هذه أنّها جميلة.

من الضرويّ كسرُ عنجھية السجّانة، وطردُ كربِ الانتظار، الذي يزيد من حدّته صمْتُ هذا الصباح المشمس والبارد من شباط (فبراير). يمكنهن التنفّس وسط هذا الاختناق ويمكنهنّ خداع الحزن. ممكن.

بدأت «إليرا» بالغناء:

اللعة على العنكبوت التي قرصتني

اقتربت منها السجينات وهنّ يحملن تطريزهنّ وسألنها:

- هل ستتمرنّ؟

- طبعاً.

تمرنّ، لأنّ التمرين كان ضرورياً.

نعم، تمرنّ، وسيقدم عرض ثارثويلا<sup>(1)</sup> من تأليف الموسيقيّ «خيمينيث» بعد أن يتدرّبن عليها جيّداً. سيعرضن مسرحيّة «لا

---

(1) شكّل موسيقيّ اشتهرت به إسبانيا وهو عملٌ مسرحيّ غنائي يتناول عادةً مواضيع فلكلورية يدور فيها الحوار بالكلام والغناء.

تيمبرانيكا»<sup>(1)</sup> في ساحة السّجن أمام السجينات وسيُمن بدعوة «أنتونييتا كولومي»<sup>(2)</sup>. ما زالت «إلبيرا» تحتفظ بكتيّب أصليّ مسرحيّة من تأليف «خوليان روميا» في نسخته الثالثة وزّعوه على كل طالبات مدرستها قبل أن تبدأ الحرب. كانت ستؤدّي دور «ماريا»، الجاحمة، الغجرية التي تقع في حب الكونت. معلّمة الموسيقى هي التي وزعت الأدوار. والآن، أعطت «إلبيرا» نفسها دور البطولة، وأعطت «ريمي» دور «غابرييل». «أورتينسيا» ستؤدّي دور «لا موروندا». ينبغي لهنّ أن يحفظن حوارات المسرحيّة كلّها في حال اضطررن إلى تبديل الأدوار. عليهنّ أن يكررن الأغاني واحدة واحدة. تدير «إلبيرا» التدريب:

- موروندا، ماذا أعددت لنا على العشاء؟

- سترون أيها السادة. وضعتُ الأررز الآن، وسيكون أوّل الأطباق. وضعتُ في الأررز المحار الذي أحضره إليّ من غرناطة هذا المساء. وشرائح من لحم الخنزير من «تريبيليث»، وفلفلًا ألدّ وأحلى من القطر. أما الطبق الرئيسي فسيكون خروفاً مشوياً مع البطاطا. تركت النساء المستمعات لـ «أورتينسيا» أعمالهن وأنصتن إلى الأطباق وقد سال لعابهنّ. رأت «إلبيرا» الجوع في أعينهن وكيف لعقت بعضهنّ شفاههن.

- حسناً، ستدرب على هذا لاحقاً. الآن دعونا ننتقل إلى «غابرييل».

سيغنين معاً لمساعدة «ريمي»، الأكثر خرافة في المجال الموسيقيّ.

بغیضة هذه الحشرة

لا تقتلها حجرة

(1) مسرحية غنائية عُرضت أوّل مرة سنة 1900 ألف موسيقاها الموسيقيّ «خيرونيمو خيمينيث» وأسماها على اسم بطلتها «ماريا لا تيمبرانيكا» أي ماريا الجاحمة.

(2) أنتونييتا كولومي ممثلة مشهورة من فترة الجمهورية الإسبانية.

لا تقتلها عصاي

تختبئ في كل زاوية

وقرصتها لا سعة كاوية

وقفت «إليرا» عند أذنها حتى تساعدتها على استرداد اللحن.  
ولكن «ريمي» تنشز. ولا تكفّ عن النظر إلى «لا ثاباتونيس».

هل قرصتني العنكبوت اللعينة؟

ولهذا انحفتُ وصرت كالسردينية؟

وعلى الرغم من جهود «إليرا» إلا أنّ صوت «ريمي» الأجشّ  
يرنّ كالزّعيق ويثير ضحك الآخرين. أطلقت «ريمي» زعقةً أخرى  
موجهةً إلى «لا ثاباتونيس»

- ستراك!

لا أخشى البرق ولا أخشى الرصاص

ولا أخشى شيرار الناس

ظلت «ريمي» تغني وحدها بعد أن انفلتت بقية المغنيات بالضحك:

وُلدتُ جميلةً كالديك الفصيح

وسأرى العنكبوت تذهب مع الريح

- لن ننجز شيئاً على هذا المنوال.

- فعلاً، تصيح كأنها دجاجةٌ تبيض.

- يا أمي، يا أم حياتي، أكاد أموت ضحكاً من ملامح الطّرب التي

تعلو وجهها.

- أداؤها ليس شيئاً إلى هذا الحدّ.

- تقولين هذا لأنّ قلبك طيبٌ ونبّتك صافية.

في تلك اللحظة، ظهرت «لا بينينو» عند الباب، وكمن يقرع جرساً فقد ضربت الشبك الحديديّ بالصليب المعدني المتدلّي من حزامها. انتبهت لها السجّانة فأعطتها ملاحظة. ومن آخر السّاحة توجّهت «لا ثاباونيس» بخطواتٍ بطيئة نحو المجموعة التي كانت تضحك. كفت «أورتينسيا» عن الضّحك عندما رأتها. نظرت إليها:

- امشي معي يا «أورتينسيا»، جاءتك رسالة من القضاة.

عاد الصمت ليخيّم على السّاحة.

عادت السجينات إلى التطرّيز.

وعاد كربُ الانتظار. وقبل أن تغادر «أورتينسيا» السّاحة نظرت إلى الأعلى. قطعة السّماء المحاطة بالأسوار كانت مطموسة كلّها بالغيوم.

عادت بعد بضع دقائق وتكلّمت بصوتٍ خفيضٍ مع «ريمي» و«إليرا». قالت إن الادّعاء العام العسكريّ قد صادق على كلّ الأحكام. كلّ الإعدامات ستُنَفَّذ عندما تصلهم الأحكام مُوقَّعة من رئيس الدولة. كل أحكام الإعدام ما عدا حكمها. سيُمهّلونها ريثما يُولد طفلها، وسيُعلّق إعدامها حتى ذلك الحين.

- اللعنة، هكذا لن يرغب الطفل في الخروج إلى العالم يا «أورتينسيا».

وقبل أن تلفظ «ريمي» اسم المرأة التي ستموت كانت «لا ثاباونيس» قد جمعت النساء الاثنتي عشرة المحكومات معها في نفس القضية. كان عددهن اثنتي عشرة. أخذتهنّ دقائق بعد أن قالت إنّ هنالك رسالة لهنّ من القضاة.

رأتهنّ «أورتينسيا» وهن يخرجن من السّاحة مصطفات بعضهنّ وراء بعض. رأتهنّ جميعاً وهنّ ينظرن قليلاً إلى الأعلى، وعرفت أنّهن يتمنين نفس الأمانة. وستراهن عائداً ناظراتٍ إلى الأرض دون أن تتحقّق أمنيتهن الوحيدة.

مساء اليوم ذاته وقفن في طابور آخر داخل المهجع بعد أن قرأت  
«لا ثاباتونيس» أسماءهنّ من القائمة، وأمرتهنّ «لا بينينو» أن يخرجن:

- المذكورة أسماؤهن، فليخرجن دون أخذ أي شيء معهن.

- هنالك ثلاث ناقصات.

- ماذا تعنين؟

- ليس هنا إلا تسعة.

النساء التسع الواقفات في الطابور نظرن إلى رفيقاتهن في القضية.  
كذلك نظرت إليهنّ «أورتينسيا» و«إليرا» و«ريمي» و«سولي». شلّ  
الخوف النساء الثلاث اللواتي عليهنّ الخروج. صرخت السّجّانة بأسمائهن،  
وفقدت «لا بينينو» صبرها:

- ألسنَ هنا؟

تلقت «لا ثاباتونيس» حولها حائرة:

- لا بد أنهنّ هنا.

قرأت الأسماء مرةً أخرى.

زاد دعر المحكومات عندما سمعنّها تصرخ بأسمائهن.

لم تقوَ آية واحدة منهنّ على الحركة.

- يا الله! ألا تعرفين من يجب عليك أن تُخرجني؟

- نعم أيتها الأخت، ينبغي أن أخرج من وردت أسماؤهنّ في  
القائمة، ولكنني لا أحفظ أسماءهنّ جميعاً. عليهنّ أن يخرجن من تلقاء  
أنفسهن.

- هذا الوضع لا يُسكّت عليه!

صرخت الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» بحدة أكثر مُطالبةً  
السجينات الثلاثة بالخروج.



- اخرجن!

تصاعد الخوف.

ومرة أخرى، دوت الأسماء الثلاثة في الهواء كالرصاص. ولم تتمكن أية من المنادى عليهن أن تردّ أو أن تتغلب على شللها.

- حسناً، خذي التسعة الواقفات وعودي وقد جلبت معك قوّة دعم.

جاءت قوّة الدّعم. أرغموا كل سجينات المهجع الثاني يميناً على الاصطفاف في الممرّ. وقفت «أورتينسيا» و«ريمي» و«إليرا» و«سولي» قرب الثلاث المحكومات بالإعدام اللواتي بصعوبة تمكّن من التقدّم خطوتين، وأحاطت بهنّ جلبة بقية السجينات.

صاحوا بأسمائهنّ مرةً أخرى.

عاد الصّمتُ والشللُ والخوف.

- إذا رفضتنّ الإفصاح عنهنّ فسأعُدّ إلى الثلاثين.

عدّوا إلى الثلاثين، وأخرجوا أربعاً من الطابور. عدّوا إلى الثلاثين ثلاث مرّات.

أخرجوا اثنتي عشرة سجينة من الطابور، وكانت «إليرا» واحدة منهن.

- هيّا بنا!

وعندما سمعن الأمر، بدأن جميعاً بالمشي.

لم تسأل أية منهن المحكومات عن سبب إحجامهنّ عن الخروج. لم يفضحن أمرهنّ، حتّى بالإشارة إليهنّ بالنّظر.

نظرن إلى السجّانات وهنّ يقتدّن رفيقاتهن.

أدركن أنّ ما يحدث حقيقي: سيأخذونهنّ ليطلقوا عليهنّ النار.  
هذا حقيقي.

تغلّبن على الذعر.

تقدّمن خطوتين إلى الأمام.

خرجنَ.

أوقفت «لا بينينو» السجينات اللواتي أخرجتهنّ بالقرعة. عانقت  
الاثنتا عشرة رفيقاتهنّ الثلاث المحكومات بالإعدام، تعانقنَ شاكرات.  
عانقت «إلبيرا» «ريمي».

- يا بضعة منّي!

واحتضنت «أورتينسيا» طفلها الذي تحمله في بطنها. وبدأت آلام  
المخاض.

\* \* \*

- لقد عانت آلام المخاض طوال الليل وطوال فترة الصباح يا دكتور. يظهر الرأس، لكنه يعود إلى الداخل.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ لستُ طبيب توليد يا «سولي».

- أنقذ هذا الطفل. أنقذه فأنت طبيب وفي وسعك إنقاذه. لم أرَ في حياتي مخاضاً أصعب من هذا. رأس الطفل في مكانه، لكن كلما بدا أنه سيخرج يعود إلى الداخل.

انتحبت «أورتينسيا» خاترة القوى من مكانها على سرير الفحص في العيادة. شدّت «ميرثيديس» على يدها ومسحت العرق عن جبهتها وشجّعتها:

- هيا يا ابنتي، كاد الصغير يخرج، يجب أن تدفعي.

- فليعطوه لأختي. اخدمني هذه الخدمة، لا تدعيهم يأخذوه إلى الميتم، فليعطوه لأختي. أسألك بكل ما هو غالٍ عليك.

استمرت ولادة «أورتينسيا» سبع ساعاتٍ أخرى، وظلت تئنّ أنيناً متواصلاً من ألم الانقباضات، ولم تعدّ القابلة تدري ما الذي يمكنها فعله.

والطبيب كذلك، راجع في ذاكرته كل دروس التوليد في الجامعة، والتدريب في قسم النسائية في مستشفى «القديسة كريستينا» وكُتب طبّ النسائية التي درسها في السنوات الأخيرة في كلية الطب. أخيراً، عندما ولدت المرأة التي ستموت، قصّ السيد «فيرناندو» الحبل السري وأمسك بالمولود بين يديه وأخذ يصيح قائلاً إنها بنت، دون أن يوارب إحساسه بالفرح ودون أن يخفي سعادته.

- إنها بنت!

- هل هي بصحة جيدة؟

- بصحة جيدة، وجميلة مثل أمها.

- دعني أنظر إن كانت مُكتملة الخَلقة يا دكتور.

وضع الدكتور الطفلة بين ذراعي أمها المفتوحتين، وعدّت «أورتينسيا» أصابع الصغيرة إصبعاً إصبعاً.

- خمس أصابع في كل يد.

- ومثلها في القدمين. «أورتينسيا» إنها مكتملة الخَلقة، ماذا ستسميها؟

- «تينسي» سأسميها «تينسي».

- «تينسي»؟

- سأسميها «أورتينسيا» لكنها ستعرف إلى والدها ذات يوم وسيناديها «تينسي» كما يناديني.

انسحب الطَّبيب ليغسل يديه وهو يفكّر في زوجته، وكم ستكون سعيدة وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها، الطفل الذي لطالما تَمَنّوه، لكنه لم يأت قطّ.

لقد حان وقت الصُّلح. حان الوقت. لم يرغب في إخبارها بأنّه عاد إلى ممارسة الطب، لم يرغب لأن الأسباب التي دفعته إلى العودة لم يكن لها أيّة علاقة بها وليست مدعاةً إلى الفخر. ولم يرغب في إخبارها لأنه لم يكن يعرف بعد إن كان قد اتخذ القرار الصحيح. ولكنه أحضر طفلاً إلى الدّنيا اليوم، ويريد أن يشارك سعادته مع السيدة «أمارو».

- دكتور، أيمكنني أن أطلب منك معروفاً؟

قالت «سولي» هذا واقتربت منه وناولته منشفة.

- تفضلي، إن كان بإمكانني أن أساعد...

شرحتُ له القابلة وضعَ «أورتينسيا» وخوفها من دنوّ موعد إعدامها:

- سيعدمون «أورتينسيا» رمياً بالرصاص.

- ماذا تقولين؟

- كانوا ينتظرون ولادة الصغيرة.

أخذ السيد «فيرناندو» يجفف بللَ أصابعه، إصبعاً إصبعاً، وكأنه يحاول أن ينظّف نفسه من الذعر.

- ولكن ما هذا الذي تقولينه؟

- ها قد وُلدت الطّفة، وهكذا سيُعدمون الأمّ. سيضعون الطّفة في الميتم أو سيعطونها لأيّ أحد.

- وماذا يمكنني أن أفعل أنا؟ لا يمكنني أن أفعل أيّ شيء.

- اطلب من الحارسة المدنيّة أن تُبلِّغَ أختها. ستبلغها لو طلبتَ منها ذلك. اليومَ يومُ الزيارة، ستكون أختها عند الباب. كلّ ما عليك فعله أن تطلب منها أن ترسل إلى الأخت وتبلغها بأن الصغيرة قد وُلدت وأن تأتي لتأخذها.

جفّت يدا الدكتور «أورتيجا». أخذت منه «سولي» المنشفة واستمرّت ترجوه:

- أنت إنسانٌ طيّب يا دكتور، والطّيبة تطلُّ من وجهك، هلاًّ أسديت إلينا هذا المعروف؟

وضعت «سولي» المنشفة عند المغسلة، وشدّت الطبيب من كمّه. نظرت إلى عينيه كمّن ينظر إلى قاع بئرٍ ليرى إن كان فيه ماء. سألته مرّة

أخرى: هلّا أسديت إلينا هذا المعروف؟ ثم اعتذرت منه عندما انتبهت أنّها كانت تشدّه من كمّه.

- لا تقلقي يا «سولي». سأطلب من الحارسة إبلاغها.

سيطلب منها. سيطلب من «ميرثيديس» أن تبحث عن أخت «أورتينسيا» عند الباب، دون أن يعرف أنّ أخت «أورتينسيا» اسمها «بييتا». دون أن يعرف أن أخت المرأة التي أصبحت أمّاً قبل قليل هي الشّابة ذات العينين الزرقاوين المستحيلتين التي دفعته إلى العودة إلى ممارسة الطّب. كان يعرف أن لـ «بييتا» أختاً في سجن «لاس بيتاس».

كان يعرف، لكنه نسي. أخبرته السيدة «ثيليا» عندما نقلت إليه طلب «الجاكيت الأسود» أن يوظّف أخت رفيقة مسجونة خادمةً عنده. لقد نسي. «أورتينسيا» أخت الفتاة ذات العينين الزرقاوين المستحيلتين، التي أرسلتها إليه السيدة «ثيليا». إنّها «بييتا». وزوج «أورتينسيا» هو الرجل الذي أصابته الرصاصة في خصرته. لم ينتبه السيد «فيرناندو» لذلك إلّا بعد أن أوصل الرّسالة إلى «ميرثيديس» وبعد أن تلفّظ باسم «أورتينسيا» وقال إنّ عليها أن تبلغ أختها بأن الطّفلة قد وُلدت. حينئذٍ بدأ يربط بين الامرأتين، وتذكر كلمات «بييتا» المتسارعة عندما نقلت إليه رسالة «الجاكيت الأسود»:

- ... لأنّ رصاصةً قد استقرّت في جسد «فيلبي»، وينبغي إخراجها لكي لا يموت. وأنت طبيبٌ يا سيّدي، أنت الطبيب الذي يحتاج إليه زوج أختي «أورتينسيا»، وهي سجينَةٌ وحامل، وستموت لو مات «فيلبي».

خرج من السجن وهو يفكّر في «بييتا» و«أورتينسيا» و«فيلبي» وفي الرصاصة التي أخرجها من خصرته، وفي الطّفلة التي جاء بها إلى العالم منذ قليل، وفي عودته النهائية إلى الطّب. وعندما وصل إلى بيته كان قد حزم أمره: سيظل طبيباً إلى الأبد.

ابتسم وهو يفتح الباب، وابتسم لأن وقت إبلاغ زوجته بقراره قد حان. خلع رداءه الإسبانيّ وعلّقه على المشجب وهو مبتسم، وتعمّد أن يُسمّع وقع قدميه. اتّجه إلى ساعة الحائط المعلقة على جدار الممرّ وشدّ نابضها دون أن تزول ابتسامته. وصعد الدّرج ببطء.

داس الأرض بقوة لكي تعرف السيدة «أمبارو» أنّه يصعد الدّرج. وأخيراً صعد الدّرج.

سمعت السيدة «أمبارو» الخطوات الصاعدة، سمعتها بكلّ وضوح. إنه يصعد. زوجها صعد درجات برجها.

وأخيراً يصعد الدّرج.

وبدأت هي بالنّزول.

\* \* \*





كانت «بييتا» تمرّ على السجّن كلّ صباح قبل أن تذهب إلى المحطّة لجمع الفحم، لتسأل عن «أورتينسيا» كما طلبت منها «ميرثيديس» يوم وُلدت الطفلة. وكلّ يوم كانت تعطيها نفس الإجابة:

- أختك بخير، وضعوها الآن في مهجع الأمّهات. تعالي يوم الزّيارة.

- هل هنالك أخبار بشأن موعد...؟

- موعد ماذا؟

- موعد «إخراجها».

- كفاك. قلتُ لك إنّ هذا السؤال لا يُسأل، وتعالي يوم الزّيارة.

ألا تتعبين من السؤال؟

لم يكن هنالك طريقة لتعرفَ إلى متى سيسمحونَ لـ«أورتينسيا» بإرضاع ابنتها. لم يكن هنالك طريقة، لكن «بييتا» لم تتعب من السؤال.

- أسأل من أجل الطفلة، أتفهميني يا سيدي؟ أنا خالتي وأنا من سيأخذها عندما يُخرجنَ أختي. لا أريدُهنَّ أن يَحْسَبَنَّ أن الصّغيرة مقطوعةٌ من شجرة، فأنا أهلها. لهذا أسأل، وليس عندي أيّ سبب آخر للسؤال، ولهذا فأنا بحاجة إلى أن أعرف متى...

- أعرف أعرف، قلتُ لي هذا الكلام ألف مرّة وقلتُ لك إنّ هذا السؤال لا يُسأل. هل فهمتِ؟

- نعم يا سيدي.

- حسناً إذن، اذهبي الآن وعودي يوم الزيارة.

كررت «بييتا» جملة «نعم يا سيدتي» ومشت بهدوء وهي تعرف أنهم منحوا أختها يوماً آخر.

لعلهم يشفقون عليها، على الرغم من أنهم رفضوا العفو عنها، ربّما يتركونها على قيد الحياة. ممكن. حتّى إنه من الممكن أن ينسوا أنّها كانت في انتظار تنفيذ الحكم.

لعلهم نسوا أمرها. ولكنهم سيتذكرونها. وطوال شهر ونصف، كانت «بييتا» تذهب كلّ صباح إلى باب السجن.

وكانت ترى «أورتينسيا» في القاعة في أيام الزيارة وهي تحمل ابنتها بين ذراعيها، وتسألها في كل مرة إن كانت تحمل لها أخباراً بشأن زوجها:

- هل تعرفين شيئاً من أخباره؟

- ماذا؟

رفعت «أورتينسيا» الطفلة الملفوفة بشال أبيض حاكته لها رفيقاتها «إلبيرا» و«ريمي» و«سولي».

- قولي له إنّها شقراء، وأن عينيها زرقاوان سماويتان كعينيك وكعيني أُمّي.

ولكن «بييتا» لم تسمع «أورتينسيا» ولم تتمكن حتّى من رؤية الطفلة. لم ترَ في العتمة إلّا شيئاً ملفوفاً بشال وراء الشبك الحديدي.

صرخت مُحاولَةً أن تسمعها أختها، وهي تقول إن الطفلة جميلة جداً.

- إنّها جميلة جداً، جميلة جداً.

على الرغم من أنّها لم تكن تعلم إنّ كانت الطفلة جميلة جداً.

وبعد مرور شهر ونصف على ولادة الطفلة، عندما وصلت «بييتا» إلى باب السجن لتسأل عن «أورتينسيا»، لم تطلب منها الحراسة أن تعود في يوم الزيارة.

- انتظري هنا لحظة.

- ما الذي يجري؟

- لا شيء، انتظري هنا.

ظهرت السجّانة ذات التسريحة التي تشبه الموزة بعد بضع دقائق. سلّمت «بييتا» حقبة خياطة والطفلة التي كانت تحملها. أدركت حينئذٍ أنّها ستعود هذا الصباح لارتداء ثياب الحداد التي لا يخالط سوادها أيُّ لونٍ آخر.

وعندما وصلت بالأمها إلى البانسيون، كانت السيدة «ثيليا» في انتظارها. غمرَ الكربُ ملامحها وهي تبحث عن الكلمات الملائمة للحديث بشأن الموت. ولكن عندما رأت الطفلة بين ذراعي «بييتا» أدركت أنّه ما من حاجةٍ إلى الحديث بهذا الموضوع.

قالت: لقد غسلتُ لها وجهها.

وقالت: وأغمضت لها عينيها.

ثمّ أعطتها قطعةً صغيرة من القماش الذي قصّته بالمقصّ.

كانت قطعةً من قماشٍ صوفيٍّ رماديٍّ مزينٍ بزهورٍ بيضاء.





لم يتسنَّ لـ«توماسا» أن تودّع «أورتينسيا». تكوّرت على نفسها وألمها وسط ظلام زنزانتها، وبصمتٍ رفضت الهزيمة. كانت «أورتينسيا» قد قالت في آخر اجتماع حضرته إن النجاة هي واجبنا الوحيد. النّجاة. لم تسمح «توماسا» للألم بأن يسحقها. النّجاة. قالت «أورتينسيا» يومئذٍ «كفانا جنوناً». الجنون. الصمت في كل مكان. دار حولها الصمت والجنون. النّجاة. دار حولها ودار. «ينبغي لنا أن نصعّب عليهم مهمة هزيمتنا». لا. لم يتسنَّ لـ«توماسا» أن تودّع «أورتينسيا». تكوّرت على نفسها وألمها.

النّجاة. وروايةُ الحكاية لكي لا يرافق الجنونُ الصمتَ. نهضت عن الأرض. رواية الحكاية. نهضت وصرخت. النّجاة. صرخت بكل ما أوتيت من قوّة لتبعدَ الألم. المقاومة تعني الانتصار. صرخت لكي تملأ الصمت بالحكاية: حكايتها هي. حكاية ألم قديم يخنق دموعها لأنّها لم تتمكن من إلقاء تحية الوداع على «أورتينسيا». مشت «توماسا» خطوتين إلى الأمام، ثم استدارت وذرعت الزنزانة بخطوتين آخرين. عادت. بكت.

وبأعلى صوتها أخذت تروي قصتها لكي لا تموت، مشت وحكت:

- كان عندي أربعة أبناء وحفيدة.

حكّت إنّه كان لديها أربعة أبناء وحفيدة، وأن الصغيرة ماتت من الجوع في «لوس سانتوس دي ميمونة».

- ماتت. كان اسمها «كارمن»، «كارمنشيتا»<sup>(1)</sup>، صغيرتي.

صرخت قائلةً إن كِتَتْها كانت تعمل مُرْصِعةً لأبناء الآخرين.

- كانت ترضع توأماً من «ثافرا» ولم يكن حليبها يكفي للصغار الثلاثة. جدّة الصغيرة كانت تأكل الحليب المجفف الذي كانت تشتريه كِتَّتِي لحفيدتي. كانت الجدّة جائعةً، تتصور جوعاً إلى درجة أنها لم تجد شيئاً لتقوله عندما اكتشفت أن الصغيرة قد ماتت.

مشّت جيئةً وذهاباً وحكت إنهم قبضوا عليها في الجبل وعلى أبنائها الأربعة وكِتَتْها وزوجها، وأنهم هربوا إلى الجبال عندما اتهموهم بأنهم مُحر<sup>(2)</sup> وأنهم استولوا على مزرعة.

وكان هذا صحيحاً، فنحن مُحرٌّ من غير ريب، واستولينا حقاً على مزرعة. كان البحث عن بواقي الزيتون قد أنهكنا. وكنا نأخذ زيتاً مقابل حبّ الزيتون القليل الذي نجمعه عن الأرض، ومن ثمنه كنا نعيش حياة الكفاف، فما كانوا يدفعونه إلينا باليومية مقابل قطاف الزيتون لم يكن يسدّ رمقنا.

لقد جاء الوقت الذي ستروي فيه «توماسا» قصّتها. اندفعت الكلمات من فمها وكأنها تتقيأ كل ما سكتت عنه حتى الآن. وكأنّه قيءٌ من ألم وغضب، قَدِرٌ ومكتومٌ منذ زمن، يهرب الآن من بين شفّيتها ويمزّق الهواء ويمزّقها من الداخل. تروي قصّتها بصوتها الصّارخ لكي لا تُذعن للجنون. لكي تنجو.

لكي تنجو.

(1) تدليل اسم «كارمن».

(2) كان القوميون يصفون الجمهوريين بـ «الحمر»، وصفاً تحقيراً لانتمائهم إلى أحزاب شيوعية واشتراكية.

صرخت وقالت إنهم رَمَوْا كَتَّها وأبناءها الأربعة من جسر  
«المارات»<sup>(1)</sup> أمام عينيها.

- يبلغ ارتفاع هذا الجسر اللعين ثلاثة وخمسين متراً.

وأمام عينيها أطلقوا عليهم النَّار في الماء وهم يحاولون أن يصلوا  
إلى الضفة. كان القناصون محترفين. غرق كلُّ «الدائخين». «الدَّوخة» هو  
الاسم الذي أطلقوه على عملية التنظيف التي اعتمدتها قوى الحرس  
المدنيّ المسؤولة عن ملاحقة الحُمُر الفارّين في القطاع الثاني، الواقع في  
«كاثيريس» و«باداخوث». كانوا يسمّونها «الدَّوخة» وبعد ذلك دَوَّخوها  
هي وزوجها.

تمكّن زوجها من إبقائها طافيةً على الماء وسحبها إلى الضفة،  
وحماها بجسده من الرصاص الآتي من الأعلى. وعندما وصلا إلى الجانب  
الأيمن من نهر الـ«تاجة» كان زوجها قد مات. احتضنت رأسه.  
وأغمضت عينيها واستمرّت باحتضانه حتى جاء اثنان من الكتائبين من  
أتباع «جزار إكستريادورا»<sup>(2)</sup> وسحبها من حزنها، ودفعا جثة زوجها إلى  
الماء. ولما كانا يكبلانها رأت جثة زوجها وهي تبتعد مع التيار.

صرخت. لكي يستيقظ صوتها. صوتها الذي رفض أن يكرّر  
سقوط تلك الأجساد في الماء. فرواية الحكاية يعني أن تتذكر موت  
أحبائها. يعني أن تراهم يموتون مرةً أخرى.

- سحب النهر أولادي أيضاً.

لطالما راوحت تلك الكلمات مكانها. كانت جاهزة ومركونة. كان  
صوتها نائماً بين شفّتيها. كان يرفض أن يقول إنهم ماتوا جميعاً.

(1) جسر على نهر «التاجة» في مدينة كاثيريس.

(2) «خوان جاغوي» عسكري إسباني من حزب الكتائب. لُقِّبَ بهذا اللقب

لمسؤوليته عن «مذبحة إكستريادورا» سنة 1936

بكث.

حكث.

كَيْتِي، التي كانت ترتدي فستانَ المَرْضَعَاتِ الأبيض، ذهبت مع الماء.

أما هي فلم يسحبها الماء.

لم يسحبها.

رفعوها عن الأرض وقالوا لها إنها ستعيش لتروي ما حدث مع «سيدات نيغرين». وأخذوها إلى سجن النساء في «أوليبيثا». أمضت هناك سنواتٍ رافضةً أن تروي قصتها، وعاجزةً عن البكاء على موتها. والآن تروي قصتهم وهي تبكي. تروي وتصرخ باكيةً لأنها لم تتمكن من إلقاء تحية الوداع على «أورتينسيا». تصرخ ولا تخشى أن تعود «ميرثيديس»، السجّانة صاحبة التسمية الموزّنة التي تدّعي الطّيبة والتي اقتربت من الباب مرتين:

- سألتكِ بالله أن تسكتي، فصوتك يصل إلى اللّواتي في الأعلى ولن يبقى أمامي إلا أن أمدد حجرك الانفرادي.  
مدديه إن أردتِ، وإن أردتِ فلا تمدديه.

- رجاء يا «توماسا»، مناويتي في الكنيسة ويجب عليّ أن أذهب، وزميلاتي يشتكين من صراخك ولا أعرف ماذا أقول هن. لا ترغميني على فعل ما لا أريد فعله. اسكتي من فضلك، ستوقعين نفسك في المتاعب. أية متاعبٍ أكثر مما هي فيه؟ وما الذي يمكن للسجّانة الجديدة أن تفعله حتى تتظاهر بأنها لا تريد فعله؟ لا بدّ أنّها مقتنعةٌ بأنها طيّبة، لكن هذه الأكاذيب لا تنطلي على «توماسا»، وكما قالوا في المثل «لا يصبح راهباً كلُّ من ارتدى ثوبَ الرّهينة» و«توماسا» قادرةٌ على أن ترى حقيقة «ميرثيديس» من وجهها.



وهي ليست طيبةً مهما حاولت أن تُبدي عكس ذلك، فهي من الصنف الذي يَتَمَسَكُنْ لِيَتَمَكَّنْ، وعندما تَمُدُّ يداً للعون تشحذ السكّين باليد الأخرى. هذا الكلام لا ينطلي على «توماسا» ولن تتمكّن من إسكاتها. لن تسكت «توماسا». صرخت، لأنّها لم تتمكّن من إلقاء تحية الوداع على «أورتينسيا». لم تستطع. عندما نقلت إليها «سولي» الخبر كان قد تبقى على نهاية حبسها الانفرادي تسعة عشر يوماً:

- سيخرجونها هذه الليلة.

هذه الليلة. لم تكفّ «توماسا» عن الصراخ تنفيساً عن ألمها. تردّد صدى صرخاتها طوال تلك الليلة. رفعت «سيدة نيغرين» صوتها لأن واجبها هو أن تنجو. قال لها الكتائبون الذين دفعوا جثة زوجها إلى الماء «ستعيشين لتروي ما حدث». قالوا «ستعيشين لتروي ما حدث» ولم يعرفوا أنّها ستعيش لتفعل العكس: ستروي ما حدث لتعيش.

لتنجو. لتروي أنّهم أخذوها إلى سجن النساء في «أوليبيتا» وظلّت هناك ستين، وخطر الإعدام يحوم حولها في كلّ لحظة، وكانت رفيقتها في الزنازة امرأةً فقدت أولادها في معسكر الاعتقال في «كاستويرا».

ربطوا بعضهم ببعض وضربوهم بكعوب البنادق حتى ألقوا بهم في المنجم. صوت أنينهم كان ينبعث من أعماق الأرض. ظلّ صوت نحيبهم مسموعاً طوال الليل، حتى ألقوا غيرهم فوقهم، ثم غيرهم وغيرهم. تعالت الآهات. ثم ألقى عليهم من أعلى قنبلةً يدويةً.

- في «كاستويرا» كانوا يعدمونهم يوماً ويتوقفون يوماً، يرمونهم بالرصاص بعد منتصف الليل بين الثانية عشرة والنصف والواحدة. وكانوا يرتاحون يوم الأحد. ولكنهم كانوا يلقونهم في المنجم في كل الأيام دون توقف.

بكت «توماسا» وصرخت وهي تحكي إن تلك المرأة شنت نفسها ذات مساءً في تشرين الثاني (نوفمبر) في مرحاض السجن في

«أوليبيثا». كانت قد قالت لها إنهم أعدموا في «كاستويرا» عمدة «ثافرا»، وكان اسمه السيد «خوسيه غونثاليث بارريرو». أعدموه رمياً بالرصاص بعد شهرٍ من انتهاء الحرب. ودفنوه بعد أن كفؤوه على وجهه لكي لا يخرج من القبر. ستروي الحكاية. ستنجو من الجنون. تذكّرت السيد «خوسيه» وهو يتمشى مع زوجته في شارع «إشبيلية». كان ذلك في الصيف، عندما حلّ المساء، أيام الجمهورية<sup>(1)</sup>. كانت كتّتها ترتدي فستان المُرَضَّعات الأبيض. كان ذلك في «ثافرا».

وكانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها «توماسا» وكتّتها العمدة عن قرب:

- انظري يا سيدة «توماسا»، إنّه العمدة. هذا الرجل هو العمدة.

السيد «خوسيه». كان اسمه السيد «خوسيه».

كان ممسكاً بيد زوجته ويحمل قبعة «بنما»<sup>(2)</sup>. حلّ المساء، وكان السيد «خوسيه» يرتدي بدلة كتان ويتمشى ممسكاً بيد زوجته. وكان لهما ابنة وكان اسمها «ليبيرتاد»<sup>(3)</sup>.



---

(1) امتدّت فترة الجمهورية الإسبانية الثانية بين سنتيّ 1931 و1939، وهي السنة التي خسر فيها الجمهوريون الحرب الأهلية.

(2) قبعة مصنوعة من القش، مستديرة وصغيرة الحجم. تُعرف باسم «قبعة بنما» لأنها كانت القبعة التي شاع استخدامها بين العمّال الذين حفروا قناة بنما.

(3) Libertad: ومعناه: حرية.

- سيخرجونها هذه الليلة.

- هل أنت متأكدة؟ ومن أين عرفتِ؟

كانت «سولي» و«ميرثيديس» ترتبان سرير إحدى المريضات. اقتربت السجّانة من أذن السجينة لتخبرها وهما تقلبان شرشفاً، وعرفت حينئذٍ «سولي» أنّه لم يتبقَّ لـ«أورتينسيا» إلا ليلة واحدة.

حتى «ميرثيديس» عرفت بالصدفة، فقد كانت في الإدارة لتطلب تغيير مناوبتها عندما سمعت بالأمر من فم الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» وسمعت الأخت وهي تطلب من «لا ثاباتونيس» أن تذهب مع فصيل الإعدام بصفتها شاهدة. وافقت «لا ثاباتونيس» وسقطت «ميرثيديس» مغشياً عليها.

- أتأكلين جيداً؟

- نعم يا حضرة الأخت.

- اذهبي إلى العيادة. وليكشف عليك الطبيب.

بعد أن لطموها على خديها بضع مرات نهضت «ميرثيديس» دون أن يعود اللون إلى وجهها، وتركت المكتب ونسيت أن تطلب تغيير مناوبتها. وأخذ الخبر يتردد:

- سيخرجونها هذه الليلة.

- سيخرجونها هذه الليلة.

لظمت «ريمي» و«إليرا» على رأسيهما عندما سمعتا بالخبر، وعلى الرغم من أنهما كانتا ممنوعتين من الاقتراب من مهجع الأمهات إلا أنهما تسللتا مع «سولي» لإلقاء تحية الوداع على «أورتينسيا». الثلاثة تمكنَّ من معانقتها. حملت «ريمي» الصغيرة لحظاتٍ بين ذراعيها. أمّا «سولي» فضمَّتْها إليها في عناقٍ طويلٍ طويل. داعبت «إليرا» خديها وقالت:

- لن تتألّي.

تفوّهت «إليرا» بالكلمات دون أن تفكّر فيها. خوفها العميق انتفض عندما لامست أصابعها وجه «أورتينسيا» الرقيق.

- قالوا لي إنه ليس مؤلماً.

كل الكلام الذي دار في اليوم التالي كان بشأن الصغيرة وأمّها.

- يقولون إنّ السجّانة الجديدة رافقتها إلى الكنيسة وظلّت في الخارج حاملةً الرضّعة طوال الليل. وأنّ الرضّعة المسكينة لم تتوقّف عن البكاء من الجوع. وأنّ القسيس أراد أن يقنعها بأن تعترف وتتناول القربان المقدّس. وقال لها إنّ واجبه يحتمّ عليه أن ينقذ روحها، وأنها إنّ تابت إلى الله فسيسمح لها بإرضاع الصغيرة. ولكنها رفضت، ولم تعترف ولم تتناول. كانت مبادئ هذه المرأة أرسخ من قلبها.

وقالوا إنّ «لا ثاباتونيس» أمرتها بأن تلبس ثيابها سريعاً. وأنها وقفت في وجهها وقالت لها أن تدعها تلبس ملابسها على مهلها. قالوا إنها قالت «ألا ترين أنني ألبس كفني؟»، وبهدوء ارتدت فستاناً كانت أختها قد خاطته لها من أجل عيد الميلاد.

وقالوا أيضاً إنّ «أورتينسيا» كتبت رسالةً بعد أن خرج القسيس من الكنيسة، وهذا حدث فعلاً. وعندما وقّعت على رسالتها دخلت «ميرثيديس» وسمحت لها بإرضاع ابنتها.

- شكراً.

شكرتها المرأة التي ستموت. أرضعت الصغيرة، وقبلتها، ثم طلبت من «ميرثيديس» أن تعطيها لـ«بييتا».

- قيل لي إنها تأتي كل صباح لتأخذها.

كان الفجر قد حلّ عندما سمعوا صوت محرّك شاحنة. خلعت «أورتينسيا» أقراطها وأعطتها لـ«ميرثيديس». أخفت دفترها الأزرقين ووثيقة حكم الإعدام في شالها الصوفي، ورَجَت «ميرثيديس» أن تأخذ حقيبة الخياطة في الصباح وأن تعطي كل شيء لأختها. قالت لها: «إنّها للطفلة».

كان يوم السادس من آذار (مارس) سنة ألف وتسعمائة وواحدة وأربعين. كُتب في سجلّ وفيات مقبرة الشرق الاسم الأول واسم العائلة الأولى والثانية لسبعة عشر شخصاً نُفِّذَ بحقهم حكم الإعدام. ست عشرة رجلاً وامرأة. امرأة واحدة:

«إيزابيل غوميث سانشيث». اسم «أورتينسيا» لم يُكتب في القائمة. اسم «أورتينسيا رودريغيث غارثيا» لم يُذكر في سجلّ المُعدمين في السادس من آذار (مارس) سنة ألف وتسعمائة وواحدة وأربعين. ولكن قيل إن «أورتينسيا» وقفت عند الفجر ونظرت في عيون فصيل الإعدام كما وقف الآخرون.

- تحيا الجمهورية!

وقيل، وهذا حدث فعلاً، إن امرأة اقتربت من الشهداء وركعت قرب «أورتينسيا».

كانت تحمل مقصاً. قصّت قطعةً من الفستان الذي استقبلت به الموت.

وأغمضت لها عينيها.

وغسلت لها وجهها.

تعلن هيئة المحكمة أن المدعى عليها «أورتينسيا رودريغيث غارثيا» صاحبة الأسبقيات الأخلاقية والمنتمة إلى الشبيبة الاشتراكية الموحدة، تطوّعت في الجيش الأحمر وخدمت في ميليشيا قرطبة، وشاركت في أعمال العنف والجرائم التي ارتكبت في المدينة المذكورة أعلاه ضدّ أشخاص من أحزاب اليمين. وقد تمّ إلقاء القبض على المدعى عليها في مزارع «إل ألتوجانو» وهي تجمع المؤونة لصالح قطاع الطرق المتحصنين في تل «أومبريا».

وبالنظر إلى الوقائع المثبتة فإنّ المدعى عليها ارتكبت جُرم الانتماء إلى جماعة متمردة منصوص عليه في الفقرة الثانية من المادة 258 من قانون مجلس القضاء العسكري، وبناءً عليه فإنّ المدعى عليها مذنبه لمشاركتها المباشرة والطوعية.

بموجب السلطات الممنوحة لمجلس القضاء العسكري في المادتين 172 و173، وأخذاً بالمواد الواردة في الفصل «ص» الفقرة 11 -مع الظرف المشدّد نظراً لأهمية الجريمة وفضاعتها- من ملحق مرسوم الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) 1940، ارتأت المحكمة إيقاع العقوبة الأشدّ بحقّها.

كلّ من يتحمل المسؤولية الجنائية عن جناية أو جُنحة، يتحمّل مسؤوليتها المدنية كذلك.

وبالاطّلاع على المواد المذكورة أعلاه وغيرها من المواد السارية قررنا الحكم على المدعى عليها، المتهمّة بجريمة الانتماء إلى جماعة متمردة، مع الأخذ بالظرف المشدّد لأهمية الجريمة وفضاعتها، بالإعدام وتحمل كل التبعات القانونية للقضية في حال حصولها على العفو، على أن يتمّ إعدامها رمياً بالرصاص. ستخضع مسؤوليتها المدنية لما ورد في قانون 9 من شباط (فبراير) 1939.

صدر عن محكمتنا وتمّ النطق به وعليه نوقع.

## الجزء الثالث





«... إن لم تروا أحداً  
وأخافتكم أقلام الرصاص المثلومة  
إن سقطت «إسبانيا» الأمّ - إن صحّ القول -  
اخرجوا يا أطفال العالم  
فابحثوا عنها!»

«ثيسار بايخو»



الدَّفْتَرُ الذي أَخَذْتُهُ «بَيْبِيتَا» مِنَ السَّجْنِ قَبْلَ دَهْرٍ، وَالَّذِي وَجَدْتُهُ تَحْتَ الْحَجَرِ الْمُسَطَّحِ فِي التَّلِّ، كَانَ مَمْلُوءاً بِالْكَلِمَاتِ مِنْ أَوَّلِ صَفْحَةٍ فِيهِ إِلَى آخِرِ صَفْحَةٍ. كَلِمَاتٌ مَكْتُوبَةٌ كَيْفَمَا اتَّفَقَ، مُوجَّهَةٌ إِلَى «فِيلِيبِي». عِنْدَمَا نَفَدْتُ صَفْحَاتِ الدَّفْتَرِ، كَتَبْتُ «أُورْتِينْسِيَا» عَلَى غِلَافِهِ: «إِلَى فِيلِيبِي» وَوَقَعْتُ فِي الْأَسْفَلِ. لَمْ يَكُنْ فِي الدَّفْتَرِ الْأَزْرَقِ الثَّانِي إِلَّا ثَمَانِي صَفْحَاتٍ مَكْتُوبَةٍ. تَأَمَّلْتُ «بَيْبِيتَا» الدَّفْتَرَيْنِ وَهِيَ تَحْتَضِنُ ابْنَةَ أُخْتِهَا. قَرَأْتُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ مَا كَتَبْتَهُ «أُورْتِينْسِيَا» عَلَى غِلَافِ الدَّفْتَرِ الثَّانِي: «إِلَى تِينْسِي»، وَهَزَّتِ الطِّفْلَةَ وَرَبَّتْ عَلَى ظَهْرِهَا بِيَدِهَا الْيُمْنَى. كَانَتْ تَقْبِضُ بِيَدِهَا الْيُسْرَى عَلَى قِطْعَةِ قِمَاشٍ.

- كَتَبْتُ لَكَ أَمْلِكِ كِتَاباً.

كَانَتْ الطِّفْلَةُ قَدْ نَامَتْ لَكِنِ الْفَتَاةُ ذَاتِ الْعَيْنَيْنِ الزَّرْقَاوَيْنِ الْمُسْتَحِيلَتَيْنِ ظَلَّتْ تَهْزِ الطِّفْلَةَ وَلَمْ تَكُنْ تَرِيدُ أَنْ تَضَعَهَا فِي السَّلَّةِ الَّتِي حَوَّلَتْهَا السَّيِّدَةُ «ثِيلِيَا» إِلَى مَهْدٍ. احْتَضَنْتَهَا وَكَأَنَّهَا تَخْشَى عَلَى نَفْسِهَا مِنَ الْغُرُقِ إِنَّ هِيَ أَفْلَتْتَهَا. وَكَأَنَّ الصَّغِيرَةَ هِيَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُهَا التَّمَسُّكُ بِهِ.

- سَتَفْسِدُنِيهَا بِالذَّلَالِ. ضَعِيهَا فِي الْمَهْدِ وَإِلَّا فَسَتَحْتَاجُ إِلَى أَذْرَعٍ تَحْمِلُهَا مَدَى الْحَيَاةِ.

لَمْ تَرُدَّ «بَيْبِيتَا». كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى الدَّفْتَرَيْنِ الْمَوْضُوعَيْنِ عَلَى مَنضَدَةِ الْمَطْبَخِ دُونَ أَنْ تَتَجَرَّأَ عَلَى لَمْسِهَا أَوْ فَتْحِهَا. غَمَرَهَا ذَاتُ الْإِحْسَاسِ بِالْحُجْلِ الَّذِي أَحَسَّتْ بِهِ عِنْدَمَا أَخْرَجْتَهُمَا مِنْ حَقِيْبَةِ الْخِيَاطَةِ الَّتِي أَعْطَتْهَا

إياها السجّانة. وجدت في الحقيقة حُكم الإعدام أيضاً، وقرطّي أختها،  
وقلم رصاصٍ مثلوم، وثوب رضيع لم تنتهِ من حياكته بعد. كانت تشوّق  
إلى قراءتهما، لكنها لن تقرأهما.

ليس بعد.

لن تقرأهما، لأنها تخشى أن تخون ثقة «أورتينسيا»، أو أن تسيء إلى  
«فيلبي»، أو أن تسلب الصغيرة فرصة أن تكون أول من يقرأ الكلمات  
التي كتبتها أمها.

لم تكن «بييتا» تعرف بعد أنّها ستتحرر من خوفها، وأن السيدة  
«ثيليا» هي من سيساعدها في ذلك.

- هيا، أعطني الصغيرة. سأُنيّمها أنا.

ظَلَّت ذراعاً «بييتا» لحظّاتٍ محتفظتين بهيئة الحُضن الخاوي وظلّ  
جسدها يهزّ الصغيرة على الرغم من أنّها نائمة الآن في السلة.

- هيا يا ابنتي، عليك أن تنهي حياكة ثوب الرضّعة، فالأطفال  
يكبرون بسرعة، وهكذا ستفوتها فرصة ارتدائه. لا نريد أن نحرّمها منه،  
أليس كذلك؟

أوقفت السيدة «ثيليا» تمايل «بييتا» وشدّت على كتفيها ونظرت  
إلى عينيها:

- معكِ ابنة أختك، وأنا معكِ.

- أحسّ بالتعب حتّى في عظامي يا سيدة «ثيليا»، لا أدري ما هذا  
الإعياء الذي أصابني.

- سيزول عنكِ الإعياء يا ابنتي، سيزول.

ظَلَّت تكرر أنّه سيزول ثم أمسكت بيدها.

- ما الذي تخفيه في يدك؟

إنها قُصاصة القماش الصغيرة.

- أتريدون أن تحتفظي بها يا ابنتي؟

- نعم، أريد أن أحتفظ بها إلى الأبد.

- حسناً، ولكن لا داعي إلى أن تبقى في يدك.

فتحت السيدة «ثيليا» الدفتر المُعَنُون «إلى تينسي».

- يمكنك أن تضعيها هنا.

وعندما فُتح الدفتر سقطت منه رسالة على الأرض.

«أختي العزيزة، أختي الغالية»

- إنها لي! «أورتينسيا» كتبت إليّ أيضاً!

فعلاً، ففي ليلتها الأخيرة في كنيسة سجن «لاس بينتاس» كتبت «أورتينسيا» الرسالة التي ستنتصر على خجل «بييتا». رجّتها في الرسالة أن تعتني بـ«تينسي» وطلبت منها أن تقرأ لها دفترها بصوت عالٍ حتى تعرف ابنتها أن أمها ستكون معها دائماً. وطلبت منها أن تقرأ لها دفتر «فيلبي» حتى «تتعرف الصغيرة إلى أبيها»، وطلبت منها أن تعطيها قرطبيها عندما تكبر. وأعطتها توجيهات لإتمام حياكة الثوب لأنّ الوقت لم يُسعفها لإتمامه بنفسها «استمري بغرزة الصليب سطرين آخرين، كي تبرز الكسرات».

كانت الرسالة طويلةً مكتوبةً على ورقتين وعلى كلا الوجهين. قرأتها «بييتا» بحرص. ورقتان هما حزنها وعزاؤها.

- لقد تذكرتك أنت أيضاً يا سيدة «ثيليا». قالت لي ألا أفارقك وأني لن أجد حناناً كحنانك. وقالت إنك من أطيب الناس يا سيدة «ثيليا».

- أ قالت هذا حقاً؟

- كتبه هنا. وهي محقّة كلّ الحق.

نهضت «بييتا» عن الكرسي وأرثتها الرسالة مشيرة بإصبعها:

- انظري إلى هذا السطر، هنا: «أطيب الناس».

قرأت السيدة «ثيليا» الكلمات التي قرأتها عليها «بييتا» بصوت عالٍ مراراً، فقلّلت من أهمية الأمر:

- لا أقدم إلا الواجب.

- لا بل تقدّمين أكثر من الواجب، ولا تحاولي أن تنفي. لن أتمكن يوماً من ردّ جميلك عليّ، فعندما طردني السيّد من عنده أخذتني تحت جناحك كأنني ابتك، ووجدت لي وظيفة التطريز التي أخذ مقابلها أفضل راتب في متاجر «بونتيخوس». لولاك يا سيّدي لكنتُ قد عدتُ إلى قرطبة التي لم يبقَ لي فيها كلبٌ ليحرسني. وأنت تعرفين وأنا أعرف، ومن في السماء يعرف، هذا على فرض أن في السماء أحد.

للمت «بييتا» الرسالة والدفترين وذهبت إلى غرفتها وهي تغمغم:

- لو كان هنالك أحدٌ في السماء لما هان عليه أن يسمحَ بحدوث ما يحدث هنا على الأرض.

ظلّت تهمس لنفسها، وقد أخرجت علبة بسكويت معدنيّة تخفيها تحت السرير.

- أيعقل هذا؟ كيف يُسمح بأن يأخذوا الشباب على قرع الطبول؟ أيعقل؟ أن يؤخذ خيرة شبابنا ليُرموا بالرصاص أمام سور؟

وضعت الدفترين داخل العلبة، وحكم الإعدام وحقية خياطة أختها وقرطبيها، وأعادت العلبة إلى مكانها تحت السرير.

لاحقاً، عندما تستيقظ الصغيرة ستقرأ لها. أمّا الآن فستنهى الثوب الذي بدأت أمها بحياكته لها.

جلست «بييتا» في المطبخ، وأخذت تحوك كما كانت تفعل كلّ مساء. أنهت الثوب وصار بإمكان «تينسي» أن تلبسه يوم أحد الشعانين.

- لا يكون العيد إلا بلبس الجديد.

وظلّت تحوّل جهاز العرائس لتاجر «بونتيخوس» الذي يدفع أفضل راتب لقاء أعمال التطريز. تحب «بييتا» الخياطة، وتفضّلها على جمع الفحم من المحطة، وعلى الخدمة في بيوت الأغراب. لقد أسدى إليها السيد «فيرناندو» معروفاً عندما طلب منها ألا تعود إلى بيته. لم يعطها أيّ مبرّر، ولكنها تعرف أنّه يفضل رؤيتها من بعيد. تعرف ذلك جيداً. السيد «فيرناندو» خائف. إنّهُ مذعورٌ وهذا واضح على وجهه وضوح الشمس. تعرف أنّ السيد «فيرناندو» لا يريد رؤيتها عن قرب حتى لا ترى الخوف الذي يطلّ من عينيه عندما تقفُ أمامه. لأن خوفه واضحٌ وظاهر، حتى عندما تصدّفه في الشارع ويحييها برفع قبعته.

ينظر إليها ولا يريد أن يراها ويمضي إلى الأمام دون أن يتوقّف. ينظر إليها على عجل لكي لا تقع عيناه في حبال الخوف عندما يرمش. وكلما رمش أكثر، قيّده الخوف أكثر. «صباح الخير» و«مساء الخير» هي كلّ ما يتمكن من قوله لها. وهي تردّ «صباح الخير» و«مساء الخير» يا سيدي» على الرغم من أنّه لم يعد سيّدها، وعلى الرغم من أنّه لا يعرف أنّه أسدى إليها معروفاً عندما أخرجها من بيته. باتت الآن تكسب رزقها دون أن تضطرّ إلى الخدمة في بيت أيّ أحد، من الخياطة فقط ومن جمع فتات الخبز في حقيبتها المخملية أيضاً، لأنّه عملٌ تحبه. تتمشّى في مساءات الأحاد في حديقة الـ«ريترو» برفقة الصغيرة والسيدة «ثيليا».

تكاد تشفق على السيد «فيرناندو» عندما تراه يمشي مسرعاً مُعتقداً أنّه قادرٌ على الهرب من الخوف. ولن يتمكن من الهرب، لأنّ الخوف جائمٌ بين عينيه. تكاد تشفق عليه، لكنها لا تشفق بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، فلديها ما يكفيها من الأحزان ولأن هذه الحياة المريرة تمضي من سيئ إلى أسوأ. ما عادت تحتلّ إلا أسيّ واحداً يضاف إلى ما لديها من المآسي. وهو أنّ «خايمي» لم يعد إلى مراسلتها، وها هي الشهور تمضي.

نعم، الشهور تمضي، وستظل تمضي. وستظل «بييتا» تعمل مع السيدة «ثيليا» في تنظيف البانسيون صباحاً، وستظل تحوك في المساء، تترقب الجرس، لربما يرنّ، لربما يأتي ساعي البريد، لربما تأتي رسالة أخرى من فرنسا.

كانت تنتظر دائماً، ودائماً تخشى أن يرنّ الجرس، وظلت تعدّ الشهور التي تمرّ دون أن ينطق ساعي البريد اسمها.

\* \* \*



لعلّ الزمن يُقاس بالكلمات. بالكلمات التي تُقال، وبالكلمات التي لا تُقال. قرأت «بييتا» مذكرات «أورتينسيا» مرّة تلو الأخرى. مراراً وتكراراً. يوماً وراء يوم، وشهراً وراء شهر. عدّت «بييتا» صفحات الدفاتر الزرقاء والمرّات التي قرأتها فيها على مسامع «تينسي» والصغيرة تكبر. وعدّت الأيام والشهور التي مرّت دون أن يأتيها أيّ خبر من فرنسا. أيامٌ وشهورٌ يغمرها الصمت ذاته. الزمن يُقاس أيضاً بطول الصّمت.

من الضروريّ أن تتعلّم كيف تعيش تحت وطأة الانتظار. ومن الضروريّ أن تتعلّم كيف تتنفس عندما يرنّ ساعي البريد الجرس فتخشى وتتمنى أن تأتي رسالة من فرنسا. من الضروري أن تفرّق بين تنفس الصّعداء وبين تنهيدة الحزن التي تفلت منها عندما ترى ساعي البريد وهو يغادر وترى يديها خاويتين. كم من الوقت مضى منذ أرسل إليها «خايمي ألكانتارا» رسالة من فرنسا؟ كانت رسالة واحدة فقط. ولماذا لم يكتب إليها مرة أخرى؟ كم مضى من الوقت منذ عادت من دهاليز «الداخلية»؟ من الضروري أن تفرّق أنواع الخوف بعضها عن بعض. «باولينو» لم يمُت. «خايمي ألكانتارا» عليه أن يرسل رسالة ليبلغ فيها «بييتا» أنّ «باولينو» لم يمُت.

من الضروري أن تعرف أن رغبتها في استلام رسالة أقوى من خوفها من أخذ الرّسالة إلى «الداخلية». ومن الضروري أن تتعلم العيش بصمت. لم يرسل إليها «خايمي ألكانتارا» رسالة أخرى.

مسحت «بييتا» الطعام المهروس عن زاوية فم «تينسي». مررت  
الملعقة على شفتيها ثم وضعتها في فمها، وهي تفتح فمها وتغلقه محاكية  
حركات الطفلة.

- هذه اللقمة من أجل ماما.

أدارت رأسها. نظرت بقلقٍ إلى باب المطبخ. أرهفت السمع.  
أوقفت الملعقة الفارغة في الهواء، وانتظرت. انتظرت لأن جرس الباب قد  
رنّ. انتظرت وسمعت مديرتها تقول:

- مساء الخير.

ثم سمعتها تردّ بشكلٍ آليّ:

- مساء الخير.

إنّه صوت ساعي البريد. نهضت «بييتا» بقفزة واحدة، ووقفت  
قبالة الباب حاملةً الصغيرة. أفلتت الملعقة وتعلّقت بابتة أختها.

دخلت السيّدة «ثيليا» إلى المطبخ وهي تحمل ظرفاً بيدها.

- إنّها رسالةٌ إليّ من «خيراردو».

أفلتت تنهيدة من «بييتا» ثم نظرت إلى السيّدة «ثيليا». أرتها الرسالة  
التي وصلتها من زوجها وشعرت بالقلق يطلّ من العينين الزرقاوين  
المستحيلتين.

- أقسمتُ عليكِ بكلّ عزيزٍ عليكِ ألاّ تحدّثيني بالصّبر. لن  
أحتمل أكثر وسأذهب غداً إلى «لاس بيتاس».

- ألم تعاني بما فيه الكفاية يا ابنتي؟

- عانيت أكثر من كفايتي، لكن يمكن لهذه الفتاة أن تدلّني على  
طريقه، ولهذا سأذهب لرؤيتها صباح الغد دون تأخير.

- الوضع خطير يا «بييتا»، جماعتنا يتساقطون ويمكن أن تكوني تحت المراقبة.

- «جماعتنا»! «جماعتنا»! ومن هم جماعتي؟

- لا تنفعلي.

- أريد أن أعرف من هم جماعتي؟

- ولكن لماذا تنفعلين بهذه الطريقة؟ فأنت لم تريدي قط أن تنضمي.

- لم أرد، ولا أريد، ولن أريد يوماً. هذا ما كان ينقصني! لا أنضم حتى لو أرغموني.

- إذن؟

- نظراً إلى أنني لا أنتمي إلى أحد فيمكنني أن أفعل ما يحلو لي، وسأذهب غداً إلى سجن «لاس بيتاس»، فقد أعطتني هذه الفتاة رسالة منه في يوم من الأيام، ولعلها تحمل إليّ رسالة أخرى، وأنا هنا، أنتظر الشهر تلو الشهر، لأنّ الحزب العتيد قال لك إنه ينبغي لي أن أمكث هادئة وأن أتحلى بالصبر. لقد نفذ صبري. واسمعي مني يا سيدة «ثيليا»، لا تصدّقي كلّ ما يقوله لك الحزب، فلو كان صحيحاً أن الحلفاء سيدخلون قريباً وسيطيحون بـ«فرانكو» لما كان الشيوعيون مختبئين بهذا الشكل.

لم تكن تلك أوّل مرة تتجادلان فيها، لأنّ «بييتا» لم تكن تفهم الانضباط الحزبي، وكان يصعب عليها أن تستوعب كيف يمكن للسيدة «ثيليا» أن تقبل بأن يتخذ الآخرون القرارات بالنيابة عنها، وألا تُسائل الأوامر التي كانت تتلقاها من مصادر لا يعلمها إلا الله، كما تلقتها «أورتينسيا» ووالدها، وربّما مثل «المودينا» ابنة مديرتها و«كارمينا» التي كانت تعلقّ الملابس على الشرفة: كلّهم ماتوا.

- أتعرفين لماذا يختبئون؟ أتعرفين؟ إن كنت لا تعرفين فساخبركِ أنا. لأنّ الحرب قد انتهت مهما عاندم، ولا أحد هنا يريد الحرب. نحن

أقرب إلى الأموات من الأحياء، كلنا أموات ونعاني الوحدة. نحن وحيدون وهذا كل ما في الأمر، ونقطة في آخر السطر. لن يأتي أي أحد لنجدتنا. لن يأتي أي أحد. وأنتم مصرون على أن تقولوا «جماعتنا» و«جماعتنا» وكأثم في عالم وحدهم. وماذا بشأن البقية؟ لا أريد أن تقولي لي «جماعتنا» مرة أخرى.

لا أريد من هؤلاء الذين يظنون أنهم يملكون الحقيقة في قبضاتهم المرفوعة أن يملوا عليّ أفعالي. ليس هؤلاء سلطة عليّ، ولا أتأثر بما يقولونه وما لا يقولونه، وأنا لا أتبع أوامر أحد. أنا من «الآخرين». ونحن الآخرين متعبون، منهكون. مجهدون وفاض بنا الكيل. هل فهمتني يا سيدتي؟

لم تردّ السيدة «ثيليا». كانت تعرف أن «بييتا» بحاجة إلى أن تفرّج عن نفسها، وأنها ستنفجر بكاء من الضيق. لذلك اقتربت منها مستعدة لمعانقتها ومسح دموعها.

- لا أريد أن تحدّثيني بشأن «جماعتنا» مرة أخرى، فأنا لا أريد أن أعرف شيئاً عنهم يا سيدة «ثيليا». لا تأتي على ذكرهم مرة أخرى فأنا لا أحب إلا شخصاً واحداً ولا أعرف إن كان حياً أو ميتاً. هذا هو الشيء الوحيد الذي أريد أن أعرفه، وهذا ما ستقوله لي الفتاة التي أخفّته في بيتها. ستقوله لي لأنني سأذهب غداً لأسألها، وستجيبني.

حيثُذ انفجرت باكية. كانت السيدة «ثيليا» تعرفها جيداً، فتحت لها ذراعيها عندما رأتها تقترب باحثة عن كتفها.

- سأذهب غداً دون تأخير. غداً غداً.

- من المرجّح أنّها لا تعرف شيئاً.

عانقتها «بييتا» وهمست لها وسط النحيب دون أن تتمكن السيدة «ثيليا» من سماعها:

- لا بد أن جدّه يعرف.

بحثت «بييتا» عن «أماليا» في طابور السجن وهي تحمل الصغيرة بين ذراعيها. نظرت بقلقٍ إلى الزحام الذي فاق العادة لأنّ اليوم عيد «عذراء الرحمة»، لكن ابنة «سولي» لم تكن قد وصلت بعد إلى سجن «لاس بيتاس». لم تكن واقفة في طابور الكبار الذين كانوا يحاولون ضبط الأطفال المتراكضين في الأنحاء. اختلطت أصوات ضحكات الصغار بصرخات الكبار: «كفّوا عن الحركة». تقدّمت «بييتا» ببطء بسبب وزن الطفلة، ووسط الضحكات رأت ابن «ريمي» الصغير. الطفل الذي وُلد متأخراً ومريضاً أفلت يد والده وركض نحو «بييتا». لقد جاءت العائلة كلّها بمن في ذلك الحفيد المقيم في «ليون». تبادلوا القبلات والتّحيات، ووسط حرارة اللقاء أرّتهم «بييتا» الصغيرة بفخر.

حملها «بينخامين» وقد غمرته السعادة، وقال إنّ اليوم هو يوم شفيعة السجناء. يا لـ«بينخامين» المسكين. فرحت «بييتا» عندما سمعت أن «ريمي» ستمكن من احتضان حفيدها المقيم في «ليون». وبعد أن تبادلوا العناوين وتعاهدوا على اللقاء مرة أخرى، ودّعت «بييتا» عائلة «ريمي» ومضت تبحث عن «أماليا»، وعندما وصلت إلى بداية الطّابور استوقفها صوت يحییها:

- آنسة «بييتا».

مدّ إليها السيد «خابيير تولوسا» يده مصافحاً.

- ماذا تفعلين هنا؟ مضى وقتٌ طويلٌ منذ رأيتكِ آخر مرة. كيف

حالك؟

- بخير، شكراً.

أمسكت «بييتا» بغطاء رأسها الأسود الذي كاد يسقط عن رأسها. أشار الرجل الكبير إلى حدادها، وقال متأسفاً:

- لقد سمعت خبر أختك، ورغبت أن أرسل إليك رسالة بتعازي الحارة لكنني لا أعرف عنوانك. وعلى الرغم من التأخير فإنني أعرب لك عن عميق أسفي. حضرتك تعرفين مقدار الاحترام الذي أكنّه لشخصك، واعلمي أنني أشاطرك الشعور من كل قلبي.

- شكراً جزيلاً لك.

قلقت «بييتا» من هزال السيد «خابيير»:

- هل أنت على ما يرام؟

وزن الصغيرة أجبرها على أن تنقلها إلى ذراعها الأخرى. سأها السيد «خابيير»:

- من هذه الصغيرة الجميلة؟

- إنها ابنة أختي. انظري يا «تينسي»، أعطي قبلةً لهذا الرجل اللطيف.

ثم انحنى وقربت وجه الصغيرة إلى وجه العجوز، لكن «تينسي» لا تجيد التقبيل فوضعت خدّها وانتظرت أن يقبلها هو.

- هل أنت مريض يا سيّد «خابيير»؟

- لست مريضاً جداً، عندي رشح خفيف فقط.

- وجهك شاحب.

- الرجل المريض يعيش إلى الأبد. لا تقلقي. يمكن القول إن سبب شحوبي هو أنني رأيت شبحاً.

- وأنا أتمنى لو أرى شبحاً.

لم تجرؤ «بييتا» على سؤاله عن حفيده. تمنى السيد «خابير» تولوسا أن يسألها عنه، لكنه لم يسأل. كلُّ أمعن النظر في عيني الآخر باحثين عن إجابات، ولكن لم يصُغ أيُّ منهما أيَّ سؤال. كلاهما يبحث عن نظرة متواطئة ليتغلبا على الخوف من السؤال. وبعد بضع دقائق من تبادل النظرات قررت «بييتا» أن تتكلم.

نظرت حولها ثم أمسكت بذراع العجوز وطلبت من الواقفين خلفه في الطابور أن يحجزوا له المكان.

- لو تكرمتم، احجزوا لنا المكان دقائق.

أبعدته بضعة أمتار عن الطابور، وأخذ السيد «خابير» لحظة نفساً عميقاً. شجع نفسه وفكر في أن «بييتا» قادرة على أن تحرره من قلقه. لعل حفيده لم يمُت. فكر لحظة، لحظة واحدة عابرة أن «بييتا» ستزف له خبراً سعيداً، ولكنها اقتربت من أذنه وسألته بصوت خفيض. ولم تكن الكلمات التي سمعها هي الكلمات التي تمنّاها:

- أتعرف شيئاً من أخبار حفيديك يا سيدي؟

نكس السيد «خابير» كتفيه وأطرق برأسه. منعه اليأس من قول أي شيء حتى كررت عليه السؤال:

- أتعرف شيئاً من حفيديك؟

أجابها دون أن يرفع عينيه عن الأرض:

- آخر مرة رأيته فيها كانت يومَ رافلك ليوصلني إلى البيت. قال إنه لن يتمكن من التواصل معي فترة طويلة، وطلب مني أن أتحمّل بالصبر.

- ولم يبلغك منه أي خبر منذ ذلك الحين؟

رفع السيد «خابير» عينيه وأخفض صوته:

- قال لي إنه في خطر، وأنه سيذهب إلى مكانٍ بعيد، ورجاني ألا أسأله عن أي شيء.

طلب منه ألا يسأل عن أي شيء، رجاء. وعد السيد «خابيير» بألا يسأل. ولم يسأل على الإطلاق. لم يسأل على الرغم من أن دقائق قلبه تسارعت عندما رأى «بييتا»، لم يسألها عنه قطّ على الرغم من أنه فهم أنها حبيبان عندما رأى نظراتهما يومَ رافقاه إلى البيت. لم يسأل على الإطلاق، لأنّه من الأفضل ألا يسأل، حتى لو شكّ في أن «بييتا» تعرف مكانه على الأقل. ولكنه سيخلّ الآن بوعده لحفيده.

فقد مضى الكثير من الوقت وقد يكون حفيده ميتاً. سيسأل، على الرغم من أنه من الأفضل ألا يسأل:

- لديك أخبار بشأنه، أليس كذلك؟

نفت «بييتا» بحركة مُمعنة في الأسى دون أن تنطق بأية كلمة.

بحث العجوز عن المزيد في نظراتها، ليجد في تهربها أن الحقيقة منقوصة.

- أنت تعرفين أكثر مما أعرف، أنا متأكد.

- لماذا تظنّ أنني أعرف يا سيد «خابيير»؟

- لأنك تتجنبين النظر إليّ مباشرة.

- أنا لا أعرف شيئاً، وحتى لو كنت أعرف لما طاوعني قلبي لأخبرك. لا تكتب على نفسك الخسارة، فمن يبحث عن الخسارات سيجدها.

- لن أخسر الكثير يا آنستي. إن كان ما جرى هو أنني خسرتُ حفيدي فسأكون قد خسرت كل شيء عندما أخسر حفيدي.



أخفض صوته أكثر ليضيف إثمهم سينطقون بالحكم على «إلبيرا». لم يرغب في قول كلمة «إعدام». بلع ريقه وقال إثمهم طالبوا بإيقاع أشد عقوبة بحقها. أخرج منديلاً من جيبه ومسح دموعه:

- سينتهي بها المطاف أمام فصيل الإعدام. مثل أختك يا آنسة «بييتا». مثل أختك.

احتضنت «بييتا» الصغيرة وراحت تبكي. شدّت «تينسي» غطاء رأس «بييتا» وبكت معها ولمست بأصابعها الصغيرة فم خالتها فانزلقت أصابعها على شفيتها.

- هيا بنا يا سيد «خابيير»، حتى لا يأخذوا مكانك.

الأهالي الذين كانوا في بداية الطابور بدؤوا بالدخول إلى السجن. أمسكت «بييتا» بالعجوز من ذراعه. كان يبكي ويقول مراراً وتكراراً إن حفيدته ما تزال في السادسة عشرة من عمرها.

- ادخل ولا تدغ حفيدتك تراك وأنت تبكي. سأنتظرك هنا.

سيطرت «بييتا» على دموعها وتابعت بحثها عن «أماليا». سارت عكس اتجاه الطابور حتى وصلت إلى نهايته، وعندما فقدت الأمل في العثور عليها سلّمت عليها امرأة بهزة من رأسها. كانت ترتدي نظارة سوداء وكانت تعتمد على عكاز للمشي. بدت عجوزاً، لكنها لم تكن كذلك. كانت تميل يمنة ويسرة وتستند بثقل إلى العكاز وكأنها تعلّمت المشي الآن.

مشّت إليها «بييتا» وعندما اقتربت منها عرفت أنّها الفتاة التي تبحث عنها. نعم، إنها «أماليا» ابنة «سولي» من قرية «بينياراندا دي براكامونتي» المتطوعة مع منظمة «الإغاثة الحمراء»<sup>(1)</sup>. تأملت «بييتا» نظارتها التي تشبه نظارات العُميان:

---

(1) منظمة شيوعية تأسست سنة 1922 لتقدّم الخدمات والدعم اللازم للسجناء الشيوعيين في كل أنحاء العالم.

- ماذا حصل لعينيك؟

- ذهبتُ في زيارةٍ إلى «الداخلية».

في اللحظة التي قالت فيها إنها زارت «الداخلية» رفعت «أماليا» نظارتها لترىها محجر عينها اليسرى.

فارغاً.

شعرت «بييتا» بالدوار، وغطت وجه الصغيرة.

- لا تغطي وجهها، دعيني أشاهد جمالها. ولكن لماذا تبكين؟ هيّا هيّا لا تبكي، فالبكاء يسلبك جمالك.

لما كانت تريها الصغيرة، مسحت دموعها بغطاء رأسها واقتربت من أذن «أماليا»:

- أتعرفين شيئاً من أخبار «الجاكيت الأسود»؟

- لا أعرف أحداً بهذا الاسم، وأنتِ كذلك. أتفهميني؟

كرّرت «أماليا» سؤالها عندما رأت أن «بييتا» لم تردّ:

- أتفهميني؟

- إذا كنتِ لا تعرفين هذا الذي لا تعرفينه، فعلى الأقلّ أخبريني إن كنت تعرفين شيئاً من أخبار الشاب الذي رافقه.

- يا لها من طفلةٍ جميلة.

- أجيبيني، من أجل الطّفة، فقد قتلوا أمّها، ومن يدري إن كانوا قد قتلوا والدها أيضاً.

- والدها على قيد الحياة.

- وماذا بشأن الآخر؟

- والآخر كذلك. كَفَيَّ عن الأسئلة وتعقّلي وعودي إلى بيتك،  
فليس من مصلحتك أن يروكُ معي.

وقبل أن تتمكن «بييتا» من طرح سؤالٍ آخر، اقتربت امرأةٌ من  
«أماليا». كانت قد خرجت تَوّاً من الزيارة، وابتسمت مشيرةً إلى طردِ  
كانت تحمله بيدها:  
- ها هو.

ردّت ابنة «سولي» على الابتسامة بمثلها وردّت بصوتٍ منخفضٍ  
دون أن تنظر إليها:  
- جيد، ممتاز، امشي، لا تتوقّفي.

نظرت المرأة التي تحمل الطرد إلى يمينها ويسارها وتابعت طريقها.  
وكذلك فعلت «بييتا» قبل أن تتوجه إلى «أماليا» بالسؤال مرةً  
أخرى:

- أخبريني ما هي طريقة الوصول إليهما، إذ ينبغي لي أن أخبر  
أحدهما أنّه صار أرملَ وأنّ عنده طفله. وعليّ أن أخبر الآخر أنّهم قد  
يوقعون بأخته العقوبة القصوى.  
- إنهما يعرفان كل شيء. هيا، اذهبي.

- أيعرفان؟ ومن أين عرفا؟ هل أخبرتهما أنتِ؟ هذا يعني أنّهما  
عادة. هل أخبرتهما أنتِ؟

- اسمعي، إنهما يعرفان ما ينبغي لهما معرفته، وليس من شأنك أن  
تعرفي مَنْ أخبرهما. اذهبي الآن إلى بيتك وتحلي بالصبر.

- لقد رأيتهما، أليس كذلك؟ لقد عادا.

قطّبت «أماليا» جبينها، ثم رفعت نظارتها من جديد وأرثها عينها  
المقلوعة، وزجرت «بييتا»:

- لم أقل لأحد من رأيت ومن لم أر. لم أقل هذا لأحد ولن أقوله.  
اذهبي إلى بيتك.

لم تقله لأحد ولن تقوله لها أيضاً. وعلى الرغم من ذلك فقد  
أخبرتها بالكثير. ستذهب «بييتا» إلى البيت، ودّعت «أماليا»، وابتعدت  
عنها مبتسمة. اتجهت إلى باب السجن لتتظر جدّ «إليرا» هناك.

ستقول له إن حفيده على قيد الحياة.

على قيد الحياة.

\* \* \*

الأمهات اللواتي ينتظرن زيارة أبنائهن، وقفن قلقاتٍ في الساحة ناظراتٍ إلى الباب. وكذلك الجدّات ومن بينهن «ريمي». كنّ يراقبن المدخل بقلق. بعضهنّ كنّ يتساءلن عن قدرتهنّ على تمييز أبنائهن، وبعضهنّ كنّ متأكّدات من أنّهن لن يعرفنّ أبناءهن. وقفت إلى جوار «ريمي» امرأةٌ ظلّت تشدّ على يديها حتى جرحتهما بأظفارها. فُتِحَ الباب. دخلت أولاً طفلتان تلبسان ثياب الحداد. لا يتجاوز سنّ الكبيرة الست سنوات، وكانت تمسك بيد أختها.

- أهاتان هما؟

- لا أعرف، لم أرهما منذ أربع سنوات. لا أعرف، لا أعرف.

المرأة الحائرة كانت تلك التي جرحت يديها بأظفارها. كانوا قد اعتقلوها هي وزوجها في بدايات الحرب، بعد أسبوعٍ من إنجاب ابنتها الثانية. بقيت الطفلتان مع جدتهما لأبيهما، وظلّت هي تنتقل من سجنٍ إلى سجن، وجاؤوا بها مؤخّراً من «ساتور راران». كان دير رهبانٍ قد حوّل إلى سجن على الحدّ بين محافظتي «غبيوثكوا» و«بيشكايا»، وهناك وصلتها الرسالة الوحيدة التي أرسلتها حماتها. قالت فيها إنّ ابنها قد مات وأرسلت إليها صورةً للطفلتين. وكتبت إليها إنّها ادّخرت بعض المال لتلتقط صورةً لابنتها حتّى تتمكن من رؤيتهما.

ولكنّها لم تتمكن من رؤيتهما. مزّقوا الصورة أمام عينيها لأنها رفضت أن تصلي صلاة المسبّحة، ثم مزّقوا الرسالة ببطء. وعندما جاءت إلى سجن «لاس بيتاس» علمت أنّهم أعدموا زوجها رمياً بالرصاص منذ ستين.

- الصّغيرتان ترتديان ثياب الحداد، لا بدّ أنهما ابتتاكِ.

مشت الصّغيرتان مذعورتين إلى وسط السّاحة وقد شدّت كلّ منهما قبضتها على يد أختها. اقتربت منهما الأمّ، انحنت، نظرت إليهما من الأعلى إلى الأسفل وسألتهما عن اسميهما. عندما سمعت باسميهما أخذت نفساً عميقاً:

- أنا أمكما.

وفتحت ذراعيها بانتظارهما، ولكن الصّغيرتين لم تُفلت إحداهما يد الأخرى. ولم يبدُ أنّهما عازمتان على الاقتراب إلى الحضن الذي يتظرهن.

- إنّها أنا، أنا ماما.

لم تنتظر أكثر: احتضنت طفلتيها عندما بدأت بالبكاء. بعد انتهاء الزيارة خيم صوت بكاء الأمّ المفجوعة على المجمع الثاني يميناً.

- بنتاي لا تعرفانني. لقد خافتا مني. أصبتهما بالذعر.

بحث رفيقاتها عن كلمات تخفف عنها:

- لا يا بنت الناس، كلّ ما في الأمر إنّهما صغيرتان جدّاً، وللسجن

هيئته.

لم تكن «ريمي» راغبة في سماع صوت نحيب المرأة. جلست على كرسيّ القشّ الذي أهدها إياها «بينخامين»، وراحت تستذكر حلاوة قبلاّت حفيدها، وأحضان ابنها الصّغير وضحكاته المجلجلة، والضجّة التي أحدثها عندما ركض نحوها وهو يحجّر حفيدها الذي وُلد في «ليون» من يده، وبصعوبة كان قادراً على أن يجاري سرعته.

استحضرت قبلاّتها لها، وقبلاّتها لهما، التي طبعتهما على خدودهما بنظرة غائبة، مثل نظرة «إلبيرا» الصّغيرة ذات الشعر الأحمر التي لن تموت. ضاعت إلبيرا في نظرة عيني جدّها الزرقاوين المستحيلتين. عيناه

اللتان يسكنهما البحر، واللتان تذكرانها بعيني أمها التي تُنزل عليها السَّكينة دائماً. ولكنها اعتقدت اليوم أنها رآته وهو يبكي. نعم، لقد رآته يبكي، ورآته وهو يحاول تخفيف البحر بمندبل.

- أخذنا كفايتنا من أحلام اليقظة. هيا إلى العمل.

قالت ذلك «توماسا» وصفقت يديها واقتربت من «سولي» لتكسر عزلتها. كانت «سولي» ترمش بعينيها وهي جالسة على حصيرتها قرب جدار الممر، محاولة أن تحتفظ في أعماق أعماقها بدقائق الزيارة التي أمضتها مع ابنتها. دقيقة دقيقة. كانت كلها عشر دقائق.

- قلتُ هيا إلى العمل! هيا يا «سولي» دعينا نشاهد ما لديك.

كانت «أماليا» ترتدي نظارة عميان، ولم تخلعها. ولكنها ترى. عرفت «سولي» أنها ترى لأنها كانت تستجيب لحركاتها، ولكنها اكتشفت عكازها عندما رفعت يديها. كانت تحمل عكازاً أيضاً.

- «سولي!» ألا تسمعينني؟

تركت «سولي» مشهد ابنتها في قاعة الزيارة على إيقاع صفقات «توماسا» وصرخاتها.

- كيف يمكنني ألا أسمعك وقد أقمتِ القيامة؟

- اللعنة، لا يبدو أنك سمعتني. قومي فانظري إلى ما أرسلته ابتك.

ليس من السهل العثور على الرسائل التي تصل من الخارج، فهناك موظفة تفتش الطرود تفتيشاً دقيقاً، وتصادر أي شيء يثير الشبهات قبل تسليم الطرود للسجينات. منذ فترة اكتشفت «لا ثاباتونيس» السفرطات ذات القاع المزدوج، وما عاد يمكنهنّ استخدامها الآن.

- سنلقى مصيراً أغبر إن كانت «لا ثاباتونيس» هي من مزقت هذا الطرد من كثرة التفتيش.

فحصت «سولي» كل الأشياء التي أرسلتها ابتتها. من المهم ألا تضع منهنّ أية كلمة هذه المرّة، لأنهنّ يجهّزن للهرب من السجن.

نعم: هرب «سولي». من المهم ألا يكتشفوا منصبها. فبعد أن قبضوا على ابتتها ارتأى الحزب أنّه من الخطير أن تبقى في قبضة العدو.

- احرصى على حبّات الفلفل الأخضر.

قالتها «توماسا» مُحذرة «سولي» فقد قضمت قبل شهر حبّة لتجد أنّها عصّت نصف جريدة «عالم العمّال»<sup>(1)</sup> المكتوبة على ورق الإنجيل<sup>(2)</sup>. لم يفهم أحدٌ كيف تمكّنوا من نسخ الجريدة بهذا الخطّ المتناهي الصّغر. أبدين جميعاً إعجابهنّ بحجم الجريدة: لعلها كانت أصغر من علبة سجائر.

ولكن حبّات الفلفل كانت فارغة هذه المرّة.

إنها داخل السفرطاس، تحت رز الباييا<sup>(3)</sup> الشهيّ، حيث وجدت «سولي» ورقة محسّوة داخل الجلد الذي يغلف السجق.

- ها هي!

بسطت «سولي» الورقة وقرأت بصوت عالٍ: «تمّ الاتفاق على التاريخ، بموافقة ضيفة الشرف. «ارفعوا الستارة» تستمر دون أي تغييرات. حظاً سعيداً أيتها الصّغيرات!»

---

(1) موندو أوبريرو: الجريدة التي كانت تصدر عن الحزب الشيوعي الإسباني. انطلقت سنة 1931 واستمرت بشكل سرّي في أثناء فترة حكم فرانكو.

(2) نوع من الورق الخفيف، يُستخدم لطباعة الكتب السمكية مثل الأناجيل والموسوعات والقواميس.

(3) طبق إسباني تقليدي مكوّن من الأرزّ والسّمك وثمار البحر أو الأرزّ واللحم الأبيض.



القراءة بصوت عالٍ فاجأت «إليرا». «أيتها الصغيرات» سمعت هذه الصياغة من شخص واحد من قبل<sup>(1)</sup>. لكنها لن تقول لأي أحد إنها تشك في أن لأخيها علاقة بهذه الكلمة.

لن تقول لكنها ستتنبه لأدق تفاصيل العملية. لن تقول شيئاً، لأن «توماسا» صارمة جداً، وكذلك «سولي»، وإن ساورهما الشك في أنها تظن أن أخاها هو الذي أرسل الرسالة، فسيتابها القلق وسيخشيان عليها من الإخفاق في مهمتها. ولكن «إليرا» لن تتوتر، بل ستفتح عينيها جيداً. وعندما تتظاهرُ ضيفةُ الشرف السيدة «أنتونييتا كولومي» بالإغماء، ستوقفُ عرضَ مسرحية «لا تيمبرانيكا» وستنزل هي وكل رفيقاتها عن المسرح. ستعمّ الفوضى، وفي أثنائها سيتمكنُ اثنان من الرفاق المتكررين بالزي الرسمي الذي خاطته «ريمي» في مشغل الخياطة من إخراج «سولي». لن تقول إنها تشك في أن أحدهما سيكون أخاها. لن تقول شيئاً، لكنها ستفتح عينيها جيداً. وستستغلّ الفوضى لتقترب من البوابة.



---

(1) تُكتب كلمة الصغيرة هكذا: Chiquita ولكنها كانت تأتي على لسان «باولينو» فقط كـ Chiqueta وهو خطأ في الإملاء واللفظ، ولذلك عرفت «إليرا» أن لأخيها علاقة بالرسالة.



مثلت «أتونييتا كولومي» أمام عيون السجينات المبهورات في «لاس بينتاس» يوم عيد جميع القديسين<sup>(1)</sup>. كانت «إليرا» تنظر إليها باعتزاز، وتحرك شفيتها على إيقاع الأغنية التي كانت الفنانة تؤدّيها على المسرح.

استندت إلى باب الماخور

لترى أنوار أيار بين الشهور

لم يصدّق أحد «إليرا» عندما قالت إنّ السيدة «أتونييتا» وافقت على رعاية عرضهنّ لمسرحية «لا تيمبرانكا». لم يعتقد أحد أنّها ستردّ على الرّسالة التي أرسلتها إليها «إليرا» بعد أن أخذت الموافقة من «لا بينينو». كتبت إليها معبرةً عن حبّها وإعجابها الشديد بها، وطلبت منها باسم كلّ السّجينات أن تكون ضيفة الشّرف للمسرحيّة وأن تغني أغنية واحدة. امتلأت الساحة بتصفيق حادّ لم يُسمع مثله من قبل في السّجن.

ماج الجمهور بعبارات مثل «سلمت» و«أحسنّت» و«جميلة» لما سلّمت «إليرا» باقة وردٍ لضيفة الشّرف عندما أنهت أغنيها. وقفت «لا بينينو» والأخريات وابتسمت ابتسامة متغطرة من مكانها في الصف الأول. هي الأخرى كانت تشعر بالفخر، فقد استقبلت أهمّ ضيفة في تاريخها. صفقت بحماسة وهي تنظر بطرف عينها إلى المقعد الفارغ عن

(1) عيد يُحتفل به عند المسيحية الغربية في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر).

يمينها. هناك ستجلس السيدة «أتونييتا»، إلى جوارها لتشاهد عرض مسرحية «لا تيمبرانيكا». رأتها وهي تقبل «إلبيرا» عندما استلمت الباقة، ثم نزلت عن المنصة وهي تمسك بذراعها.

عندما وصلت الفنانة إلى المقعد الفارغ، ربتت على شعر الصبية الأحمر ثم طبعت قبلةً على خدها وابتسمت لها. قبلت صورة المسيح المتدلية من رقبة «لا بينينو» وجلست. كلهن شعرن بالغيرة من «إلبيرا»، بما في ذلك «لا بينينو»، لأن الفنانة قبلت الصورة المتدلية من رقبتها ولكنها لم تبتسم لها. بالكاد نظرت إليها: قدّمت إليها الصورة فقربتتها الفنانة من شفيتها دون أن تمسّها، ثم جلست على يمينها ووجهت نظرها إلى الأمام.

كان السجن قد تحوّل إلى مسرح كبير، ولم تكن ساحة السجن كبيرة بما يكفي لتسع لكلّ السجينات، لذلك سمحوا لمن لم يكن هنّ متّسع في الساحة أن يقفن على النوافذ، وكأنتها شرفاتٌ تطلّ على مقصورة مملوءة عن آخرها بالسجينات والسجّانات اللواتي لن يفوتن فرصة رؤية «كولومي». وفي الصفوف الأخيرة قُرب الباب الحديديّ جلس السيد «فيرناندو» وكان قد طلب إذنًا حتى تحضر معه زوجته السيدة «أمبارو». كان من الممكن أن يجلسا قرب «لا ثاباتونيس» في الصفّ الأوّل، لكن السيدة «أمبارو» رفضت زاعمةً أنّها تفضّل أن تجلس قرب الباب لأنها تخاف من الازدحام. ولكنها في الحقيقة كانت خائفةً من السجينات.

أرعبها مظهر هؤلاء النساء التّحيلات حالما رأتهم، وفضّلت ألا تختلط بهن.

صرخت «توماسا» من وراء الكواليس

- فلترفع الستارة!

فردّت الممثلات:

- فلترفع!

مكتبة

t.me/soramnqraa

بدأ المشهد الأول. أدّت «توماسا» على أفضل وجه دور «لا موروندا» الذي كان من المفترض أن تؤديه «أورتينسيا»، وظلّت «إليرا» تنظر إلى السيدة «كولومي» من مكانها على المنصة وهي تؤدي دور «ماريا». وفي المشهد الثاني زعقت «توماسا» زعيقها الأعلى على الإطلاق وهي تؤدي دور «غابرييل» وتغني أغنية «لا تارانتولا»:

بغیضة هذه الحشرة

لا تقتلها حجرة

لا تقتلها عصاي

اللعنة على العنكبوت التي قرصتني

كانت تلك هي الإشارة التي اتفقوا عليها: العنكبوت. اتفقن على تجاهل ما كتبه «خوليان روميو» في كُتيب المسرحية، وتجمهرت كلّ الممثلات وضمنن أصواتهن إلى صوت «غابرييل» ليغنين أغنية «لا تارانتولا» وحينئذٍ ستتظاهر السيدة «أنتونييتا» بالإغماء.

وهذا ما حدث: انضمت كل الممثلات إلى «ريمي» في الغناء.

غنين بصوتٍ جماعي «العنكبوت».

إنها الإشارة.

تظاهرت الفنانة بالإغماء.

سقطت.

لم تتوقف الممثلات عن الغناء. رفعن أصواتهن حتى تجرّحت حناجرهن، وحلّقت الأغنية فوق أسوار السجن ووصلت إلى الخارج.

كان هنالك رجلان يلبسان الزي الرسمي، ويتظران الإشارة خارج الأسوار.

اللعنة على العنكبوت التي قرصتني

وعَمَّت الفوضى.

أظهر جنديان من الكتائب مُذكرةً عند الباب تأمر بنقل السجينة «سوليداد بيميتيل» من أهالي قرية «بيناراندا دي براكامونتي». حدث هذا في الوقت الذي أوقفت فيه الممثلة عرض المسرحية ونزلن جميعاً عن المنصة ليقتربن من ضيفة الشرف. حاولت «لا بينينو» أن تهفّف عليها وصرخت «لا ثاباتونيس» طالبةً أن يأتوا بالطبيب. صرخت «توماسا» قائلةً إنها رأت جرذاً، فبدأت السجينات اللواتي ملأن الساحة بالصراخ والركض من مكانٍ إلى آخر. رغبت السجينات اللواتي كنّ على النوافذ في النزول، ونزلن فعلاً.

تأخّر الطبيب ريثما وصل إلى الصفّ الأول، وبقيت زوجته في الخلف، وحاولت الواشية تهدئتها. مثلت «سولي» عند الباب المُفضي إلى ممر الخروج، ووقفت «ريمي» و«توماسا» على جانبيها. ركضت «إلبرا» نحوهم. ركضت حارسة البوابة إلى الساحة. وتبعها الخفيران المسلحان المسؤولان عن مراقبة السجن من الخارج، وتبعها جنديا الكتائب وهما يحملان مذكرة النقل. رأتهما «إلبرا» عندما وصلا وأمعنت النظر في وجهيهما. ابتعدت «سولي» عن «ريمي» و«توماسا» وتقدّمت خطوةً إلى الأمام:

- أنا «سوليداد بيميتيل»

اقتادها الجنديان من ذراعيها.

- تعالي معنا!

نظر أحدهما إلى عيني «إلبرا» مباشرةً وأمرها بصوتٍ أجش:

- وأنتِ! تعالي إلى هنا.

داعبت أصابع «إلبرا» إيزيم حزام «خواكينا» الذي كانت تحمله دائماً في جيبتها، ثم اقتربت. اقتادها الجندي من ذراعها كما فعل بـ«سولي» ثم استدار الأربعة.

أحياناً لا تقتضي الحاجة أن نطلب إذناً من الله حتى نخطط، وأحياناً لا تقتضي الحاجة أن نخاف من رضاه أو سخطه. ولكن قبل أن يصل جنديا الكتائب إلى باب الخروج صاحت «لا ثاباتونيس» من الخلف:

- قفوا مكانكم!

استدار الجندي الشاب نحوها بغضب:

- منذ متى يؤمر حماة الوطن بأن يقفوا في أماكنهم؟  
- حسناً، ولكنكما ذهبتما دون أن... ولأنكما أخذتما سجينتين لذلك...

أعطاهما الكتائبيّ مذكرة النقل وأمر الحارسة أن تفتح الباب في نفس اللحظة. قرأت «لا ثاباتونيس» الوثيقة وعادت تتلثم:

- ولكنها مذكرة لنقل سجينّة واحدة. وحضرتكما، حضرتكما أخذ... يعني، هذه، ما قصة هذه.

- سأخذ هذه لي، وسأعيدها غداً.

- آخر سجينّة أخذتموها بهذه الطريقة، أعدتموها في حالٍ يرثى لها.  
- وما المشكلة؟

- منعتُ مديرة السّجن أن تُؤخذ أية سجينّة بدون الإجراءات اللازمة.

- نادي المديرّة، ودعينا نحلّ الموضوع حالاً.

من آخر الممر اقتربت جمهرةٌ من الناس. كان السيد «فيرناندو» يمشي في الوسط قرب الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس». كان الطبيب يحمل السيدة «أنثونيتا كولومي» بين ذراعيه. تبعته زوجته السيدة «أمبارو» مبهورةٌ وهي تحدّق إلى وجه الفنانة الجميل الشاحب. كانت «ميرثيديس» تجاريها في خطواتها وكانت مبهورةٌ مثلها. أمّا «ريمي»

و«توماسا» فأخذتا تراقبان الواشية عن كذب. ركضت «لا ثاباتونيس» نحو «لا بينينو» وعرضت عليها مذكرة نقل «سوليداد بيميتيل».

- لا مشكلة، فليأخذها، ألا ترين أنني مشغولة؟

- ولكنهما يريدان أن يأخذا الأخرى.

- حباً بالله، دعيني وشأني.

حاولت «لا ثاباتونيس» أن تلح مرةً أخرى، وحاولت السيدة «أنتونييتا» أن تنزلق من بين ذراعي السيّد «فيرناندو».

- ستقع! ستقع! ألا ترى أنها ستقع؟

ودون أية عقباتٍ أخرى اجتاز الجنديان بوابة الخروج وأخذا معها السّجّينتين. ابتسمت «ريمي» و«توماسا» وهن ينظرن إلى رفيقتيهما تبتعدان وتمشيان على مهلهما. رأتهما الواشية عندما ابتسمتا.

عندما وصلوا إلى ناصية شارع «القلعة» بعيداً عن السجن، مسح الجندي الشاب على رأس الصبية ذات الشعر الأحمر: مكتبة سر من قرأ

- ماذا حدث لشعرك يا صغيرتي؟

ولم تكن الفنانة قد استفاقت من غيبوبتها بعد.

\* \* \*



ملابس جنود الكتائب التي خاطتها «ريمي» لتهريب «سولي» لم تكن القِطْع الوحيدة التي سحبتها خلسةً من قِبو السجن. لم تكن القِطْع الوحيدة ولا الأولى. فقد مضى وقت منذ بدأ مشغل الخياطة في سجن «لاس بيتاس» بتزويد الغيريا بملابس الشّتاء. فقد اكتشفت «ريمي» طريقة لمخادعة الموظّفة المسؤولة عن احتساب القماش والخيوط والوقت اللازم لخياطة القطعة الواحدة. كانت الموظّفة تراقب أوّل مرة يُقَصّ فيها القماش وتظل حاضرة والسجينات يخطن القطعة الأولى.

وبعدئذٍ كانت تسلّم الموادّ اللازمة التي تمّ احتسابها إلى بقيّة السجينات، وتكتفي بالتمشّي في المشغل دون أن تولي انتباهاً كبيراً لأعمال الخياطة. تكمن الخدعة في تغيير مكان القصّ، بحيث تسلّم السجينات المسؤولات عن القصّ إلى المسؤولات عن الخياطة كميةً قماش احتسبت الموظّفة أنها تكفي لقطعتين، لكنّها تكفي لثلاث قطع. الخياطة بسرعة، والدّرز، وإخفاء القطعة الثالثة تحت ملابسهنّ حالما ترفع الموظّفة بصرها، كلها أمورٌ تعتمد على المهارة، والمهارة تُكتسب بالتكرار.

هرّبت السجينات تحت تنانيرهنّ كلّ أنواع الملابس والبنطلونات والقمصان الداخلية والأغطية. مهارة «ريمي» تثبتُ أنّها أخفت قطعاً كثيرة تحت ملابسها، أمّا «توماسا» فكانت تفتقر إلى الخفّة. انضمت «توماسا» الإكستريمادوريّة ذات الجلد المصفرّ إلى مشغل الخياطة بعد أن عرفت أن قِبو سجن «لاس بيتاس» تحوّل إلى مركز دعم للغيرريا. تعلّمت بسرعة، كانت تقتصد في الخيوط وهي تخطط زيّ الجيش القومي، وتستفيض في استخدامها لتُثبتَ خياطة القِطْع التي ستدقّ الرجال

والنساء المرابطين في الجبال، ولكنها لم تكن قد تعلمت بعد كيف تخفيها دون أن ينكشف أمرها.

ولذلك كان تسلّم القطع لـ «ريمي» عندما تنتهي من خياطتها.

- «ريمي»، «ريمي»

- ماذا؟

- خذي.

كان يومَ عيد الموتى<sup>(1)</sup>. عندما عادت «ريمي» و«توماسا» يومئذٍ إلى المهجع الثاني يميناً في الطابور، عادتاً بصمت ونظام، شعرتا بالوحدة أكثر من أي وقت مضى. كانت تنورة «ريمي» منفوخة بفعل الغطاءين المخفيين تحتها.

- أبلينا بلاءً حسناً اليوم.

- نعم، أبلينا بلاءً حسناً.

نبرة صوتهما كشفت أن المرأتين تحاولان إخفاء حزنهما. اختلط اشتياقهما إلى رفيقتيهما بالفرح الذي غمرهما عندما رأوهما تغادران.

كانت سعادة، نعم، غمرهما إحساسٌ بالسعادة العميقة عند رؤيتهما أمام بوابة الخروج.

- انظري يا «ريمي»، لقد فتحوا باب القفص.

- ها قد خرجتا يا «توماسا»، ها قد خرجتا.

شعرت «ريمي» و«توماسا» لحظةً أنّهما حرّتان أيضاً.

---

(1) يوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، يُحتفى فيه بكل الأتقياء الموتى.

شعرتا بالحرية عندما شاهدتا رفيقتيهما حرتين. ولكن حرية رفيقتيهما زادت من إحساسهما بالأسر عندما استدارتا على أعقابهما وعادتا وحيدتين إلى الساحة. وحيدتين.

- هل أنت جائعة؟

- طبعاً جائعة. اللعنة، وكيف لي ألا أجوع؟

كانتا حزينتين.

«توماسا» تفكر في أولادها. دائماً تفكر في أولادها عندما يصيبها الحزن. أولادها الذين سحبهم ماء النهر.

- «ريمي»

- ماذا؟

- أتعرفين أن كل ما يسحبه النهر يظهر لاحقاً في البحر؟

- كل ما يسحبه التيار ينتهي به المطاف في قاع البحر.

في اجتماع الحزب الذي عُقد مساء ذلك اليوم عند المراحض تعين على «توماسا» و«ريمي» الانضمام إلى عائلة جديدة. ونظراً إلى أن «ريمي» كان تستلم طرود طعام و«توماسا» لا تستلم، فقد بحثتا عن عائلة لديها ما يكفي من الطعام. انضممن إلى عائلة مكوّنة من أربع سجينات، كان من بينهن اثنتان فقط تستلمان طرود طعام. انضممن إلى عائلة المرأة التي كانت تبكي يوم «عذراء الرحمة» لأنها لم تتمكن من تمييز بنتيهما. سألتها «ريمي» عن اسمها.

- «خوسيفينا».

- ومن أين أنت؟

- من «خيخون».

وسألتها «توماسا» عن البحر.

تركت «ريمي» و«توماسا» مكانهما في الممر الرئيسي وانتقلتا إلى الزنزانة التي تؤوي عائلتهما الجديدة بالإضافة إلى مجموعة من ست سجينات أخريات.

وعندما كانت «خوسيفينا» تريهما البلاطتين المخصصتين لكل واحدة منهما، أعلنت «لا ثاباتونيس» موعد العدّ. كانت قد لبثت النهار بانتظار عودة «إليرا». راحت وجاءت وهي تنظر إلى سجل الزيارات وعدّت السجينات مرة تلو الأخرى، وكأنّ العدّ قادرٌ على جعل «إليرا» تظهر من جديد.

ولكن «إليرا» لن تعود أبداً إلى سجن «لا بيتاس».

لن تعود.

لم تكن «لا ثاباتونيس» تعرف أن «إليرا» لن تعود. لم تكن تعرف أيضاً أن مذكرة نقل «سولي» كانت حيلة. ولم تكن تعرف أن السيدة «أنتونييتا كولومي» لم تفقد وعيها قطّ. بدأت العدّ من جديد خارج الموعد المعهود. عبست ملامحها عندما وصلت عند «توماسا».

- متى سيحضرون «إليرا»؟

لم تردّ «لا ثاباتونيس» فكررت السؤال:

- متى سيحضرون «إليرا»؟

زاد إصرار الإكستريما دورية ذات الجلد المصفرّ من قلق السجّانة. «توماسا» تعرف الإجابة. نظرت إلى عينيها مباشرة وانتظرت بصمت وقد بيّنت النية على أن تسأل مرة أخرى إذا لم تعطيها رداً. حدّجتها «لا ثاباتونيس» بنظرة طويلة، وقبل أن تشيح ببصرها عنها لفت انتباهها صوت آتٍ من وراء ظهرها:

- الأخت «ماريا دي لوس سيرا فينيس» تطلب منك التكرم بالذهاب إلى مكتبها.

كانت «ميرثيديس». لم تكن كلماتها «تطلب التكرم» بل كانت تأمر.  
عرفت «توماسا» أن «لا ثاباتونيس» خائفة من بسمتها اليابسة.  
استدارت تسريحة «أرريا إسبانيا» مع استدارة رأس صاحبتها المرفوع:  
- ماذا؟

- الأخت «ماريا دي لوس سيراينيس» تريدك في مكتب الإدارة.  
رأت سجينات المهجع الثاني يميناً «لا ثاباتونيس» وهي تمشي  
ناظرة إلى الأمام، وكانت تلك هي آخر مرة يرونها فيها.  
لم تعد «لا ثاباتونيس» مرة أخرى لتَهْزَ مفاتيحها وهي تغلق أبواب  
الممر الرئيسي الحديدية. لن تعود لتمدّ حبة حلوى بنكهة الليمون من بين  
شفتيها الحمراء وهي تراقب السجينات. ولن تعود لتهمس ببيان  
الحرب الأخير في قاعة الزيارة. لن تتمكن من احتقار الأهالي والسجينات  
مرة أخرى.

بات الجيش الأحمر مأسوراً ومنزوع السلاح.  
لن يرى أحدٌ «لا ثاباتونيس» مرة أخرى في سجن «لاس  
بيتاس».  
ولن يسأل عنها أحد.

\* \* \*



الأيام الأولى التي قضتها «إليرا» في تل «أومبريا» كانت أصعب فترة تواجهها على الإطلاق. كان يتعين عليها، وعليها وحدها، أن تثبت لـ«ماتيو» أن أخاها لم يرتكب حماقة عندما هربها. ولكنها استمتعت باليوم الأول على الرغم من كل تحفظات «ماتيو».

- لقد كدت تطيحُ بالعملية كلها. ينبغي للمصالح الشخصية أن تبقى خارج المعادلة. لا يمكنني أن أصدق أنك ما زلت تجهل هذا الكلام.

- لو كنت مكاني لفعلت ما فعلته يا «ماتيو»، فاغرب عن وجهي. لو كنت مكاني لفعلت الشيء ذاته وأنت تعرف ذلك جيداً.

- قد أعرف هذا وقد لا أعرفه، أمّا ما أعرفه جيداً فإن هذه الحركة ستكون الصغيرة كثيراً. ينبغي لك أن تسمح لـ«أماليا» بأخذها.

- هذا كلامٌ مرفوض. ستبقى معي.

كان الرجلان جالسين يذخران على صخرة، وقد أسندا سلاحيهما إلى ركبهما في انتظار أن تغير «سولي» و«إليرا» ملابسهما. كانا قد خلعا زيّ جنود الكتائب ووضعاه في حقيبتَي الظهر. ظلت «أماليا» واقفة. كانت بعيدة بضعة أمتار عن الصخرة مدبرةً ظهرها لهما واستندت إلى عكازها، وقد تاهت نظرتها في البعيد. كانت قد أخبرت «خايمي» منذ قليل أن «بييتا» جاءت لتبحث عنها عند باب سجن «لاس بيتاس».

- جاءت لتسألني عنك.

- كيف حالها؟

- قلقة.

- هل تعرف أنني عدت؟

- خمنت. هل تريدني أن أخبرها بعودتك؟

- لا.

ينبغي لها أن تبقى خارج الموضوع. هذا ما يريد «خايمي»، يريد لها أن تبقى خارج الموضوع. فقد كفّ عن الكتابة إليها منذ عرف أنّ الرسالة التي بعثها إليها من فرنسا أدّت بها إلى دهاليز «الداخلية». لن يعرضها للخطر مرة أخرى.

- عندما ينتهي كل هذا سأذهب إليها.

- استمع إليه «ماتيو» وهو يفكر في ابنته.

- وأنا سأذهب لأخذ ابنتي.

- كانت تحملها بين ذراعيها.

- وكيف هي؟

- رائعة الجمال.

جاءت إليهما النساء بعد قليل. كنّ يرتدين بنطلونات وجاكيتات أكبر كثيراً من قياسهنّ. ابتسامة «إليرا» المشرقة كانت على النقيض تماماً من نظرات «سولي» القلقة. استدارت «أماليا» عندما سمعتهن. اقتربت منها أمّها وعانقتها مرةً أخرى وقد غمرها نفس الألم الذي أحسّت به عندما عانقتها عند الناصية التي يتقاطع عندها شارع «القلعة» و«مانويل بيثيرا» حيث كانت «أماليا» تنتظر الفارين لترافقهم إلى التلّ.

- ماذا فعلوا بك يا ابنتي!

- أنا بخير، لا يحتاج الإنسان إلى عشرين اثنتين ليري. وساقى لا

تؤلمني. ألم تري كيف صعدتُ إلى هنا يا أمي؟ هيّا بنا.



استدارت «إليرا» حول نفسها لثري ملابسها لأخيها:

- انظريا «باولينو». ألا أبدو كأني صبي؟

فعلاً، كانت تشبه الصبيان.

- لم يعد اسمي «باولينو».

- حقاً؟

- نعم.

- وما اسمك؟

- اسمي «خايمي». أيعجبك؟

- «خايمي». نعم، إنه اسم جميل.

وبعد أن صمتت لحظة لتفكر، كفت كُمي جاكيتها وسألت دون أن تزول ابتسامتها:

- وهل ما يزال اسمي «إليرا»؟

كفت «أماليا» كُمي جاكيت أمها وهي تتكلم مع «خايمي ألكانتارا» الذي كان يرتدي قبعة ذات حافة.

- ينتظركم «الشحرور» وجماعته في مكان اللقاء عند «إل بيكو مونتيرو» عند الساعة الثانية عشرة.

- كم عددهم؟

- سبعة عشر.

- عددهم كبير، علينا أن ننقسم إلى مجموعتين.

جاء «الجاكيت الأسود» من فرنسا ليُنجز مهمتين. تمثلت مهمته الأولى في تحرير «سوليداد بيميتال» مباشرة، قبل أن يكتشف العدو أنها من إدارة الحزب في «سالامانكا»، وإرسالها مع ابنتها إلى فرنسا لحماية الإدارة في «سالامانكا» من أي خطر.

وتتمثل المهمة الأخرى في إعادة تنظيم الغيرريا وتشكيل «تجمع مقاتلي الغيرريا في تل أومبريا». فقد قامت كل الأحزاب اليسارية في المنفى بتوحيد قواها في تجمع واحد لمجابهة الفرانكوية تحت مسمى «الاتحاد الوطني الإسباني»، حتى يلزم دول الحلفاء بالتدخل عندما تنتهي الحرب في أوروبا، ولذلك كان من الضروري تشكيل جيش حقيقي من مقاتلي الغيرريا، ليثبت أن الكفاح المسلح في إسبانيا ما زال مستمراً.

- ما زال بإمكانك أن تفكر في شأن «إلبريا»، دعها تذهب مع «أماليا».

- سبق أن قلت لك يا «قرطبي» إنها ستأتي معي.

خشيت «إلبريا» من أن يتغلب إلحاح «ماتيو» على قرار أخيها بأخذها معه إلى التل. منذ خرجوا من «لاس بيتاس» ومشوا إلى شارع «القلعة» ظل «ماتيو» يلح قائلاً إن أخذ «إلبريا» إلى التل ضرب من الجنون. وافقته «أماليا» الرأي واقترحت من البداية أن تبقى الصبية معها في «غالاباغار».

- بيت «غالاباغار» آمن، ستكون محمية هناك، ويمكنك أن تنزل من التل لتراهي بين الفينة والأخرى.

ولكن «خايمي» لم يقتنع، فهو لن يتخلى عن أخته مرة أخرى.

- ستأتي معي. لا تلحوا. اذهبي أنت إلى «غالاباغار» ولا تخرجي من هناك قبل أن نُنزل أمك. إذا لم تصلك أوامر أخرى فسوف نلتقي هناك بعد ثلاثة أشهر.

تنفست «إلبريا» الصعداء. جلست على يسار «خايمي» وأمسكت

بيده:

- سأذهب معه.

تعانقت «سولي» و«أماليا» مرةً أخرى. توادعتا وقالت كلُّ منهما  
للأخرى «لا تخافي عليّ». ستبقى «سولي» ثلاثة أشهر في تل «أومبريا»  
وهي الفترة المناسبة قبل أن تبدأ رحلة الهرب إلى فرنسا، وستختبئ ابنتها  
خلال هذه الفترة في نقطة الدّعم في «غالاباغار»، وهناك سيأتي رفيقان  
لمساعدتهما في تجاوز الحدود وعبور جبال «البيرينيه»<sup>(1)</sup> سيراً على الأقدام.  
عندما انتهى عناق الأم وابنتها طلب «خايمي» من «أماليا» أن تفعل شيئاً  
لأجله. كان يخشى أن ينتقموا من جدّه بعد هروب «إلبيرا».

- احرصى على أن يخرجوه من «مدريد»

- لا تقلق، سأتولّى الموضوع.

- فليعدّ إلى «بامبلونا».

- اتفقنا.

بدأت «أماليا» في هبوط التلّ ببطء، وبدأ الباقون بالصعود.

كانت الساعة تشير إلى السادسة من مساء الثاني من تشرين الثاني  
(نوفمبر) سنة ألف وتسعمائة واثنين وأربعين.

وكان المطر قد بدأ بالهطول.



---

(1) اليرينيه أو البرانس: سلسلة جبلية تمثّل الحدّ الطبيعي بين فرنسا وإسبانيا.



لم يكن «ماتيو» يحب تواجد النساء في الجبل. تحمل «سولي» لأنها لن تطيل المكوث، و«إليرا» لأنها قالت له إنها حضرت ولادة «أورتينسيا». تقبلها لأنها أثبتت أنها شجاعة مثل أخيها، ولأنها تعلّمت حمل السلاح مثل الرجال. درّبها هو بنفسه، وعلمها كيف تطلق النار من بندقيته القصيرة، وكيف تميّز أصوات الأسلحة. كانت تجيد إطلاق النار من أيّ سلاح، لكنها كانت تفضّل مسدّسها الصغير الذي كانت تعلقه على حزامها. ولديها معرفةٌ سياسية متقدّمة بمراحل عن أغلبية مقاتلي هذه المجموعة. تعلّمت في السجن كلّ ما تعرفه عن السياسة.

وكانت تعلّم الرجال الذين لا يجيدون القراءة والكتابة في الصفّ الميدانيّ. كانت ذكيّة وتعرفُ وهي في السادسة عشرة أكثر ممّا سيعرفه الكثيرون ممن سيموتون بعد عمرٍ طويل. وكانت قوية، فقد سُفيت خلال أقلّ من شهر من الحمّى التي كانت تصيبها في الليالي، وكادت تشفى تماماً من السعال الذي أصابها في «لاس بيتاس». كانت تتنفس هواء الجبل بشوق، وعلى الرغم من أنّها كانت تبدو صغيرة طريّة العود إلا أنّها كانت تحمل حقبة الظهر والبندقية ولم تكن تشكو أبداً من المشي الطويل. لم تكن تعرقل قطّ عندما كانوا يمشون القهقري<sup>(1)</sup> في الثلج لكي لا تكشفهم خطواتُ أقدامهم. ولكنها امرأة، حتى إن كانت تشبه الصبيان، ولا ينبغي للنساء أن يتجوّلن في الجبال مثل القطط البريّة. لقد تقبلها «ماتيو» لأنها أخت «الجاكيت الأسود»، وتقبلها لأنها كانت تكلمه بشأن «تينسي».

(1) قَهَقَر الشَّخْصُ: رجع إلى الوراء من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.

- «إلبيريتا»، حدثيني عن «تينسي».

- عن الأم أم الابنة؟

- عن الاثنين.

- عينا ابنتك أشدّ زرقاً من السماء، ولم تكن «أورتينسيا» تسمّيك  
«القرطبي» ولا «ماتيو»، كانت تسمّيك «فيليب».

كلّما أخذ يطلب منها أن تحدّثه بشأن «تينسي» كانت «إلبيرا» تقول  
له إنّ زوجته كانت تناديه باسم «فيليب». كان يحبّ استذكار «أورتينسيا»  
بالاستماع إلى «إلبيرا». فعلاً، كان يتحمّلها لأنّها كانت تحدّثه عن «تينسي».  
عندما تلفظ اسم زوجته وتُتبعه باسمه كان يذوب إذ يشعر بأنّها جمعتها  
لحظةً معاً. «أورتينسيا» «فيليب». ولكنها كانت امرأة ولا ينبغي للنساء أن  
يعشن كالوحوش الضارية في الجبل.

ما كان يجدر به «الجاكيت الأسود» أن يحضرها معه، وهو يعرف  
هذا جيداً. ولذلك كان يتركها معه عندما يخرج في المهمّات، كما هو الحال  
الآن. قال لها إنّ الحراسة مهمتها وهي صدّقة. ولكن لا يمكنه أن يخدعه،  
والتعذّر بأنّ «إلبيرا» لم تشارك من قبل في عملية اختطاف ليس مقبولاً.  
هنالك مرة أولى لكلّ شيء. ومن غير المقبول أيضاً أن يقول إنّها صغيرة  
جداً، فجماعة «الشحور» تضمّ اثنتين من بناته، وكلاهما لم تبلغا السادسة  
عشرة ولم تبقياً يوماً لحراسة المخيم. ولكن «الجاكيت الأسود» ما زال  
يعامل أخته على أنّها الطفلة التي تركها وراءه في ميناء «أليكانتي»، وهذه  
الصغيرة لم تعد طفلة منذ خرجت من باب السجن، أو بالأحرى: عندما  
دخلته، من يدري. إنها امرأة، ولذلك ما كان يجدر به أن يحضرها.

لا. ما كان يجدر به أن يحضرها.

«إل بيكو مونتيرو» تجمّع من الصخور المحاطة بتوت العليق في  
أعلى التلّ. الحجارة الدائرية شكّلت ساحةً مستوية في المنتصف تستخدمها

الغيرريا مخيمًا أساسيًا، وعلى بُعد بضعة أمتار من أشجار توت العليق شقٌّ عميق في الصخور، يستخدمونه مخزنًا لاحتياجاتهم، يضعون فيه الأسلحة والذخائر والمنشورات. أقام «الجاكيت الأسود» معسكره العام هناك، وانطلقوا من هناك مع جماعة «الشحور» لاختطاف محصّل ضرائب منطقة «إل ألتوجانو»، وهناك مكث ينتظر هو و«إليرا» عودة «ماتيو». وفي أثناء ذلك غسلت ملابسها وظلّ هو ينظر إليها. كانت قد حفرت حفرة في الأرض وبطنتها بجلد خروف وملأها بالماء. ماء نقيّ دون أيّ شيءٍ آخر.

الصابون ممنوع لكي لا تغلبهم رغبتهم في استخدامه في النهر فتكشف الرغوة مكانهم. كان «ماتيو» قد دفن علب السردين الفارغة التي كانت كلّ ما أكلوه اليوم. اقترب منها عازماً على أن يطلب منها أن تحدّثه عن «تينسي»، ولكنه عندما رأى الطّاقة التي تدعك بها البنتال حدّثها بحسن حظّ الرّجل الذي سيتزوجها.

- لماذا؟

- لأنك ستعتنين بنظافته على أتم وجه يا صغيرة.

- إن كنت تظنّ أنني سأتزوّج حتى أعطني بنظافة زوجي فقد أسأت الفهم، من يريد أن يكون نظيفاً فليغسل ملابسه بنفسه. لم تتعلّم شيئاً من الجمهوريّة يا «ماتيو»، فالزمن قد تغيّر وانتهى عصر الأفنديات.

- أنتِ من أساء الفهم، وقد كانت فعلاً حكومة الأفنديات. لا أعرف ما الهراء الذي كان يمكنني أن أتعلّمه منهم.

- متى ستفهم أنّ الرجال والنساء متساوون!

- متساوون في ماذا؟ في غسل الثياب؟

- وفي التّصويت مثلاً، ولهذا أعطونا حقّ الانتخاب.

- ولكن ما علاقة الانتخاب بالغسيل. أنتنّ النساء لا تُحدنّ النقاش، وتقفرن من موضوع إلى موضوع دون وجهة. لقد أخطأت أنا:

كانت حكومة آنسات، ولذلك أعطوكن حق الانتخاب. آنسات يتغوطن في ثيابهن من الخوف!

- كم أنت جحش أيها القرطبي! كم أنت جحش!

استدار «ماتيو» وابتعد عن ذكرى «أورتينسا» قبل أن يتمكن حتى من تذكرها. «إليرا» امرأة، حتى إن كنت تشبه الصبيان، ومن المستحيل الكلام مع امرأة دون أن يضيع المرء في منتصف النقاش، ويكون النقاش أسوأ إن كان نقاشاً سياسياً. النساء يرغبن في معرفة كل شيء، لكنهن لا يعرفن شيئاً. تأكد «ماتيو» من فكرته عندما عاد «الجاكيت الأسود» بعدئذ بوضع دقائق وقال أن إخوة محصل الضرائب رفضوا دفع الفدية. اقتربت حينئذ «إليرا» من «ماتيو» وسألته:

- ماذا حدث؟

- لا شيء، لقد أعدموه.

- أعدموا من؟

- من سيكون برأيك يا صغيرة؟ ألم يذهبوا لاختطاف محصل الضرائب؟

لاحظ «ماتيو» رعشة خفيفة على شفتي «إليرا» عندما طلبت أن تعرف من الذي قتله.

- هذا أو ذاك، لا يهم. أطلقوا على رأسه ثلاث رصاصات أو أربعاً، هنا بالضبط وانتهينا من موضوعه.

فسألت من الذي اتخذ القرار. فأجابها بأن هذه القرارات لا تتخذ.

- القواعد معروفة. هذا ما يحدث إذا لم يدفعوا.

شرح لها «ماتيو» دون طائل أنهم يختارون مخطوفهم بعناية:



-لا تظنّي أنه كان حملاً وديعاً، فابن القحبة هذا كان يتاجر في ما تصادره الدولة، وباسم مصلحة الضرائب والرسوم ملأ جيوبه على حساب جوع الفقراء.

ولكن لا، لا طائل من الشرح. ظل وجه «إلبيرا» ممتعاً بالذعر. استسلم «ماتيو» عندما رأى أن مهمته مستحيلة. استدار واتّجه إلى الخيمة المطاطية التي اجتمع فيها «الجاكيت الأسود» مع الرجال للتخطيط للمهمة القادمة.

نظرَ إلى «إلبيرا» وراءه، هزّ كتفيه وأخفض رأسه وتنهدَ مُلوحاً بيده قرب أذنه كمن يطرد بعوضة.

إنّها الحقيقة، لا يمكن للمرء أن يتحدّث عن السياسة مع النساء.





غطى الليل خطوات الرّجلين والمرأتين الذين كانوا يمشون بصمتٍ إلى البيت الذي تنتظر فيه «أماليا» أمّها. مشوا مُتستَرّين بالشّجيرات، ومتخفّين من ضوء القمر. قادّ المسيرَ «الجاكيت الأسود» ومشت وراءه «سولي» و«إليرا» وكان «ماتيو» آخرهم. كان هنالك أوراق بيضاء منثورة على الأرض ومعلقة على أغصان الأشجار القليلة.

- انظر!

شدّ «ماتيو» القابلة وأمرها أن تستمرّ بالمشي وأن تلتزم الصمت. كان في صوته نبرة تأنيب، فالكلام ممنوعٌ منعاً باتاً في أثناء المسير. استدار «خايمي» نحوهما وأشار عليهما بالصّمت واضعاً سبابته أمام شفّتيه. كانوا على مشارف «غالا باغار». أنزل «الجاكيت الأسود» بندقيته عن كتفه ونظر بعيداً، يميناً، إلى البيت الأول الذي يبعدُ عشرة أمتارٍ عن مخزن تبّن، وبحث عن العلامة الضّوئية التي ستدلّهم على أن الطريق سالكة. نعم، ها قد لمع الضوء مرتين. ظلّ الضوء مضاءً ثم لمع مرة أخرى. ركض الأربعة خفية واحداً تلو الآخر واختبئوا تحت سقف مخزن التبّن. وهناك، قلّد «خايمي» صوت بومة.

وخلال ثوانٍ ردّ عليه صوتٌ هدهد.

وبعد أن دخلوا البيت أرثم «سولي» ورقةً كانت قد أخذتها عن الشجرة وقالت مرةً أخرى:

- انظر.

كان ذلك بعد أن عانقت ابنتها وتأكدت أنها ما عادت تعرج من أثر إصابتها في ساقها، وبعد أن سألت «إليرا» عن جدّها، وبعد أن أخبرتها «أماليا» أنه بخير.

- إنه في بيته في «بامبلونا». أُصيب بالتهابٍ قويٍّ في القصبات الهوائية ولكنه شُفي الآن. منظمة «الإغاثة الحمراء» تعتني به.

قرأ «خايمي» حينئذٍ الورقة التي رجّته «سولي» أن ينظر إليها. كانت واحدة من آلاف الأوراق التي ألقاها الجيش في الجبال ويتعهّد فيها بالعفو عن الفارين الذين يسلمون أنفسهم ولم تتلطخ أيديهم بالدماء، ويعدّ الآخرين بدفنٍ في مقبرةٍ وبجنازةٍ مسيحيةٍ حسب الأصول.

- فعلوا الشيء ذاته في «أستورياس» سنة تسع وثلاثين. الكثيرون صدّقوا هذه الوعود.

قالت «أماليا» لطمأنه والدتها إن الهجوم المضادّ قيد التنفيذ وأن «غيرريا إل جانو» وزّعت منشورات توضّح ما سيحدث لمن يسلمون أنفسهم، وأن شبكة الوسطاء بكلّ من فيها يعملون على إقناع من تساورهم الشكوك.

- بات الناس يعرفون أن الأوراق التي نثروها في الجبال مليئة بالكاذب. فلا تقلقي يا أمّي، وتعالى لتناول العشاء.

أخذتها من يدها ودعّتها مع الباقيين إلى المطبخ.

- حضّرتُ لكم الفاصولياء بالشُّجق بالطريقة التي تحبونها.

كان هنالك قدرٌ يغلي فوق النار. اقتربت «إليرا» من الموقد واستنشقت رائحة الطعام وهي تدفّئ يديها فوق النار. تبعها «ماتيو» وقد سحبته الرائحة نحو الطعام وكأّنها حبل.

- إنه عشاءٌ ساخن.

سيتعشون عشاءً ساخناً. يكادون لا يتذكرون متى كانت آخر مرة  
تعشوا فيها عشاءً ساخناً.

وكان على المائدة بانتظار القادمين قالب خبزٍ بديع. جلس «ماتيو»  
أولاً. عقد المنديل حول عنقه متأهباً لتذوق الفاصولياء دون أن ينتظر  
جلوس الآخرين. ملأت له «أماليا» صحنه عن آخره، غمس «ماتيو»  
الخبز فيه، وتنهد ولعن أصابعه.

تحدث الرفيقان اللذان وصلا صباحاً لمرافقة «سولي» و«أماليا» إلى  
فرنسا بحالة التفاؤل التي يعيشها اليسار الإسباني في المنفى. الاتحاد  
الوطني الإسباني يفكر في الاجتياح من جهة جبال «البرينيه».

- حتى الكاثوليكيون والملكيون والكارليون<sup>(1)</sup> انضموا إلى  
الاتحاد الوطني الإسباني تحت شعار «كلنا ضد فرانكو وحزب الكتائب».  
عندما يسقط هتلر وموسوليني لن تتسامح القوى الديمقراطية مع  
تأسيس بلدٍ فاشيٍّ في أوروبا وسيساعدوننا على الإطاحة بفرانكو.  
وسيكون هذا قريباً، قريباً جداً. حالما تنتهي الحرب سنستعيد  
الجمهورية.

ملأ «خايمي» و«ماتيو» و«إلبر» حقائق ظهورهم بالمؤن وقد  
غمرهم التفاؤل بقدرة الجمهورية على التعافي. ملأت «إلبر» حقيبتها  
بالأغطية المصنوعة في «لاس بيتناس»، أما «ماتيو» و«خايمي» فحملوا  
الطعام ودفعوا ثمنه بسخاءٍ إلى وسيطتهم «أماليا». وفي الليلة نفسها حملوا  
كل شيء إلى المخيم. ودّعت «أماليا» و«سولي» رفاقها وانطلقتا بعد ذلك  
إلى فرنسا مع الرفيقين الدليلين.

---

(1) حركة سياسية تقليدية إسبانية، تؤمن بالملكية وترفض هيمنة آل «بوربون» وأحفاد  
الملك ألفونسو على العرش الإسباني. ملك إسبانيا الحالي «فيليب السادس»  
ووالده «خوان كارلوس» ينتميان إلى سلالة آل بوربون.

ليست كلّ الوداعات حزينة.

لم يكن هنالك حزنٌ في وداعهما. عندما تسقط الفاشية في أوروبا ستعود «سولي» و«أماليا». كتلة اليسار الإسباني في المنفى ستجعل عودتهما ممكنة، وسيلتقون من جديد.

- سنلتقي من جديد.

- رافقتكما السلامة يا رفيقتان.

- رافقتكم السلامة.

- إلى لقاء قريب.

- قريب جداً.

- إلى اللقاء في ظلّ الجمهورية!

رفعت «سولي» قبضتها لتودّعهم وتجعل الجمهورية موعدهم. رفع الآخرون قبضاتهم وردّوا في آن معاً:

- إلى اللقاء في ظلّ الجمهورية!

ولكنهم لن يلتقوا مرة أخرى. لن ترى «سولي» و«أماليا» أيّاً من «خايمي» ولا «إليبرا» ولا «ماتيو» مرة أخرى. لن تعودا أبداً من الرحلة التي شرعتها على أمل الرجوع.

لن تعودا من هذا الفرار الذي سيأخذها إلى الجانب الآخر من الحدود سيراً على الأقدام عبر جبال «البيرينيه». الحماسة ستجعلهما تصدقان مراراً أن الرجوع ممكن.

ولكن «سولي» و«أماليا» لن تعودا.

لا.

لن تعودا أبداً.

أبداً.

وزن الحقيبة أجبر «إليرا» على المشي ببطء، فالأغطية التي ترسلها «ريمي» و«توماسا» من السجن تحني الظهر. وعلى الرغم من أنها لم تشعر بالتعب من قبل إلا أنها راحت تفقد الإحساس بساقيها. عرفت أنها متعبة عندما شعرت بلهاثها وبطعم الدم الذي يملأ فمها. كان عليها أن تتوقف لتأخذ نفساً لعلها تريح رئتيها المضغوطتين، ولكنها تعرف أنه ليس من المناسب أن تؤخر مسير المجموعة. عليهم أن يمشوا بسرعة وأن يصلوا إلى النفق الذي نقبوه وسط أشجار توت العليق المحيطة بمنطقة «إل بيكو مونتيرو» قبل أن يشكّل البرد طبقة من الصقيع على الأرض فتكشف آثار أقدامهم قرب المخيم.

ينبغي لها أن تغذّ الحُطّى، أن تمشي أسرع، أسرع. توتر «خايمي» من نوبة السعال التي أصابتها. ما زالوا قريبين جداً والسعال خطير. كلّ الأصوات خطيرة. توقف «الجاكيت الأسود»، وانتظر أخته التي كانت تبعد عنه عشرة أمتار ومن ورائها «ماتيو» الذي يبعد عنها عشرة أمتار أخرى. سمعوا صوت كلاب تنبح في نفس اللحظة التي دهمتها فيها نوبة سعال أخرى. غطّت «إليرا» فمها بكلتا يديها وسقطت على الأرض.

- أيها القرطبي، خذ حقيبتها.

لم يتوقف نباح الكلاب، وزاد عددها الآن.

- بسرعة.

تكلم «خايمي» بأخفض صوت ممكن. أخرج منديله من جيبه ووضعه في فم «إليرا».

- أيمكنك أن تتنفس؟

هزت الصغيرة رأسها.

- أزيله عندما تكفّين عن السعال.

نهضت «إليرا» عن الأرض وهزّت رأسها مرةً أخرى. أمال أخوها رأسه منصتاً إلى نباح الكلاب المستمرّ. أشار إلى كهفٍ في إحدى الصخور وأوماً إلى «إليرا» و«ماتيو» ليتبعاه. كان يمشي ويرش خطواته بالفلفل الذي يحمله في جيبه لكي لا تقتفي أثره الكلاب. ما زالت الكلاب تنبح، ومن الممكن أن يفلتوها في إثرهم، وإن حدث هذا فسوف يضلّهم الفلفل. اختبأ الثلاثة مسندين ظهورهم إلى جدار الكهف وانتظروا بصمتٍ ريثما كتّم المنديل سعال «إليرا».

هدأت الكلاب بعد بضع دقائق، وعندما انقطع النباح تماماً استكملوا مسيرهم. طبع «خايمي» قبلةً على جبين أخته قبل أن يعطي الأمر بمتابعة المشي، وحاولت هي أن تبسم له وقد أطبقت بأسنانها على المنديل.

تمكنت «إليرا» من أن تجاري رفاقها في المشي بعد أن زال عنها وزن الحقيبة، لكنها لم تجرؤ على تحرير فمها قبل الوصول إلى المخيم في «إل بيكو مونتيرو».

- أنا آسفة.

اعتذرت من «الجاكيت الأسود» وتأسفت لأنها لم تضع المنديل في فمها بنفسها. كانت قد نسيت الأوامر: عطسةٌ واحدةٌ في أثناء المسير قد تعجّل لهم بالموت. كانت تعرف ذلك، لكنها نسيت. ينبغي أن يُكتم السعال بمنديل. أقسمت له إن الخطأ لن يتكرر مرةً أخرى. فقبلها مرةً أخرى على جبينها:

- حرارتك مرتفعة يا صغيرة.

نعم، كانت حرارتها مرتفعة.



أمر «خايمي» رفيقه «ماتيو» بأن يحلّ محلّ بنتي «الشحرور» في الحراسة. استغرب أنهما كانتا تحرسان المخيم وحيدتين.

- أين ذهب الآخرون؟

- ذهبوا إلى «إل ألتو جانو»

مشّت بنتا «الشحرور» على بُعد خطوةٍ من «خايمي» الذي قاد أخته من يدها إلى الخيمة. ساعدها في الاستلقاء على فراشٍ من أوراق الشجر الجافة، وغطّاها بغطاءين أخرجهما من حقيبة ظهرها. استمر باستجوابهما:

- لماذا ذهبوا إلى «إل ألتو جانو»؟

- ليمضوا الليلة.

- ألم يقولوا لكما ماذا سيفعلون هناك؟

- لم يقولوا شيئاً غير أنهم سيمضون الليلة، وأنّه لا يمكننا أن نذهب.

وعندما عاد الرجال عند الفجر، دعاهم «الجاكيت الأسود» إلى الاجتماع أمام الخيمة. رفع «الشحرور» صوته وهو يدافع عن نفسه من تهمة الإهمال.

وفي الدّاخل، أخفضتُ بنتاه عيونهما عندما سمعتا ما يُقال.

- عرّضتُ أمنَ هذا المخيم للخطر لتذهب إلى بيت دعاة؟

لم تكن «إلبيرا» قادرةً على أن تفتح عينيها من الحمّى. ظنّت بنتا «الشحرور» أنّها نائمة، ولكنها لم تكن نائمة.

- إنه بيت دعاةٍ موثوق

- لقد عرّضت رجالك للخطر. لقد عرّضت الجميع للخطر.

- كان علينا أن نفكّ أزمّتنا.

- إذن فلتفك أزمك بيدك.

- اليد لا تعطي نفس المفعول، لقد ضقنا ذرعاً بالعزف على هذا الناي.

- لا تتحاذق.

- لا أتحاذق، ولكن ينبغي أن يعزف أحدنا على الناي بين الوقت والآخر، ولا ناي من غير ثقب.

- دغ عنك النيات، ترك المخيم بدون مراقبة إهمال شديد.

- ولكن بتي كائنا هنا!

- اسمعني جيداً أيها «الشحور»، لأنني لا أريد أن أكرر كلامي، هذه الأخطاء عقابها الإعدام.

حاولت «إليرا» أن تفتح عينيها، لكن جفونها كانت ثقيلة والتهبت كأنها تحترق. ارتعدت. كلمات أخيها الأخيرة زادت من رعدتها. «هذه الأخطاء عقابها الإعدام».

احتمت بالأغطية. خبأت رأسها. كان فمها مشبعاً بمذاق العشاء. شعرت بالحر. ستسعل. الآن يمكنها أن تسعل. نعم. شعرت بالبرد. «هذه الأخطاء عقابها الإعدام». شعرت بالاختناق. كشفت رأسها. الآن يمكنها أن تسعل. الإعدام. نهضت.

«هذه الأخطاء عقابها الإعدام». أخذت تسعل، فانطلقت الفاصولياء والسجق من أحشائها كالرصاص. شعرت بيد دافئة تسند جبينها. أسندتها أياد أخرى ونظفت القيء عن ذقنها ومسحت عرقها بقماشة نظيفة وباردة. أحست بقماشة باردة على جبينها. «توماسا». إن «توماسا» هي من تبرّد جبهتها بالقماش البارد. «ريمي» تبسم. وتكتب «أورتنسيا» في دفترها الأزرق. ستغني «ريمي». لم تعد «إليرا» تحاول أن تفتح عينيها.

تركت نفسها تنساق واستسلمت. تلقت رعاية بنتي «الشحرور» دون مقاومة. تشقت شفتها.

- أنا عطشانة.

رفعت يد رأسها وتحملت وزنه، وقربت يد أخرى مطرة ماءً إلى فمها. ارتعشت.

- «ريمي»، ما أسوأ غناءك.

شعرت بالبرد. شاحنة أخذت الوردات الثلاث عشرة ولم تتوقف «خوليتا كونيسا» عن الغناء. فكّت «خواكينا» حزامها. شعرها أسود وناعم وعيناها واسعتان. «هذه الأخطاء عقابها الإعدام». تحمل «أورتينسيا» ثلاث عشرة وردة في يدها. «ريمي» تواصل الغناء. تحمل «أورتينسيا» ثلاث عشرة وردة في يدها. وهي تداعب إبزيم الحزام الأسود.

- عانقيني.

شعرت بالبرد.

- «ريمي»!

صرخت «ريمي».

شعرت بالبرد في أعماقها.

- «ريمي»!

فتحت عينيها ثم أغمضتهما من جديد. واستسلمت للصوت الذي يريد أن يعانقها. كان صوتاً قادماً من البعيد. قادماً من الأعماق:

- تعالي يا بنيتي.





اليأس طريقة لرفض الحقيقة، عندما يعني قبول الحقيقة أن نحسّ  
 بألم لا يطاق. ولهذا يرفض الجسد الحقيقة ويثور عليها، تضجّ المشاعر،  
 و«توماسا» تذوب من الداخل ومن الخارج في زاوية الزنزانة. تذوب  
 وهي جالسة على كرسيّ «ريمي»، لأنّ «ريمي» ذهبت.  
 نعم.

لقد ذهبت «ريمي». اجتزّت «توماسا» قلقها وهي تحرك رأسها  
 يميناً ويساراً. خمشت وجهها. اجتزّت صرخاتها. عضت شفتيها. حدّقت  
 أمامها. الجدار. نظرت إلى الأرض. ضربت رأسها إلى الوراء. جدران.  
 فقدت الإحساس بالألم. عضت شفتيها وهزت رأسها. خمشت ذراعيها.  
 رفيقاتها نائحات و«ريمي» ذهبت.

- ماذا أصابك؟

سألتها «خوسيفينا» الأسبوريّة التي كانت تبكي يوم «عذراء الرحمة».

- ماذا أصابك؟

أيقظها صوت ارتطام رأس «توماسا» بالجدار. اقتربت منها  
 وأمسكت بها من يديها:

- إنك تنزفين

ثار اليأس في وجه السلوى.

- اتركني.

أصرت عليها «خوسيفينا» بالسؤال:

- ماذا أصابك؟

مسحت لها الدم عن وجهها بطرف مريلتها.

- أنا بخير، اللعنة!

منعتها «خوسيفينا» في تلك الليلة وفي غيرها، من تشويه وجهها وذراعيها بأظافرهما. حاولت أن تسحب منها كلاماً غير «أنا بخير، اللعنة!» لكنها لم تنجح. لأن «ريمي» ذهبت. أخلوا سبيلها إخلاءً مشروطاً. لن تراها «توماسا» مرةً أخرى. لقد ذهبت. بقيت «توماسا» وحيدةً تجترّ ذكريات «ريمي».

- ارتدي هذه الكنزة الحمراء، وأنا سأرتدي البنفسجية، وسنعطي الكنزة الصفراء للواشية، ثم نخرج ثلاثتنا إلى الساحة.

كان يوم الرابع عشر من نيسان (إبريل)، وأرادت «ريمي» أن تحتفل بذكرى قيام الجمهورية بارتداء ألوان علم الجمهورية.

- لن نتبه الواشية إلى ما فعلناه.

- لن نتبه.

ولم نتبه. كانت الواشية تحكّ بيأسٍ ذراعيها وساقها.

عرضت عليها «ريمي» أن تدهنها بمرهم «سارنيكال»:

- هذا الذي أصابك هو داء الجرب. تعالي، سأضع لك من هذا المرهم.

- رائحته نتنة.

- ألم تَري الإعلان؟ «سارنيكال، علاج الجرب ذو الرائحة الطيبة». ارتدي هذه الكنزة النظيفة ريثما تغسلين كنترتك.

سمحت لها بأن تدهنها بالعلاج ذي الرائحة الطيبة، وارتدت الكنزة النظيفة.

خرجت إلى الساحة ممسكة بذراعي «ريمي» و«توماسا» ومستغربةً من لطفهما الزائد معها. مشت مرتدية اللون الأصفر بين «توماسا» و«ريمي» وكانت إحداهما تلبس الكنزة الحمراء والأخرى تلبس الكنزة البنفسجية. تمشين معاً موشحات بألوان علَم الجمهورية.

- وسحبنا منها الكلام.

قالت لهما الواشية إنها تعلم بأمر «سولي» وأنها في فرنسا.

- هي وابنتها في فرنسا. القابلةُ قائدة شيوعية مهمة، أما ابنتها فقد قلعوا عينها، كانت تنقل الرسائل بينهم.

سحبنا منها الكلام، وراحت الواشية تحكي لهما أن الأم وابنتها تساعدان المنفيين الإسبان الذين سقطوا بين يدي المارشال «بيتاين» على الفرار من معسكرات الاعتقال.

- وماذا عن «إلبريتا»؟

- ليس لديهم معلومات عنها.

داعبت «توماسا» قماش الفستان المستعار الذي ترتديه. ابتسمت. وظلت مبتسمة وهي تستمع إلى الواشية التي راحت تحدثهم بشأن «لا ثاباتونيس» دون أن تسألاً عنها.

- جن جنون الأخت «ماريا دي لوس سيرافينيس» عندما علمت أن حزب الكتائب لا يعرف شيئاً عن سيجيتي «لاس بيتاس».

كانت الواشية في الإدارة عندما أصدرت «لا بينينو» أمراً إلى «ميرثيديس» لتنادي «لا ثاباتونيس».

- كان هذا في يوم عيد الموتى. أمرتني بالخروج عندما دخلت «لا ثاباتونيس» ولكنني سمعتها بوضوح من الخارج وهي تقول لها إنه إن لم تعد السجيتان في الصّباح فسترسلها هي إلى «ملقة». كانت تصيح بها،

وقالت إنها لا تريد أن ترى وجهها مرة أخرى إن لم تعد السجيتان.  
يقولون إن سجن «ملقة» أسوأ من هذا بكثير.

- أسوأ؟

- دائماً هنالك ما هو أسوأ.

لم تعد السجيتان، ونُقلت «لا ثاباتونيس» إلى سجن المحافظة في  
«ملقة». قِيلَ إنَّ وتيرة حقدِها ارتفعت وأن السجينات في «ملقة» يسمّنها  
«القبر». وأكدت أخريات إنهنَّ في «ملقة» يسمّنها «دراكولا».

- ما زلتِ تشعرين بالحكة؟

- أقلّ.

- أرايتِ؟

حكّت الواشية ذراعيها من تحت الكتزة الصفراء. ابتسمت «ريمي»  
في وجه «توماسا». وحكّت «توماسا» ساقها، لأنَّ «ريمي» ذهبت.

- خذي الكرسيّ

- لا يمكن، إنه هدية من زوجك.

- وأنا أهديك إياه

- حسناً، سأحتفظ لك به، وخذي أنتِ حقيبة «إلبيريتا». ابحثي  
عن الصغيرة وخذي إليها حقيبتها، فهي ذكرى من أمّها، وأخبرها بأنني  
ما زلت أرتدي فستانها.

«ريمي» ذهبت. أخذت معها حقيبة «إلبيرا» وآخر بسمات «توماسا».

ذهبت وقد لا تراها مرة أخرى. كما ذهبت «سولي» القابلة،  
القصيرة القامة، المليئة بالطاقة التي كانت تسقيها الحساء بالأنبوب.  
ذهبت كما ذهبت «إلبيرا» و«أورتينسيا»، الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي



ذهبت دون حقيبتها، والمرأة التي كانت تجلس على كرسي «ريمي»  
المصنوع من القش.

كلهن ذهبن. وعادت «توماسا» لتجد نفسها وحيدة كما كانت في  
«أولييانثا»، عندما كانت عاجزة عن البكاء على موتها وكانت تسمع  
نحيب المرأة التي مات أبناؤها في «كاستويرا». ولكن صار في وسعها أن  
تبكي الآن. وها هي تبكي. تحتضن ركبتيها ويقتلها اليأس وهي تتذكر  
رفيقاتها. تبكي على موتها. على زوجها. على زوجة ابنها. على حفيدتها.  
لن تراهم مرة أخرى. أبناؤها. لن ترى أبناءها مرة أخرى.

وعندما أفسح اليأس المجال أمام الحزن، وصارت «توماسا»  
قادرة على مواجهة الألم، ألقت بنفسها بين ذراعي «خوسيفينا».

- أجميل هو البحر؟

- نعم، جميل جداً.

- هذا ما يقوله من رأوا البحر. يُسعدني أن يكون البحر جميلاً جداً  
كما يقولون.

- لماذا؟

- لأنّ أبنائي في البحر.

\* \* \*



خطت خطوة، ثم أتبعها بخطوة أخرى. ببطء. عليها أن تمشي ببطء ممسكةً بذراع «بينخامين» وناظرةً إلى الأرض كي لا تفقد توازنها، لأنها مذهولةٌ بطولِ شارع «هيرموسيا» الممتد أمامها. مضت عليها ست سنوات دون أن تمشي في شارع. مضت عليها ست سنوات دون أن ترى أفقاً غير السماء المحفوفة بجدارٍ يبعد عنها بضع خطوات. ست سنوات دون أن تمشي ممسكةً بذراع «بينخامين». موسيقى «الشوتيس» أفقدتها إيقاع خطواتها الهادئ. زلت قدمها. استمرت عازفة «الأورغانيو»<sup>(1)</sup> بتدوير عجلة آلتها، وأفلت «بينخامين» الحقيقية من يده وأمسك بزوجته لكي لا تقع. أمسكها من خصرها كأنه يراقصها.

- «بينخامين» المسكين.

- لماذا تنادينني دائماً بـ«بينخامين» المسكين؟ أنتِ من ينبغي لك أن تتعلمي المشي.

- لأنك طيب جداً.

- طيبٌ جداً طيبٌ جداً، دعيك من هذا الهراء.

- هل اقتربنا؟

نعم، كانا قريبين. كانا على بُعد أمتار من البيت، وهو شقةٌ صغيرة استأجرها «بينخامين» عندما انتقل مع عائلته من قرية صغيرة في «مُرسية»

(1) آلة موسيقية نفخية يستخدمها عازفون متجولون في الساحات ويعزفون عليها بتدوير عجلة تنفخ الهواء داخل الآلة.

إلى «مدريد». كانا قريبين جداً. مشيت وراءهما بناتها الثلاث العازبات وابنها الصغير الذي وُلد متأخراً ومريضاً. كان الأربعة مبتسمين وهم ينظرون إلى أمهم. مبتسمين منذ رأوها تخرج من باب السجن وهي تحمل حقيبة بيدٍ وتظلل وجهها من الشمس باليد الأخرى. ركضوا نحوها. عانقوها. غمروها بالقبلات. ولم تكفّ هي عن البكاء.

- يا بضعة مني!

كان «بينخامين» آخر من فتح ذراعيه لها. أخفت «ريمي» وجهها في صدره وهمست له:

- «بينخامين» المسكين!

لم تجد «ريمي» أثاثاً في صالة الشقة المستأجرة سوى طاولة موقد وستة مقاعدٍ وخزانة صغيرة.

- هل أعجبتكِ؟

ردّت «ريمي»، دون أن تفلت يد زوجها وهي تنظر إلى بناتها:

- جميلة جداً، الشقة نظيفة جداً ومرتبة جداً.

- اضطررنا إلى أن نبيع أثاثك.

- لا يهمّ.

- ولكن انظري.

فتح «بينخامين» باب الغرفة الأخيرة.

- انظري.

كانت غرفة النوم.

- السرير والمنضدتان الجانبيتان والأدراج وخزانة الملابس.

جلست «ريمي» على السرير وداعبت براحة يدها المفتوحة مفرش السرير الذي حاكته أمها بالسّارة.

- أحضرت مفرشي أيضاً.

في غرفة نوم «ريمي» و«بينخامين» تلك الليلة التقى الجسدان من جديد.

كانت «ريمي» قد استحمّت بالماء الساخن أول مرة منذ ست سنوات.

- حبيبي.

- حبيبتي.

وأول مرّة قالت «ريمي» و«بينجامين» كلاماً في الحب. غلب الحنانُ الخجلَ الذي أحسّاه دائماً. نسياً، وسط التنهيدات، التحفُّظَ والخوفَ من أن ينطق أحدهما اسم الآخر.

- «بينخامين»

- «ريمي» ريمتي.

خلعَ عنها قميص نومها أول مرة.

تلقَى جلدُ «ريمي» المتعش من الحَمَامِ قِبلاتِ «بينخامين». داعبت جسد زوجها كله، أول مرة بعد سبع وعشرين سنة من الزواج. وسط دهشتها، أبقت اكتشافها بين يديها ودسّت أنفها في إبط «بينخامين».

- ما أجمل رائحتك يا حبيبي.

- لا تتوقفي عن مداعبتي.

- هكذا؟

- نعم هكذا.

كان الحبّ كالجمر في المدفأة.

- «بينخامين».

- نعم؟

- هل أنت نائم؟

- لا

- سأنام الليلة في سرير.

- ماذا؟

- هل أنت نائم؟

- لا، لست نائماً.

- سأنام على فراش من الصوف الناعم. سأنام في سريري وعلى وسادتي.

داعب «بينخامين» خدها:

- وستنامين برفقتي

- نعم، برفقتك.

- هيا إذن لننام. ألا تشعرين بالنعاس؟

لا، لم تكن «ريمي» تشعر بالنعاس. تكوّرت عند كتف «بينخامين». استعرضت غرفتها محاولة أن تصدّق أنّها هناك حقاً. ليت «توماسا» تراها. ليتها تتمكن من رؤيتها. على الرغم من أنّه من الأفضل ألا تراها. «توماسا» المسكينة.

- «بينخامين».

- نعم؟

- أهديت الكرسي الذي أحضرته إليّ لرفيقة في السجن.

- خيراً فعلت.

«توماسا» طيبة. ليس في قلبها ذرة شرّ، لكنّها تصطنع الحدة حتى لا تظهر عليها الطّيبة. أرادت «توماسا» أن تعطيها إيزيم حزام «خواكينا». إنّها طيبة وكريمة. ستذهب لنتظرها يومَ إطلاق سراحها، ليس لديها أحدٌ لينتظرها. وليس لديها أحدٌ ليرسل إليها طرود الطعام. «ريمي» سترسلها إليها. نعم. وستكتب إليها رسائل لأنّه ليس لديها أحدٌ ليكتبها. لا شيء يوجع القلب أكثر من رؤيتها وهي تختبئ في الزاوية ساعة توزيع الرسائل. كانت تختبئ، و«ريمي» رأتها مراراً. تعرف أنّها كانت تختبئ لكي لا ترى وجوه السّجّينات وقد مددن أيديهن إلى ظروف الرسائل، وحتى لا تعرف السّجّينات أنّها لم تستلم رسالةً قط، ولن تستلم رسالةً أبداً.

ستدهشها المفاجأة. ستكتب إليها وستخبرها بأحوال ابنة «أورتينسيا» و«إلبريتا» و«سولي». ستبحث عن ابنة «أورتينسيا» وعن الصّغيرة ذات الشعر الأحمر التي أهدت «توماسا» فستان أمها.

ستبدأ الرسالة بقولها «أختي العزيزة». ستكتب «أختي العزيزة» وستدعي أنّها أختها حتى يوصلوا الرسالة إليها، نعم، ستظاهر بأنّها أختها، لأنّ الرسائل ينبغي أن تأتي من الأقارب المباشرين.

نامت «ريمي» وهي تفكر في «توماسا» وتبحث عن الكلمات التي ستكتبها في الرسالة الأولى. عليها أن تفكّر بطريقة لتحدث فيها بشأن رفيقاتها دون أن تكشفها موظفة السجن التي تفتش الرسائل. ستسمّي «إلبريتا» باسم «فتاة الحقيبة»، وستسمّي «أورتينسيا» «أمّ الصغيرة ذات العينين الزرقاوين التي لم تكن تريد أن تُولد». أمّا «سولي» فلم تعرف أي اسم تطلقه عليها. «باب القفص المفتوح». «القفص المفتوح».

نعم، ستسمّي «سولي» «القفص المفتوح».







أختي العزيزة، أتمنى أن تصلك رسالتي وأنت بكل خير. كانت «توماسا» في وسط الساحة وكانت رسالتها في يدها. كانت قد ركضت لتختبئ عندما رأت موظفة الطرود قادمة ومعها البريد، كما كانت تختبئ دائماً، وعندما سمعت اسمها ركضت مرة أخرى، لكنها ركضت هذه المرة إلى وسط الساحة ويدها ممدودتان وعيناها تحدقان بالظرف الذي كُتب عليه اسمها. قرأت «أختي العزيزة». ميّزت أنها «ريمي» من الأشياء التي قالتها. ميّزت أن «أم الطفلة التي لم تكن تريد أن تولد» هي «أورتنيسيا». وميّزت أن «باب القفص المفتوح» هي «سولي» وعرفت أنها ما تزال في فرنسا على الرغم من أن كلمة «فرنسا» كانت مشطوبة. قرأت «أختي العزيزة» وتمشّت هنا وهناك لكي يرينَ أنها تلقت رسالة.

قالت لـ «خوسيفينا» التي كانت تبكي يوم عيد عذراء الرحمة «انظري، لقد كتبتُ إليّ أختي». وأرت الرسالة للواشية وقالت لها «كتبتُ إليّ أختي».

- لم أكن أعرف أن لك أختاً.

- وبماذا تهملك أختي؟

- ولماذا لم تكتب إليكِ من قبل؟

- وما دخلك أنت؟

لن تقول «توماسا» لأيّ أحد إن أختها ليست إلا «توماسا». لن تقول. طوّت الرسالة ووضعتها في الظرف وهي تنظر بطرف عيناها إلى الواشية، التي كانت تحك ذراعيها بغضب، ثم ابتعدت عنها.

منذ ذهبت «ريمي» وذهبت تباعاً الرفيقات اللواتي كنّ معها في عائلتها القديمة، كانت «توماسا» تتمشى وحيدة في الساحة. لا تعجبها الرفيقات في عائلتها الجديدة. لا ترى وجه الطرافة في نكاتهن ولا ضحككاتهن. لم تصادق أية سجينة منهن ولا حتى «خوسيفينا» التي تحاول أن تعاملها بلطف. «خوسيفينا» هي الوحيدة التي تحاول. أمّا الأخريات فينظرون إليها باحتقار، خاصةً عندما يوزّعن الطعام الذي وصلهن، ويقمن بتعداد أطعمتهنّ مراراً وتكراراً قبل أن يعطينها حصتها، فتأكل «توماسا» وهي تنظر إلى الأرض.

تمشّت في الساحة يميناً ويساراً وهي تحمل الرسالة. ظلت تقول لكل سجينة تصادفها «انظري، انظري لقد كتبتُ إليّ أختي». جلست على المقعد الذي كانت تجلس عليه في الماضي لتشمّس عشر دقائق أيّام كانت «سولي» تطعمها من خلال أنبوب مدسوس في قفل زنزانة الحبس الانفرادي. «سولي» الرفيقة، القابلة القادمة من قرية «بينياراندا دي براكامونتي»، باب القفص المفتوح.

ضمّت «توماسا» الرسالة إلى صدرها وبحث بعينها عن نافذة المهجع الثاني يميناً. من هناك كانت تنظر إليها «ريمي» و«أورتينسيا» و«إليرا». مضى على ذلك وقتٌ طويل. طويلاً جداً. تخيلت الرؤوس الثلاثة تطلّ من النافذة. مضى وقتٌ طويل. كانت جالسةً على المقعد تتأمل النافذة، لكنها لم تكن حزينة. لفظت ثلاثة أسماء بصوت منخفض لكي تستسلم للحنين. «أورتينسيا». «إليرا». «ريمي». لأن للحنين اليوم ثلاثة أسماء. «أورتينسيا» المرأة التي ماتت دون أن تتمكن «توماسا» من إلقاء تحية الوداع عليها. «إليرا» الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي غادرت دون أن تأخذ حقيبتها. و«ريمي» أختها العزيزة.

تحفّ وَحدة «توماسا» مرةً كل خمسة عشر يوماً عندما تتلقّى بانتظام رسالة «ريمي»، فتجلس على المقعد وتنظر إلى النافذة، وتحفّ وحدثها عندما تقسم مع عائلتها طرود الطعام التي ترسلها «ريمي».

- ماذا تعمل أختك يا «توماسا»؟

- إنها خيّاطة، لماذا؟

- لأن الطرود التي ترسلها توحى بأنها ثرية.

إنها الواشية، تسأل لأنها مرتابة من الطرود والرسائل التي تصل إلى «توماسا».

- ليست ثرية، لكنها طيبة القلب وتحبني جداً.

- ولماذا تحرك قلبها الطيب فجأة، ولماذا أخفته حتى الآن؟

- اللعنة! انشغلي بشؤونك، ليس لك قرص في هذا العرس.

صارت رسائل «ريمي» وطرودها مصدر فخر لـ «توماسا». صارت تأكل مرفوعة الرأس. وكانت تتفاخر في اجتماعات الحزب بمعرفتها المعلومات التي تتلقاها من «ريمي». «أختي العزيزة: فتاة الحقيبة مرضت من جديد. أتذكرين عندما كانت تغني أغنيتنا؟ إنها مريضة الآن كما كانت مريضة حينئذٍ. ولكنها بخير الآن. لم أتمكن من الذهاب لزيارتها لأنها مع أخيها، لكنني عرفت من طريق بعض الأصدقاء أنها تحسنت وستعود إلى الغناء، حتى نغني معاً ذات يوم». هكذا عرفت «توماسا» أن «إلبيرا» مقيمة مع «الجاكيت الأسود» في تل «أومبريا». وهكذا عرفت أن الصغيرة ذات الشعر الأحمر كادت تموت للمرة الثانية.

- «إلبيرا» مقاتلة غير ريا.

هكذا تفاخرت أمام الرفيقات.

- مقاتلة مع «الجاكيت الأسود»

ولكن إجابات الرفيقات هي التي جعلتها تفهم تماماً ما كانت «ريمي» تحاول أن تشرحه في رسائلها.

- نعم، الصّغيرة أظهرت نفس شجاعة أخيها، وها هي تنظّم الغير ريا ليدعموا من الدّاخل الاجتياح الذي يتمّ الإعداد له في فرنسا.

- متى سيكون الاجتياح؟

- عندما يدخل الحلفاء. وهكذا، عندما يسقط هتلر سيكون في وسعنا أن نحزم حقائبنا، لأنهم سيطرّدون القزم<sup>(1)</sup>.

كانت «توماسا» تروي بعض الأخبار وبعض القصص الصغيرة.  
- قالت لي أختي في رسالتها إن «ريمي» أيضاً تعمل من أجل القضية.

«أختي العزيزة: يسعدني أن تصلك هذه الرسالة وأنت في أفضل حال. صرْتُ أعمل مع مجموعة تساعد أهالي الشّهداء الذين ماتوا في سبيل الوطن على الجانب الآخر من النهر».

- نعم، إنها تعمل مع «الإغاثة الحمراء».

عرفتُ من رفيقاتها أن «ريمي» وضعت نفسها تحت تصرّف الحزب في اليوم التالي لخروجها من السجن، وأنها انضمت إلى مجموعة تساعد عائلات السجّناء، مثل بناتها، وأنها وصلت سريعاً لتكون المسؤولة عن الوحدة التي كانت تجتمع في «لا كاسا دي كامبو» متظاهرين بأنّهم يتنزهون في الحقول تحت شجرتين أطلقوا عليهما اسم «بويرتا تشيكيتا». وهكذا علمتُ «توماسا» أنّهم ألقوا القبض على «ريمي».

- لقد سقطت «ريمي». إنّها لدى «الداخلية».

وهكذا عرفت أنّهم أطلقوا سراحها بعدئذٍ بعشرة أيام دون أن يوجهوا إليها أية تهمة.

---

(1) كان فرانكو قصير القامة.

- أطلقوا سراح «ريمي». لم يسحبوا منها ولا نصف كلمة، ثم تركوها.

ومن خلال الرموز التي تكتبها «ريمي» لكي تتجنب أن تكتشف الرقابة أمرها، علمت «توماسا» أن «أختها العزيزة» مستمرة بالنضال وأنها بخير. «لقد كنتُ في إجازة عشرة أيام. أكلت الحمص حتى شبعت وما أنا أهضم ما أكلته. كم أكرههم، أكره الحمص. ما زلت مشغولة بعملتي وعملنا».

كانت «توماسا» تتلقى رسالة كل خمسة عشر يوماً فتباهى بأن لها أختاً ما زالت تعمل لكي يزول الحمص عما قريب. كانت تجلس وحدها على المقعد مقابل النافذة لكي تقرأ مرة تلو الأخرى كلمات «ريمي»، التي تختتم رسائلها بمعاهدتها على أن تذهب لانتظارها عند باب «لاس بيتاس» يوم خروجها.

وهكذا كان.

ستمرّ سنوات طويلة قبل أن تتمكن «ريمي» من الوفاء بعهدتها. ولكنها ستفي به.

\* \* \*



تحققت أهداف «خايمي ألكانتارا» في المواعيد المقررة. وزع الفارّين الذين كانوا مبعثرين في الجبال على سرايا صغيرة، وقسم إلى قطاعات من كانوا مُنظمين، لكنهم كانوا في جماعات كبيرة. تشكيل «تجمّع مقاتلي الغيرريا في تلّ أومبريا» تمّ في اجتماع في طاحونة «أنتون» ليلة الأول من نيسان (إبريل) سنة ألف وتسعمائة وثلاث وأربعين بحضور قادة كل السرايا. صاغوا قوانينهم الداخلية ووزعوا مناطق العمليات على الجماعات التي تمت إعادة هيكلتها، وبعد عدة جدالات بين المقاتلين الأناركيين والاشتراكيين والشيوعيين، تمت تسوية الخلافات ووقع «خايمي» و«ماتيو» و«الشحور» على الوثيقة التأسيسية:

وثيقة تأسيس تجمّع مقاتلي الغيرريا في تلّ أومبريا.

اليوم، الأول من نيسان (إبريل) سنة ألف وتسعمائة وثلاث وأربعين، بحضور كل مقاتلي السرايا المنضوية تحت هذا التشكيل اتفقنا على ما يلي:

1- أن نؤسس بقواتنا الخاصّة المنظمة عسكرياً «تجمّع مقاتلي الغيرريا في تلّ أومبريا».

2- أن نعتبر عن دعمنا غير المشروط لسياسة «الاتحاد الوطني» لكلّ الوطنيين الإسبان، وأن نكون ذراعَه المسلّح في مناطق عملياتنا، تحت الإدارة الإستراتيجية للمجلس الأعلى للاتحاد الوطني الإسباني، الذي يقدّم للشعب الإسباني قيادةً على المستوى الوطني لمجابهة نظام فرانكو ولا نقاذ إسبانيا.

الموقعون: «الجاكيت الأسود». «القرطبي». «الشحور».

كان التجمّع مكوّناً من اثنين وسبعين مقاتلاً، وكانت «إلبيرا» واحدة منهم.

- كيف حالك يا صغيرة؟

- لقد تحسّنتُ، لا أسعل حتى عندما أركض.

- هل فكرتِ في الاسم الذي تريدين أن تستخدميه؟

- أحب أن يكون اسمي «ثيليا» مثل جدتي ومثل «ثيليا غاميث».

- وهو كذلك، «ثيليا».

- هل أعجبك؟

نعم، لقد أعجب «خايمي» بالاسم. داعب شعر «إلبيرا» القصير وابتسم:

- قريباً سيكون بإمكانك أن تربطي شعرك في ذيل فرس وتهزيه لي يا «ثيليا».

قرروا في الاجتماع التأسيسي للتجمّع إلزام كل المقاتلين بأن يطلقوا على أنفسهم أسماء مستعارة، حتى لا يكشفوا أمرَ رفاقهم في حال أُلقي القبض عليهم وهم أحياء، لأنّهم لا يعرفون من الأساس أسماء رفاقهم الحقيقية. فهمت «إلبيرا» هذه النقطة من نظام الغيرريا الذي صاغوه تلك الليلة ووافقت على أهمية حماية الآخرين.

ولكنها رفضت الموافقة على نقطة أخرى، وافق الجميع على الالتزام بها، ولم تعرف كيف تقول لأخيها إنّها لن تتمكن من فعلها.

- سيكون ذيل فرس طويلاً كما أحبه أن يكون يا صغيرة.

- من غير ريب، وستسحب الشريط عن رأسي كما سحبت في ذلك الحين.

- متى؟



- يومَ قلتَ لأمي إنك ستذهب إلى الحرب. أتذكر؟

- نعم، نعم أذكر. كنتِ صغيرةً جداً. كنتِ طفلةً مدللة لا تعرف أن اسمها سيصبح «ثيليا» يوماً ما.

- ما زلت مدللة.

- تعالي إذن لكي أدلك قليلاً.

اقترب منها «خايمي» وبدأ يدغدغها. ارتفع صوت قهقهة كليهما خارج طاحونة «أنتون» حتى هربت «ثيليا» منه وركضت نحو «ماتيو». نظر إليها «خايمي» وهي تركض. أشعل شعرها الأحمر الهواء وكأنه جهرة قصيرة تزداد توهجاً مع كل خطوة تخطوها. فكّر في اللقاء عند باب سجن «لاس بينتاس». تذكر تعابير وجهه، والألم في صوته. «إلبيريتا» في الداخل. في الداخل يا بُني، «إلبيريتا» في الداخل». تمنى لو أن جدّه يراها هكذا، تركض كأنها النور الذي يضيء الليل. تمنى لو أن جدّها يراها وهي حرة. حرة. فكّر في قاعة الزيارة المشؤومة في «لاس بينتاس».

فكّر في جدّه المتمسك بالشبك الحديديّ. وفكر في أخته المتمسكة بالشبك من الجانب المعاكس. تمنى لو أن جدّه يراها وهي تركض في الليل الفسيح، تركض بحريّة. حرية. أخته تركض، وهو ينظر إليها وهي تركض، ابتسم واستدار.

همس: «حرية». «حرية» ما أغرب الكلمات التي لا يمكننا أن نقولها دون أن تعلق وجوهنا الحمرة. وما أغرب أن نصف الرّكض في الليل على أنه «حرية»، أو أن نصف بها السماء الصافية، والهضاب المنخفضة، والبرد والحر، والمنديل في الفم، والمسدس في اليد.

- ماتيو، ماتيو.

- ما بك يا صغيرة؟

- «الجاكيت الأسود» يريد أن يقتلني من الضحك.

- أليس من الأفضل أن نموت من الضحك؟

أخذ «ماتيو» ينظف بندقيته القصيرة بقماشة متسخة. توقف عن الدعك ووضع عينيه على العيان. أرادت «إليرا» أن تقول له إن اسمها صار «ثيليا»، لكنها شعرت بذعر مباغت عندما رأت البندقية وسألته السؤال الذي لم تتجرأ منذ قليل على طرحه على أخيها:

- «ماتيو»، أظن أنك قادرٌ على استخدام هذه البندقية لتطلق النار على نفسك؟

- لا أعرف.

قال إنه لا يعرف لأنه خجل من الاعتراف بأنه مرّ بالتجربة التي أثبتت له أنه لا يستطيع، وأنه طلب من «الجاكيت الأسود» أن يطلق النار عليه.

- أغلقي هذا الزر يا صغيرة.

أغلقت «إليرا» زر قميصها الذي انسلّ من عروته.

- ولكنني رأيتك وأنت تقسم على إطلاق النار على نفسك. أقسمت إنك ستفعلها.

استمرّ «ماتيو» بتنظيف بندقيته.

- أقسمتُ لأنني أؤمن أن هذا ما يجب عليّ فعله. وإذا ألقوا القبض عليّ حياً فسأفضل الموت على الحياة. كوني متأكدة من ذلك يا «إليرا»، كوني متأكدة.

- صار اسمي الآن...

وقبل أن تقول إن اسمها صار «ثيليا»، ظهر «الشحور» من بين الظلال وجلس عندهما.

- متى سندهب؟

نظر «ماتيو» إلى السماء وضيق عينيه ليردّ:

- خرجت المجموعة الأولى منذ ساعة. لا تقلق، سنخرج قريباً.

- لا أعرف لماذا ينبغي لنا أن نكون آخر الخارجين.

- أنت لا تعرف شيئاً أبداً، ولست بحاجة إلى أن تعرف أي شيء.

نقذ الأوامر ولا تسأل.

- أوامر، أوامر، لا يجيد أخُ هذه الفتاة فعلَ أي شيء آخر. أنا

أفضل أن أتحرك على هواي.

- اللعنة! أنت مثل الاشتراكيين، لا تجيدون شيئاً سوى التشكيك

في كل ما نفعله. و«هذه» الفتاة اسمها «إليرا»، وكلمة «هذه» تُستخدم فقط للإشارة إلى الحمير.

- اسمي «ثيليا». وما يفعله أخي اسمه «كفاءة التنظيم العسكري»

لعلك تفهم ذات يوم أيها «الشحورور». وتعود على أنك لم تُعدّ تتحرك على هواك الآن.

قالت ما قالته بنبرة حاسمة لا تدع مجالاً للشك. كان اسمها

«ثيليا» ولم تكن مستعدةً لأن تقبل بأن يشير إليها أحدهم بالكلمة «هذه»، ولن تقبل أن يقصّيها الرجال من الحوار.

- «ثيليا» اسمٌ جميل جداً.

- لا تعاملني معاملة الأطفال أيها «الشحورور» فقد رأيت ما

حدث هنا مع قادة بعض السرايا. وأرى أنّ من أحبطك هم من يهتمون الشيوعيين بأنهم يريدون الهيمنة على الاتحاد الوطني الإسباني بتنظيمهم لمقاتلي الغيرريا. دعونا نترك الخصومة للعدوّ، ونترك التخوين للخونة، فلقد عانينا بما فيه الكفاية من الانقسام في ما بيننا.

- صحّ لسانك يا «إليريتا».

- «ثيليا». قلتُ إن اسمي «ثيليا».

- «ثيليا»، نعم. اللعنة، لقد اختلط عليّ الأمر، اللعنة.

ولما كان يسبّ ويلعن، ضربَ جبهته بقبضته وهو ينظر إلى «ثيليا»  
نظرةً اعتزاز. كرّر اسم «إليرا» الجديد:

- «ثيليا».

وكرره وقد علت شفّتيه ابتسامة.

- «ثيليا».

ابتعدت «ثيليا» عنهما وهي تكتم سعلَةً خفيفة. نظر إليها «الشحور»  
وهي تبتعد.

- يا للصبية التي تزداد جمالاً. وانظر إلى طريقتها في الكلام!

- لا تنظر إليها بهذه الطريقة أيها «الشحور».

- ماذا أصابك؟

- لم يُصنبي شيء ولا أنت أيضاً، ولهذا كفّ عن النظر إليها بهذا  
الأسلوب. لعلّك تفهم الكلام الآن.

- يا رجل، لم أقل شيئاً سوى إنها تزداد جمالاً. تتكلم كأنك  
والدها.

- اعتبر أنّها ابتتي واربط لسانك هذا.

أشار إليهما «الجاكيت الأسود» من باب الطاحونة.

حان وقت الذهاب.

نهض الرجلان في نفس اللحظة. نظر «الشحور» إلى «خايمي»  
ثم إلى «ماتيو»:

- خذوا باعتباركما أنني لم أقصد الإساءة لأي أحد. فلا تشيعا  
عني أنني أسأت لها.

لم يردّ «ماتيو». اتّجه معه إلى الطاحونة، وعندما أعطى «الجاكيت الأسود» الأمر بالانطلاق وضع يده على كتفه.

- إن رأيتك تنظر إلى «ثيليا» مرةً أخرى بعينيك الدّاعرتين هاتين، فسأقتلك.

في أثناء عودتهم إلى مخيم «إل بيكو مونتيرو» مشى «الشحرور» وراء «ماتيو» وهو يحدّق بالأرض. كان «ماتيو» ينظر إلى السماء ويمشي على بُعد عشر خطوات من «ثيليا» ليحمي ظهرها من نظرات «الشحرور». كانت ليلة بلا قمر، مليئة بالنجوم. كان يحبّ هذه الليالي التي ترسم فيها السماء نفسها وتبدو النجوم كأنها أثر مضيء لانفجارٍ من النور. كان يحبّ هذه الليالي. كان يبحث في الليالي التي تنيرها النجوم عن نجمة «تينسي». وأخذ يفتش عتمة الليل. نجمة «تينسي». انظري، إنها أصغر نجوم السماء، تلك النجمة، الأصغر، سأهديك إياها. هذا ما قالت له يوم أهداها القرطين اللذين اشتراهما من «أثواغا».

- ولماذا تهديني النجمة الأصغر؟

- حتى نبقى معاً إلى الأبد متقاربين، أيها الأحمق.

- تعالي أيتها الحمقاء.

# مكتبة

t.me/soramnqraa

وأحبّها.

وطلبت منه أن ينظر إليها.

- انظر إليّ.

ظلّ «ماتيو» يفكّر في «تينسي» وهو يمشي وراء «ثيليا». كان على بعد عشر خطوات من تلك الطفلة التي أوصلها إلى ميناء «أليكانتي» والتي لم تعد طفلةً ولم تعد تشبه الصبيان.

أربع ساعات من المسير. أربع ساعات من الاشتياق إلى «أورتينسيا». أربع ساعات ليُطلَّ على هوة فقدتها، وليواجه موتها من جديد، وليمارس الحب على سطح نجمة وليسعر أن حياته فائضة عن حاجته وأنه بلا ذراعين لأن ذراعيه لا تعانقها. وأنه بلا شفيتين لأن مشتاق إلى فمها. قبلاّت ولمسات كالصواعق. إنه مشتاق.

«انظر إليّ حتى لو لم أكن أنظر إليك». لن ينظر إليها مرة أخرى أبداً. أبداً. لماذا ماتت «تينسي»؟ الجبل ليس مكاناً مناسباً لامرأة. لماذا سمح لها بأن تنزل إلى مزارع «إل ألتو جانو»؟ عليه أن يعتاد على الألم. لماذا لم يحم المرأة التي كانت تحمل ابنه في أحشائها؟ ينبغي له أن يعتاد على الألم ليتمكن من احتماله.

لماذا ماتت «تينسي»؟ وصلت المجموعة إلى المخيم واستدارت «ثيليا». همت بالحديث إلى «ماتيو» لكنها لم تكلمه. نظرت إليه، وهرب هو من عينيها. وهرب منها. اتجه بخطوات سريعة إلى الصدع واختبأ بين الصخور ليخفي صوت نحيبه.



رفعت الشمس حرارة خيمة المطاط إلى حد لا يطاق. وعلى الرغم من سقف الأغصان الذي بنوه فوقها إلا أنّ الحر داخلها أشعر «ثيليا» بالاختناق. كانت بنتا «الشحور» قد استسلمتا للنوم. حاولت «ثيليا» أن تنام. جففت العرق الذي كان ينزل على عنقها، واستندت لتبحث عن مطرة الماء. أزعجها المسدس على خصرها وأرادت أن تزيله، لكن النوم ممنوع بدون السلاح. الشتاء أفضل، على الرغم من أن البرد لا يُطاق أحياناً. تذكرت مذعورة ليالي المسير، والخطوات الغائرة في الثلج، والأطراف المتجمدة على الرغم من المرهم الذي كانوا يدهنونونه على سيقانهم لاجتياز الأنهار.

ولكن الشتاء أفضل. شربت ماءً بارداً، وفرغت ما تبقى في المطرة فوق رأسها وعلقتها على كتفها. نهضت. خرجت من الخيمة وبحثت عن ظلّ لترتاح فيه. كان أخوها نائماً وإلى جواره سلاحه في ظل صخرة ناتئة. تمددت إلى جواره. ولكنها اختنقت هناك أيضاً، فالصخرة التي كانا يستظلان بها كانت تحميها من أشعة الشمس، لكنها كانت تحزن الحرارة. رائحة جسد أخيها التي كانت تهبّ عليها مع أبسط حركة يتحركها، ورائحتها هي، أشعرتها بالتقرّز. عندما طلبت من «ماتيو» صابوناً وكولونيا أول مرة، قال لها إنه ينبغي أن تفوح منهم رائحة الجبل.

- رائحة الجبل يا صغيرة، حتى لا يتمكنوا من اقتفاء أثرنا.

وهكذا كان. كانت تهبّ منهم رائحة الجبل، الجبل القذر والمتعرق والثقيل والحارّ والبطيء والحيوان. تغلب تعبها على تقززها ونامت. كانوا قد مشوا طوال الليل، وكان يومهم طويلاً، لكنه كان يوماً جميلاً فعلاً.

شعرت بأنها مقاتلة غيرريا أكثر من أي وقت مضى، فقد كانت بندقيتها على كتفها وكانت تمشي مع جماعة «الجاكيت الأسود» إلى «إل ألتو جانو». كان يوماً رائعاً. استولوا على قرية باسم الجمهورية في عملية عسكرية دقيقة التنسيق. شاركت كل سرايا «تجمع مقاتلي غيرريا في تل أومبريا» في هذا الاجتياح.

كان يوماً من أيام النصر. رفعوا علم الجمهورية بألوانه الثلاثة على شرفة البلدية، وصادروا مسدس العمدة، والأسلحة والدخائر من ثكنة الحرس المدني، ونهبوا خزانة رئيس الكتائبين المحليين، وأعطاهم الأهالي سلاطاً مملوءة بالطعام. كانوا مبتهجين إلى درجة أنهم أنشدوا نشيد المقاتلين وهم يمشون عائدين إلى المخيم. مشوا طوال الليل، وعندما وصلوا إلى «إل بيكو مونتيرو» ملؤوا مخزنهم بالسلاح المصادَر وبالمؤن الوفيرة، وعادوا إلى الغناء من جديد.

انبهروا جميعاً عندما سمعوا غناء «ثيليا».

- يبدو أن «ثيليا غاميث» بيننا.

قالها «الصغير» وهو قائدٌ من التجمع، جاء من «طليطلة»، لينسق عملية تمرد القرى الداخلية. كانت عيناه سوداوين، وابتسامته سخية وسهلة، وكان يلبس قبعة مستديرة. كان محبوباً بين رجال مجموعته لجسارته، لكنهم كانوا يهابونه أيضاً.

كان يلتزم بصرامة بقوانين الجبل. وكانوا يتناقلون عنه أنه يطلق الرصاص على العدو دون أن يرفّ له جفن، وكذلك عندما يُعدم الخونة. هذا ما كان يُقال عنه، وهذا ما رأيته «ثيليا» بعينها في أثناء احتلال القرية، عندما أعلن شاب من «جيليقية» في ساحة الكنيسة أنه يريد أن يترك غيرريا لأنه ما عاد يحتمل أكثر. ابتسم له «الصغير» ونزع السلاح الذي كان يحمله على كتفه ونظر إلى اثنين من رجاله. لم يتطلب الأمر أكثر من



نظرة واحدة. وجّه الرجلان سلاحهما نحو الفتى، وعلى عكس ما توقعت «ثيليا»، أخذهما إلى شارع خلف الكنيسة. لحق بهما «الصغير».

قيل إن «الصغير» هدد الفتى الجليلقيّ بالموت. قيل إنّه قال له «إذا ذهبت فسأقتلك»، وقيل إنّ نظرتَه روّعت الفتى، وأنّه تبوّل في ثيابه قبل أن يرفع «الصغير» السلاح في وجهه.

- سأقتلك قبل أن أبرح مكاني. القرار لك.

عاد الرجال الأربعة إلى الساحة. مرّ أحدهم يده على كتفي الفتى وربّت الآخر على ظهره. أعاد إليه «الصغير» سلاحه، وابتسم. لم يرَ أحدٌ قط أثراً للرقّة عند «الصغير». قطّ. كان يخفي رقبته وراء ابتسامة ساخرة أو ضحكةٍ حالما يشعر بها. ولهذا ابتسم أمام الشاب الجليلقي الذي تبول في بنطاله. بعد أن غنّى نشيد المقاتلين في المخيم في صباح ذلك اليوم من شهر آب (أغسطس)، اخترقت عيناه السوداء وان قلب «ثيليا». وشعرت هي برقبته في أعماق أعماقها، في أعماق قلبها، من تلك اللحظة إلى الأبد.

لاحقاً، عندما انسحبت «ثيليا» وبتنا «الشحور» ليذهبن إلى النوم، لحق بهن «الصغير» وهنّ في طريقهن إلى الخيمة:

- صوتك جميل جداً.

- شكراً.

عندما مرّ «الصغير» إلى جوارها، انزعجت أول مرة من رائحة الجبل التي تفوح منها.

- صوتك أجمل من صوت «غاميث»

- لا تبالغ

- ليست مبالغة

وقفت عندما وصلت إلى الخيمة، أما الصغير فاستمرّ بالمشي ولوّح بيده مودّعاً دون أن يتوقف:

- نوم الهناء.

ولكنها لم تتمكن من النوم. لم تقدر. لم تتمكن من النوم في الخيمة، ولا يمكنها النوم الآن. استيقظت محتضنة أخاها، فقد أيقظتها حرارة الجسدين.

استندت ونظرت حولها. كانوا قد أخذوا كل الأماكن الظليلة. رأت «ماتيو» في البعيد، كانت بندقيته معلقة على ظهره وكان يحمل دلوّاً بكل يد. استيقظت وصرخت:

- أيها القرطبي!

توقف وانتظرها.

- هل أنت ذاهب لجلب الماء؟

- ما رأيك؟ هل أنا ذاهب لجلب الماء؟

- دعني أذهب معك.

- مستحيل.

- أرجوك، فأنا بحاجة إلى أن أبرّد عن نفسي في ماء النهر.

لم تكن تلك هي أول مرة تطلب فيها «ثيليا» من «ماتيو» أن ترافقه إلى النهر. تعرف أن الأمر خطيرٌ جداً، ولذلك لم تستغرب رفضه.

- قلت لك لا.

- هيا أيها الوسيم. لم أرَ مقاتلاً أجمل منك. انظر إلى مطرة الماء، إنها جافة كجلد السحالي.

- انتظريني هنا إذن، وسأملؤها لك عندما أعود.

- يا «ماتيتو» لا تكن لثيماً.

- دعي عنك التملق يا صغيرة، إن ظننت أنك ستخدعيني بحلو الكلام فلن تنجحي مهما حاولت.

لا، لن تنجح مهما حاولت. لن تتمكن من إقناع «ماتيو» مهما حاولت. رأته وهو يختفي بين أشجار التوت.

ورأته بعد أن تسلقت أعلى صخرة وهو يصل إلى النهر وهو يحمل دلواً بكل يدٍ وقد علّق بندقيته على ظهره. لا بد أنه يعرف أنها تراقبه. ترك الدلوين وأنزل بندقيته عن ظهره، وانحنى فوق صفحة النهر وأخذ الماء في كلتا يديه ورماه بقوة إلى الخلف من فوق ظهره. وابتسم دون أن تتمكن الصغيرة ذات الشعر الأحمر من رؤية ابتسامته. كان يبتسم لأجلها. هكذا رأته «ثيليا» آخر مرة: وهو يرش الماء من فوق ظهره لأجلها.





استيقظ «الجاكيت الأسود» عندما عانقته أخته. استدار قليلاً ورأى «ثيليا» وهي تتكلم مع «ماتيو». أغلق عينيه. الحُرُّ الخانق منعه من العودة إلى النوم، لكنّه حاول، ليستعيد صورة «بييتا» وقد انزلت خصلةً من شعرها على جبينها. أطبق جفونه بقوة، وبحث وسط أجفانه المغمضة عن «بييتا». رآها وهي تتبختر في مشيتها في بيت شارع «آبي ماريا». رآها وهي تمشي إلى المطبخ. وكانت أزهار فستانها تتساقط على الأرض مع كل خطوة تخطوها. كان حذاؤها مبللاً. فتح «خايمي» عينيه. هزّ رأسه. جفّف العرق عن جبهته وقرّر أن ينهض. عمل جولةً على نقاط المراقبة وهو يحاول أن يهرب من صورة أزهار فستانها الذابلة على الأرض. عندما وصل إلى الصّخرة التي يحرسها «الشحور» عرض عليه سيجارة:

- سيجارة؟

- هات.

كانا خبيرين بالتدخين في وضح النهار: يخبآن جمرة السيجارة في راحة اليد، وينفثان الدخان ببطء ليتفرّق في لحظة خروجه من جوفيهما.

- علينا أن نذهب إلى نقطة البريد. اذهب هذه الليلة.

- هل رأيت ذلك الشيء؟

- ماذا؟

- الشيء الذي لمع وراء تلك الشجرة

- لم أر شيئاً.

قلقَ الرجلان من الأمر نفسه، ففي أثناء سيطرتهم على القرية أبلغهما مقاتلٌ من «إل جانو» أن وسيطته في «غواداراما» ذهبت إلى «سوتو ديل ريال» لشراء المؤونة ولم تعد.

- لا أدري، ولكن يساورني شعورٌ سيئ. كانت تلك أول مرة تذهب فيها إلى «سوتو». إذا لم تصل الليلة إلى «غواداراما» فسأترك لكم خبراً عند نقطة البريد وعليكم أن تغادروا على وجه السرعة.

كانت الغيرريا قد عومت على الوسطاء الذين يشترون لهم المؤونة أن يشتروا من متاجر متعدّدة ومن قرى مختلفة، لكي لا يثيروا الشكوك عند شرائهم كميات كبيرة من الطعام.

- أتعرف الوضع في المخيم؟

- تعرفه جيداً، فابنها مع «الشحور». كانت تصعد هنا على حمارٍ قبل أن تأتي أنت. أعتقد أنهم اعتقلوها، وسبق أن قالت لنا هذه المرأة إنها لا تتحمل التعذيب.

كان مقاتل «إل جانو» محقّقاً. فالبائع في «سوتو ديل ريال» استغرب من كميات الطعام، ورأى أنها كثيرةٌ على عائلة واحدة، ولكنه لم يبلغ الحرس المدني. أمّا الصيدلاني فقد قدّم بلاغاً في ثكنة الحرس المدني بعد أن قبضَ منها ثمن كيلو البيكربونات الذي طلبته. ولم تتحمل وسيطة «غواداراما» التعذيب.

يبدو أن هنالك شيئاً يلمع وراء تلك الشجرة.

نعم، كان هنالك شيء يلمع وراء إحدى الأشجار. لمح «خايمي» حركةً خاطفةً في الشجيرات التي تحيط بالتل وزادت من قلقه:

- انظر!

استظلّ «الشحور» بكف يده لينظر حوله:

- لا نسمة هواء، ما هذا الهراء! لا بد أن شخصاً ما يحرك الشجيرات.

- أيقظ الجميع. يجب علينا أن نغادر هذا المكان.

في تلك اللحظة انعكست الشمس عن قبة جلد ثلاثية الرؤوس<sup>(1)</sup>.  
ثم انعكست عن قبة أخرى.

ثم عن أخرى.

ثم عن أخرى.

اقترب عناصر الحرس المدنيّ من النهر، حيث كان «ماتيو» يرشّ الماء إلى الوراء.

رأتهم «ثيليا» وهم يقتربون من «ماتيو». صرخت باسمه:

- «ماتيو»!

رفع «ماتيو» بصره، وأدرك في لحظة واحدة أن أمره قد انتهى.  
عرف في لحظة واحدة أنه يتعين عليه أن يحذّر مَنْ في المخيم، وعرف كيف سيحذّره. أمسك ببندقيته، وعرف في لحظة واحدة أنهم لن يتمكنوا من الإمساك به حياً. دويّ رصاصة بندقيته أفزع جندي الحرس المدني. وقف الجنود الذين كانوا ما يزالون في وضع القرفصاء، وخرج الذين كانوا مختبئين من مواقعهم.

دويّ رصاصة.

ميّزت «ثيليا» صوت بندقية «ماتيو» لما كان أحدهم يشدها من يدها لينزلها عن الصخرة.

دويّ رصاصة واحدة. دويّ رصاصة واحدة كان كافياً لإيقاظ من كان ما يزال نائماً من المقاتلين.

\* \* \*

---

(1) التريكورنيو: قبة لها ثلاث زوايا وتعتبر رمزاً من رموز الحرس المدني الإسباني حتى اليوم.





صَوَّر الحرس المدني جثة «ماتيو» وجثة كلِّ المقاتلين الذين ماتوا في «إل بيكو مونتيرو» وعرضوا الصور على واجهات كل المحلات في كل قرى «إل جانو». كانوا ستة رجال. وامرأة شابة. انتشرت شائعات عن الخدعة التي سيقع فيها من يعترفون بعلاقتهم بالموتى. قلة قليلة صدّقوا أنهم سيسلمونهم جثث أقربائهم دون أن يقبضوا عليهم أو يحققوا معهم. أمّا الباقيون فنظروا إلى الصور محاولين أن يسيطروا على مشاعرهم لكي لا تفضحهم وجوههم عندما يميّزون أقرباءهم بين القتلى. ظلوا ينظرون. التزموا الصمت، وابتعدوا دون أن تبدر عنهم حركة ألم ودون أن يذرفوا دموعاً. صلّوا لراحة أرواحهم في الخفاء. ولا حداد إن لم يكن هنالك متوقّ. لم يطلبوا من الخوري إقامة قداسٍ ولا صلاة ولا جنازة من أجل موتاهم. موتاهم ليسوا لهم. لن يلبسوا ثياب الحداد، ولن تُقرع الأجراس لأجلهم.

- لا تذهبي.

رجتها السيدة «ثيليا» بلا طائل، وكانت تعرف أنّ رجاءها لن يفيد. ولكنها ألحّت عليها:

- لا تذهبي.

كانت الشائعات قد وصلت إلى بانسيون «أتوتشا». كانت «بييتا» تجمع فئات الخبز في حقيبتها المخملية عندما سمعت الخبر من حفّار القبور. «يقولون إنهم يقبضون على كلّ من يتعرّف إلى أيّ واحد من الموتى، وأنهم قبضوا على امرأة لأنها قالت إن «الجاكيت الأسود» لا يظهر

في أيّ من الصور. أمسك بها جندي الحرس المدني من ذراعها ولم يتوقف عن دفعها أمامه حتى وصلوا إلى الشكّة. وأمرها أن تصف له داخل الشكّة وجه قاطع الطُّرُق هذا، ولماذا تعرف شكله.

- وهل كان «الجاكيت الأسود»؟

- لا أعرف، لا أحد يعرف، وبرأيي فعلى من يعرف أن يحذر كي لا يكتشفوا أمره.

وعندما غادر حفّار القبور طلبت «بييتا» من السيدة «ثيليا» أن تعتني بـ«تينسي» ريثما تذهب هي لرؤية تلك الصور.  
- لا تذهبي.

لم تفهم «بييتا» توسلات السيدة «ثيليا» التي ألحت عليها:  
- لا تذهبي.

خرجت من بانسيون «أتوتشا». أغلقت الباب ولم ينقطع بعدُ الصوت الذي يرجوها:  
- لا تذهبي.  
ذهبت.

ركبت في نفس القطار الذي أخذها إلى «خايمي ألكانتارا» عندما كان اسمه «باولينو».

في محطة «ديليشياس» تذكرت قبلاتهما.  
طحالب.

صعدت إلى المقطورة الأخيرة، وجلست في المقعد الأخير دون أن تنتبه لـ«ريمي» وهي جالسة في الكرسي الأول ممسكةً بذراع «بينخامين».

قطعت الطريق وهي تنظر من النافذة، تتعرق دون أن تشعر بالحرّ،  
وتشدّ على يديها وقد فقدت الإحساس بأصابعها. نظرت دون أن ترى  
العالم في الخارج كما هو في شهر آب (أغسطس): أصفر ومألوم.

نزلت على رصيف القطار الذي داست فيه على الدم ذات يوم  
دون أن تعرف ما هو، ومشّت نحو الواجهة الأقرب دون أن تنظر إلى  
الخلف. لم ترَ «ريمي» وهي تنزل من القطار ممسكة ببطنها، ولم ترَ  
«بينخامين» وهو يمسك بكتفيها ويسأل مدير المحطة عن دورة المياه لأنّ  
«ريمي» مريضة.

مشّت بسرعة.

شدّت على شفتيها.

كانوا ستة رجال وامرأة شابة. سبعة موتى. والعينان الزرقاوان  
المستحيلتان تبحثان بنهم بين الصّور.

كان هنالك جنديان من الحرس المدني يقومان بجولتهما، وتوقفا  
عند باب محل لأدوات الخياطة.

- أتعرفين أحدهم يا جميلة؟

- لا

كانت تكذب، فهي تعرف واحداً منهم. واحداً فقط. كانت عيناه  
مغمضتين وكان فمه مفتوحاً.

بحث الجنديان عن مكانٍ ظليل، ومن تحت مظلة الحانة المجاورة  
أخذا يراقبان «بييتا» وهي تدور حول نفسها. لامست تنورتها ساقها.  
ذهبت.

سرت رعدةً في كل جسدها. إنها تعرف واحداً منهم. الصورة  
الأولى، في الصف العلوي على اليمين.

- إلى اللقاء يا حلوة.

مشت دون أن تنظر إليهما. انطبعت صورة الموت في عينيها الزرقاوين. وكان الجنديان ينظران إلى ربليتي ساقياها. مشت «بييتا» مسيطرةً على خطواتها. فكرت في «تينسي». تعثر كعبُ حذاءها ببلاطةٍ ناتئة عن الرصيف. تماكنت نفسها بعد انهيارها العابر، وقطعت السّاحة دون أن ترى «ريمي». كان «بينخامين» يهوي على زوجته التي كانت تجفف عرقَ عنقها بمنديل. تعبُ «ريمي» اضطرهما إلى البحث عن مقعد في الظل.

«ريمي» مريضةٌ منذ عدة أيام، ولكن عندما وصلت أخبار انتشار الصّور إلى شارع «هير موسيا» نهضت من السرير لكي تذهب لرؤيتها. كانت تريد أن تعرف إن كانت المرأة الشابة هي «إلبيرا».

- هل تشعرين بالتحسّن؟

- نعم، هيّا بنا.

كانت «بييتا» قد انعطفت عند النّاصية، عندما ساعد «بينخامين» زوجته على النهوض عن المقعد.

لم تتوقّف عينا «ريمي» عند وجوه الرجال، ولم تميّز بينهم زوج «أورتينسيا». ولم يعرف «بينخامين» أن الصورة الأولى في الصف العلوي على اليمين هي صورة الرجل الذي دخل معه إلى قاعة الزيارة في عيد من أعياد الميلاد، يومَ جاء ابنه وحفيده من «ليون» وتمكنت «بييتا» من إدخالهم جميعاً إلى «لاس بينتاس».

قرّت تنهيدةً من شفّتي «ريمي». الشابة لم تكن «إلبيرا».

سمع الجنديان تنهيدتها.

- ما الذي أصابك يا سيدي، أتعرفينها؟

- لا.

- ولكن وجهك مضطرب.
  - وجهها مضطرب لأنها مريضة.
  - ألا تكون قد مرضت من منظر هؤلاء؟
  - لا يا سيدي، كانت مريضةً من قبل.
- أمسكت «ريمي» بطنها بكلتا يديها واتجهت إلى الحانة. تبعها «بينخامين» وجنديا الحرس المدني. سألت «ريمي» عن دورة المياه، وطلب «بينخامين» كأس ماء بالليمون لزوجته.
- عندما وصلا إلى المحطة كان القطار يوشك أن ينطلق. جلست «بييتا» في المقطورة الأولى، وجلس الزوجان في المقطورة الأخيرة.
- ليست «إليبرا». ليست «إليبرا». انطبعت في عيني «ريمي» المرتاحة صورة «إليبرا» وهي تحرك شعرها الأحمر. أما عينا «بينخامين» فانطبع فيهما الذعرُ وصورةُ العينين المغمضتين والفم المفتوح لواحدةٍ من بنتي «الشحرور».





كان «الجاكيت الأسود» هو من شدَّ «ثيليا» لينزلها عن الصخرة. قال لها «اهربي، اركضي، اركضي» وركضت. ركضت. دون أن تنظر وراءها أو تنتظر أخاها.

ركضت ودويّ بندقيّة «ماتيو» يرنّ في أذنيها. ركضت دون أن تسمع شيئاً. أزيزُ الرصاصة كان كالصرخة. وكأنها زعقةٌ اخترقت قلبها، وظلت تخرقه وهي تركض مع بقية الرفاق على غير هدى. ركضت. لم يبق أحدٌ تقريباً وراءهم. ركضت تجاه سفح الجبل: مسدسها في يدها، ومطرة الماء معلقةً على ظهرها. راح أخوها ينظّم الفرار ويحثّ الهاربين على عدم ترك أسلحتهم، ويدعوهم إلى الذهاب إلى المخيم الاحتياطيّ، القاعدة التي ينسحبون إليها في حالات الطوارئ.

ولكنها لم تنظر وراءها. ولم تسمع أخاها. لم تسمع شيئاً سوى بندقيّة «ماتيو». تلك الرصاصة ولا شيء سواها، هذه الرصاصة هي التي دفعتها إلى الركض. ركضت هاربةً من الصّرخة التي تمزّق قلبها وهي تركض. بكت. ركضت. شعرت بأنها تحتنق. تعرّقت. سعلت. هربت إلى «إل جانو». تعرّثت. سقطت. نهضت. ركضت. ركضت على الرغم من أن ساقها أنهِكتا من الركض. إلى «إل جانو». على الرغم من أنها كانت تحتنق. إلى «إل جانو». ركضت. دون أن ترى من سلكوا طريقاً آخر. كان الجو حاراً. ركضت. التفتت وراءها: كانت وحيدة. نزلت الجبل ركضاً وحيدة. إلى «إل جانو». ظلّت تركض. وشعرت بأن نفسها قد انقطع. لم تعد ساقها تستجيبان. دهمتها نوبة سعال. وضعت منديلاً في فمها. ما عاد بإمكانها أن تركض أكثر. سقطت على الأرض. نهضت.

ركضت بضع خطوات. سقطت مرة أخرى. بضع خطوات أخرى. ركضت إلى «إل جانو». نظرت حولها ورأت بعض الشجيرات. بحثت عن مكان لتختبئ وتستظل فيه هنيهة. هنيهة فقط. انحنت بين الشجيرات. كان الحرّ هناك أشدّ. كانت عطشى. ألمها صدرها وارتعشت ساقاها. نظرت إلى البعيد. لا شيء. لا أحد. جلست على التراب. أخرجت المنديل من فمها وعلبت المطرة على لسانها. انزلقت نقطة ماء واحدة كأنها هدية. نقطة واحدة. تذوقتها. نظرت إلى البعيد مرة أخرى. لا أحد. أرهفت السمع. صمّت. ينبغي لها أن تغادر مخبأها. وأن تبحث عن الآخرين. وعندما كانت جاهزة للوقوف سمعت صوت بومة. سمعتها ثلاث مرات. نعم، كان صوت بومة. ردّت بتقليد صوت الهدهد. ثلاث مرات. تحركت الشجيرات الأقرب منها. سألها أحدهم بصوت خفيض:

- من أنت؟

ظلت لحظات صامته قبل أن ترد.

- وأنت؟

بدأت الأغصان تتباعد، ورأت «ثيليا» كيف أطلّ وجه «الصغير» ببطء من بينها.

باعدت يديها الأغصان التي كانت تغطيها. ابتسم عندما رأى الصبية ذات الشعر الأحمر التي كانت تزيج الأغصان وكأنها تفتح ستارة وتطلّ برأسها ببطء.

- ثيليا!

ابتسمت «ثيليا». ابتسامة حزينة. ممعنة في الحزن.

- لقد ضللت الطريق.

وضع «الصغير» سبابته على شفثيه. اقتربت «ثيليا» من أذنه.



- مات «ماتيو».

- نعم، أعرف.

تشارك الاثنان حزنَهما ومحبَّأهما.

وتحمَّلا العطش معاً حتى هبط الليل.

\* \* \*



صعدت «بييتا» إلى سطح البانسيون وهي تحمل إناءً مملوءاً بالماء.  
نظرت إلى السماء وبكت من جديد:

- ها قد صرتما معاً يا «أورتينسيا».

منذ عادت من رؤية الصّور صار البكاء يهاجمها دون أن تعرف أنّها  
ستبكي. كل يوم تبكي عدّة مرات. تتساقط دموعها في أية لحظة وفي أي  
مكان حتى لو لم تكن تفكر في الأحزان.

- سأضع الماء هنا تحت الشمس حتى تصبح دافئةً من أجل طفلي.

ستترك الحوض تحت الشمس طوال فترة الظهيرة. وبعدها ستحمّم  
«تينسي» بالماء المُشَمَّس. لأنّها أنجزت ما عليها من خياطة وصار بإمكانها  
أن تستمتع برفقة الصغيرة. سلّمت آخر جهاز عروس للمتجر «بونتيخوس»  
منذ أقل من ساعة. كان مكوّناً من طقم من أربعة شراشف، وثلاث مناشف،  
وشرشفي طاولة مع مناديل الطعام الاثني عشر المصنوعة من الكتّان  
والمطرّزة بحروف «د» و«م.أ» داخل درع مزين بزهور وبراعم الزنبق،  
وقميص نوم عرائسيّ مزين بثلاث طبقات من الكشكش الهولندي على  
القبة والكُمَيْن. فحصد إحدى البائعات في المتجر جهاز العروس. كان  
اسمها «مانوليتا».

- يا للروعة! لا عجب أنّ الجميع يقولون إنّك أفضل من يطرّز  
في مدريد كلها!

أعطتها أجرتها، لكنها لم تعطيها جهازاً آخر، بل أوصلت إليها  
رسالةً من مالكة المتجر.

- قالت إنها ستخبرك عندما يكون هنالك جهاز آخر.

خرجت «بييتا» إلى الشارع متيقنة بأنهم سيخبرونها، ولكن قبل أن تصل إلى الناصية لحقت بها البائعة وقالت لها بصوت متخفص:

- لن تعطيك جهازاً آخر.

- لماذا؟

- قالوا لها إن والدك وأختك كانوا من «الحُمُر»، وأن «الداخلية» اعتقلتكم.

لم تكن بحاجة إلى مزيد من الشرح. فقد سبق لها أن خسرت عملها لأنها مكثت بضع ساعات عند «الداخلية»، عندما أخرجها السيد «فيرناندو» من هناك وقال لها إنه ما عاد بإمكانها أن تخدم في بيته.

- شكراً لإبلاغي، في أمان الله يا «مانوليتا».

- لا شكرَ على واجب.

نظرت البائعة حولها ثم عادت راكضةً إلى المتجر.

في طريقها إلى البانسيون، دخلت «بييتا» إلى كنيسة «القديس خوداس تاديو». أضواء شموعتين.

- الشمعة الأولى لكي تقول لي إن كان «خايمي» على قيد الحياة، والأخرى لكي تجدي عملاً.

انهمرت دموعها. وهمست متضرعةً لشفيح المستحيلات وهي تضع عشرة سنتات في صندوق التبرعات.

- هذه من أجل العمل. وإذا بلغني من الآن حتى الغد أن «خايمي» على قيد الحياة فسأعطيك مثلها.

عادت «بييتا» من الكنيسة باكية، فهدأتها السيدة «ثيليا» ثم علقت ورقة على باب البانسيون، وورقة في محطة «أتوتشا» تعلن فيها عن توفر خياطة بخبرة.

وسريعاً جاءها العمل. وبعدئذ بثلاثة أسابيع وهي تحمم «تينسي» رنت مالكة متجر «بونتيخوس» الجرس وسألت عنها.

سألت إن كانت «بييتا» هي الخياطة المذكورة في الإعلان المعلق على الباب، فالناس يتناقلون أنها أفضل خياطة في مدريد، وقالت إنها تريد أن تحيط لها فستاناً مميزاً، لأن زوجها سيأخذها إلى حفل السواريه الرومانسي في فندق «البالاس».

وهكذا استقبلت «بييتا» زبونها الأولى. أخذت مقاسها وطلبت منها أن تحضر قطعة القماش، وسرعان ما أخبرت السيدة «ثيليا» في المطبخ بمحدث ثم انفجرتا ضاحكتين.

- رأييت يا سيدة «ثيليا»؟ لم تكن هذه المرأة تريدني أن أطرز لمتجرها، والآن تريدني أن أحيط فستاناً لها.

خرجت مبكراً في صباح اليوم التالي لتشكر القديس «خوداس». أضاءت شمعة أخرى. هذه المرة أضاءت شمعة واحدة. اشترت شمعة كبيرة من متجر الشمع المقابل للكنيسة. ووضعت ورقة بييتا كاملة في صندوق التبرعات لكي يقول لها القديس إن «خايمي» على قيد الحياة:

- يبدو أنك تقبض مقابل المستحيلات مقدماً وتحققها فرادى. يا لذكائك. المستحيل الواحد: يكلف شمعة وعشرة سنتات. ولهذا وضعت هذه المرة بييتا كاملة وأضأت شمعة كبيرة جميلة، فأنا ذكية أيضاً وأعرف أن كلفة الطلب تزيد كلما كان الطلب أصعب.

نظرت إلى السماء في طريق عودتها إلى البانسيون. صعدت إلى السطح لتنشر الغسيل الأبيض ونظرت إلى السماء من جديد، وهي تنفض شرفاً وتمده وتثبتته جيداً بملقطين:

- لم أكن أعرف أن القديسين مادّيون.

ثم علقت شرشفاً آخر، وآخر. وعندما انتهت ظلت تنظر إلى رفرفة الشراشف في الريح. وإذا لم يكن هنالك ريح كانت تهزّ الحبل بيدها، فهي تحبّ أن ترى طيران الأقمشة البيضاء والرائحة التي تفوح منها.

- «بييتا»! «بييتا»!

كانت السيدة «ثيليا» تناديهما وقد مدّت نصف جسدها من بيت الدّرج. تناديهما الصغيرة «يا جدّة» وتطلب منها أن تحملها. نادى السيدة «ثيليا»:

- «بييتا» انزلي سريعاً.

صرخت قائلة إن ساعي البريد قد جاء.

- ماذا هنالك؟

- وصلتكِ رسالة!

درج السطح ضيق وحادّ، ولكن «بييتا» نزلت كل درجتين في خطوة واحدة. كان ساعي البريد ينتظر عند الباب حاملاً الرسالة بيده.

لم ترغب السيدة «ثيليا» في استلام الرسالة، فطلبت من ساعي البريد أن ينتظر لحظة، لأنّ «بييتا» انتظرته طويلاً، ومدت يديها مراراً لتستلم رسائل لم تكن موجهة إليها. وخلال الشهور الأخيرة، منذ حدثت مصيبة «إل بيكو مونتيرو» كانت «بييتا» تفقد الأمل وتنهار باكية عندما تغلق الباب ويمضي ساعي البريد دون أن ينطق باسمها. ولكنه نطق باسمها هذه المرّة. وأرادت لها السيدة «ثيليا» أن تسمع اسمها، وأن تأخذ رسالتها بيدها.

سمعت «بييتا» اسمها.

وارتعدت وهي تمدّ يدها.

- شكراً.

بكت عندما قلبت الظرف فوجدت عليه «المرسل: خايمي ألكانتارا». قرأت اسمه على ظهر الظرف «خايمي ألكانتارا». قبلت الظرف. عانقت ساعي البريد والسيدة «ثيليا». مدّت ذراعيها إلى «تينسي» ورقصت معها. لم تتضاءل سعادة «بييتا» عندما قرأت في غرفتها الفقرة الأولى من الرسالة وفهمت من أين وصلتْها هذه الرسالة، ولم تتضاءل سعادتها عندما أخذت الظرف عن سريرها لتتأكد من عنوان المرسل:

«سجن بورغوس المركزي».

«خايمي» في السجن. إنه في السجن. ولكنه على قيد الحياة. وكتب لها ليقول إنّه ما زال يحبّها. إنه على قيد الحياة، ولم تغب عن باله طوال كل ذلك الوقت. ما زال يحبّها. و«بورغوس» بعيدة جداً. ولكنها ستذهب إلى «بورغوس» لتراه.

ستذهب إلى «بورغوس».

نعم، عندما تنتهي من خياطة الفستان لأجل حفل السواريه الرومانسي في فندق «البالاس».

ستذهب، لأنّه ما زال يحبّها.

أخذت قياسات مالكة متجر «بونتيخوس» وهي تراجع في عقلها كلمة كلمة الجُمْل التي كتبها «خايمي» في الرسالة. قاست لها الفستان أكثر من مرة، لأن زبونتها تريد أن ترتدي أكثر الفساتين رومانسية في الحفل. تجاذبت معها أطراف الحديث دون أن توليها الكثير من الاهتمام، لكنها فهمت من الأجزاء التي سمعتها أن زبونتها تتباهى بالحب.

نعم، تتباهى بالحب، فَوَحَزَتْهَا «بييتا» بدبّوس وهي تشدّها لها خصر الفستان.

تتباهى، لأن زوجها دعاها إلى حفل راقص، ستحييه خمس فرق موسيقية وستغني فيه «مينيربا»، وسيقرأ فيها الشعر وستقدّم في النهاية «آنا دي إسبانيا» رقصة الـ«فاندانغو» مع ثمانية راقصين، وبعدئذ سيتناولون العشاء في «القاعة الحمراء» وسيرقصون الفالس في الحديقة الشتوية.

نعم، إنّها تتباهى بالحفل الراقص في «البالاس» التي سيذهب إليها على القوم في مدريد، وتتباهى بالحب. يحمرّ خداهما عندما تذكر زوجها، وأفلتت منها التنهيدات أكثر من مرة. «بييتا» تنهد أيضاً عندما تسمع تنهدها، وتفكر في الرسائل التي ستصلها من «بورغوس» كل خمسة عشر يوماً.

تنهد الزبونة.

وتتنهد «بييتا».





كان الفستان جاهزاً قبل موعد الحفل الرَّاقص الذي تقيمه نقابة الصحفيين في فندق «البالاس». أرسلت مالكة المتجر «مانوليتا» البائعة لديها لتأخذ الفستان من بانسيون «أتوتشا». سلّمتها «مانوليتا» هديةً بمناسبة عيد الميلاد بالنيابة عن مديرتها: إنه أحمر الشفاه الذي يهديه متجر «روبرتا» للعطور لكل من يشترون من متجرهم تذاكر حفل السواريه. وأهدتها أيضاً جوارب كريستالية اللون لأنها ليست على مقاسها.

أخذت «بييتا» أجرة الخياطة، وقبّلت الهدية وطلبت من البائعة أن تنتظر في الممرّ لأنّها ما زالت تغلّف الفستان في المطبخ. ولكن جرس الباب رنّ قبل أن تنتهي من تغليفه.

- إنه السيد «فيرناندو».

أخبرتها السيدة «ثيليا» بأن السيد «فيرناندو» يريد رؤيتها.

- السيد «فيرناندو»؟ سيدي؟

- بلحمه ودمه.

- وماذا يريد؟

- قال لي إنه يريد أن يراك.

استقبلته «بييتا» في المطبخ. ولما كان واقفاً يرفّ برموشه، تابعت هي تغليف الفستان على المنضدة.

- تفضّل بالكلام يا سيدي.

- إنه عيد الميلاد.

رفعت «بييتا» بصرها لأنها لم تتوقع ما قاله. شدّت على ثلاثة دبابيس كانت بين شفّتيها وأصدرت صوتاً فهمه السيد «فيرناندو» على أنها تتساءل «ما الجديد في ذلك؟». ومع ذلك، كرر الدكتور «أورتيغا» كلامه:

- إنه عيد الميلاد.

فلم تجد «بييتا» بداً من أن تُبعد الدبابيس عن فمها.

- هل جئت لتقول لي يا سيدي إنه عيد الميلاد؟

- لا، لكنني عرفتُ أن حبيبك في سجن «بورغوس» وبما أننا في عيد الميلاد...

- كيف عرفت؟

- كل الأخبار تصل في النهاية. وبما أننا في عيد الميلاد، فقد جئت لكي أسألك عنه، ولا أريد أن أفوّت الفرصة دون أن أعطيك العيديّة. أخرج السيّد «فيرناندو» يده من جيبه ومدّ إليها بعض الأوراق النقدية.

- أعِد هذه النقود إلى جيبك يا سيدي ولا تُسئ إلىّ.

- أنا مدينٌ لك يا «بييتا»، وهذه مناسبة جيّدة لأردّ لك الجميل.

- لست مديناً لي بأي شيء يا سيدي، لذلك لا تُسئ إلىّ ببعض النقود التي لا أعرف لماذا تريد أن تعطيني إياها.

- إنّها عيديّة يا «بييتا»، مجرد عيديّة.

أخذت «بييتا» النقود من يده ووضعتها في جيبه. خشيت أن يكون هنالك نيّة غامضة مخفية وراء العيديّة.

- انسَ الموضوع يا سيدي. قلت لك إنني أشعر بالإساءة.

- لا أقصد الإساءة إليك، فقط أريد أن أساعدك.

- أتريد أن تقول لي يا سيدي لماذا تشعر بأنك مُلزمٌ بمساعدتي؟  
أغلق الدكتور «أورتيغا» باب المطبخ وأجاب بصوت منخفض:  
- لأنك ساعدتني.

- أنا؟ بماذا ساعدتك؟ هل يمكنني أن أعرف بماذا؟  
- لم تقولي اسمي.

انتهت «بييتا» من تغليف الفستان. وعندما كانت تثبت ورق  
التغليف الحريري بالدبابيس، تذكرت إلحاح السيد «فيرناندو» بالسؤال  
إن كانت قد جاءت على ذكره يوم أخذتها «الداخلية». فكرت في أن  
«خايمي» سجين الآن، وأن السيد «فيرناندو» يظن أن «خايمي» يعرف  
أموراً ما كان ينبغي له أن يعرفها. ويشعر بالذنب. يعذبه ضميره، ويتزايد  
ألمه ويُطلّ من عينيه كلما حرّك رموشه. يتزايد ألمه، فقد رأت «بييتا» ذلك  
في آخر مرة رآته فيها. كانت تقطع الشارع وصادفته وجهاً لوجه. كان  
السيد «فيرناندو» مع والده وكان يمسك بيد السيدة «أمبارو»، التي لم تعد  
تسكن في الطابق الثاني وكأنها حمامة في برج.

أرادت «بييتا» أن تقف لتسلم عليهم، ولكن السيدة «أمبارو»  
قالت لها «إلى اللقاء» ولم تتوقف. نظر الرجلان بعضهما إلى بعض ثم سلّما  
عليها بهزة من رأسيهما وتابعاً مسيرهما. ابتسم الأب، أما الابن فظل  
يرمش. غمره الخوف والذنب. دفعه الخوف إلى طردها من بيته، ولذلك  
ينخره الشعور بالذنب.

لم يخرجها السيد «فيرناندو» من «الداخلية» إلا خوفاً من أن تقول  
اسمه. والآن «خايمي» في السجن، وها هو الآن يرفّ برموشه خشية أن  
يأتي «خايمي» على ذكره.

- لقد تخلّيت عني يوم طردتني من بيتك، فلا تأت لتتحرر من  
ذنبك في بيتي. لقد تخلّيت عني حينئذٍ، فلا تحسب أنك قادرٌ على شراء  
سماحي. ما أتيت لتشتريه ليس معروضاً للبيع.

- «بييتا»!

- لا تتعب نفسك ولا تُتعب «بييتا»! اخرج من هنا فوراً!

سمعت السيدة «ثيليا» صراخ «بييتا» وجاءت إلى المطبخ:

- ما الذي يجري؟

- لا شيء يا سيدة «ثيليا»، السيد سيغادر.

- لا شيء، معها حق، أنا ذاهب.

وعندما همّ السيد «فيرناندو» بالمغادرة اقتربت «بييتا» من أذنه،  
وشدّت ذراعه المخفية تحت الرداء الإسباني، وأجبرته على أن يقترب:

- اطمئن يا سيدي، فاسمك في الحفظ والصّون، وما دام لم  
يتسرّب حتى الآن فهذا يعني أنّه لن يتسرّب، بغضّ النظر عن النقود التي  
تدفعها أو لا تدفعها.

- فقط أردتُ أن..

- أعرف ما كنتَ تريده، وبتّ تعرف الآن أن الشيء الذي جئت  
لتشتره ليس معروضاً عندنا. في أمان الله يا سيدي.

ابتسمت له نصف ابتسامة.

رفّ السيد «فيرناندو» برموشه.

وفي اليوم التالي لحفل السواريه الرومانسي بدأت الطلبات تنهال  
على «بييتا» حتى إنّها اضطرت إلى إعطاء مواعيد لتتمكّن من استقبال كلّ  
الزبونات. لأنّ فستانها العصريّ خطف العيون عندما دخلت مالكة  
متجر «بونتيخوس» إلى «القاعة الحمراء» في «البالاس». سألتها صديقاتها  
عن خياطتها، لكنها لم تخبرهنّ خشية أن تضطرّ إلى مشاركة أفضل خياطة  
في مدريد معهن. ومرةً أخرى، أشاعت «مانوليتا» الخبر بين زبائن كل  
متاجر الشارع ومتاجر ساحة «بونتيخوس».

وانتشر الخبر. صانعةُ أجمل فستانٍ في الحفل الراقص تسكن في «أتوتشا» في بانسيون السيدة «ثيليا».

ينبغي أن تنظم «بييتا» عملها، لأن النساء سيقفن في طوابير عند باب أفضل خياطة في مدريد، ولكن ينبغي أن يكون الموعد الأول بعد عيد الملوك<sup>(1)</sup> عند عودتها من «بورغوس». أما الآن فستذهب لشراء تذكرتي قطار لأنها ستذهب مع السيدة «ثيليا» والصغيرة لرؤية «خايمي». ستشتري تذكرتين فقط لأن الصغيرة تسافر بدون تذكرة. الأجر الذي تلقتة مقابل خياطة الفستان يكفي ويزيد. ثلاثهن سيذهبن. ستلبس هي أفضل فستان عندها، وهو نفس الفستان الذي لبسته عندما ذهبت إلى شارع «آبي ماريا» في المرة الأولى التي رغبت فيها بأن تكون جميلة. إنه فستان الزهور البنفسجية ذو التنورة الواسعة الذي كان لـ «ألودينا». عدلت قبتة وكُمّيه ليكون على آخر طراز، وضيّقت التنورة قليلاً. رغبت مرةً أخرى في أن تكون جميلة.

ستلبس جورباً كريستالياً.

وستضع أحمر الشفاه.

\* \* \*

---

(1) يحتفل الإسبان بيوم عيد الملوك يوم السادس من كانون الثاني (يناير)، وهو اليوم الذي تُعطى فيه هدايا عيد الميلاد.



لعبة شطرنج لإلهاء العقل. «خايمي» يبحث عن الهدوء. حرّك الفيل لينسى حلماً رآه مراراً. «بييتا» تمشي إلى المطبخ، حذاؤها مبلل، وأزهار فستانها تتساقط على الأرض. لعبة شطرنج للتغلّب على الإحساس بالوحشة والهزيمة. لقد مات «القرطبي». لعبة شطرنج للتغلّب على القلق. رفيقه الذي لم يفارقه منذ التقيا في مدرسة الغيرريا في «بينياميت» قد مات. حرّك الحجارة البيضاء. ذاك الذي كان اسمه «فيلبي» قد مات واسمه «ماتيو بيخارانو». مات «الشحور» أيضاً، لم يتمكّن من حماية إحدى بنتيه في أثناء الفرار فأردوها قتيلين برصاصة في الظهر. القلعة تهدد الفيل. لعبة شطرنج لكي يكفّ «خايمي» عن التفكير في الأحداث التي انهالت عليه واحداً تلو الآخر. مصيبة «إل بيكو مونتيرو» أدّت إلى انهيار «تجمّع مقاتلي الغيرريا في تل أومبريا» حال تأسيسه. كش ملك. هو الذي أنزل أخته عن الصخرة. سحبها وأخذها إلى مخرج المخيم الخلفي. رآها وهي تركض. كان الكل يركضون. وابتعدت هي نحو الوادي. كانت تحمل مسدسها الصغير في يدها.

- حان دورك. كش ملك.

الذين تمكنوا من الفرار ظلوا مختبئين حتى آخر النهار. وفي الليل تجمّعوا مرة أخرى في المكان الذي اتفقوا عليه لهذه الحالات، ونظراً إلى سقوط التلّ في يد العدو فقد قرروا من فورهم الانضمام إلى «تجمّع مقاتلي الغيرريا في إكستريما دورا والوسط». عرفوا في تلك الليلة أن قرية «إل جانو» التي نجحوا في السيطرة عليها قد سقطت. أعدموا كل جنود الحرس المدني الذين سلموا أسلحتهم، وشرّدوا كل الاهالي، وحرّقوا

البيوت، ومنعوا أصحابها من السكن على أراضيهم أو الاقتراب منها مسافةً تقلّ عن خمسين كيلو متراً. أخذ الملك مكان القلعة. لم تأت أخته إلى نقطة اللقاء. لم يرها بعد ذلك. ولكنه سمع بها بعد شهر، عندما اجتمع «خايمي» مع «خيسوس مونثون» في حانة في شارع «آبي ماريا» للترتيب لهجوم «وادي أران»<sup>(1)</sup>. لم يقولوا له شيئاً سوى إنها في أمان، ولم يسأل هو المزيد من الأسئلة. إنها في أمان. هذا هو كل ما يريد أن يعرفه. هذا كافٍ. ينبغي له أن يحرك الجندي الثالث لكي لا ينكشف الملك. في أثناء اجتماعه مع «مونثون» في شارع «آبي ماريا» حاول أن يُبعد عن ذهنه صورة «بييتا». حذاؤها المبلل، وفستانها المزين بالأزهار. لم يَنْجُ من ذكرى كابوسه المتكرر. تَرَدَّدَ عندما خرج إلى الشارع. وتردّد مرة أخرى عندما وصل إلى ناصية شارع «ماغدالينا»، فبيت «بييتا» قريبٌ جداً من هنا. من السهل الصعود إليها، وستكون بين ذراعيه خلال دقيقة. تمنى رؤيتها، وهي ترتدي فستانها المملوء بالأزهار. تردّد ولكنه خشي أن يعرضها للخطر، فعصّ على شفته وذهب مباشرةً إلى محطة «ديليشياس». فكّر في «بييتا» على رصيف القبلات، وفكّر في لون عينيها المستحيل، وفي خصلة شعرها التي تنسدل دائماً على جبينها وبشفتيها التي تنتظر شفثيه. ربّما لهذا السبب لم ينتبه للرجلين اللذين كانا يتعقبانه.

لم يتمكن من الصعود إلى القطار.

- كش ملك.

(1) يقع وادي أران في مدينة «جيدا» في إقليم كاتالونيا على الحدود مع فرنسا. نظّم الاتحاد الإسباني هجوم وادي أران سنة 1944 بوصفه محاولة أخيرة لجمع من تبقى من المؤمنين بالجمهورية من المنفيين في فرنسا ليدخلوا إسبانيا من جديد في ما أسموه «عملية استرداد إسبانيا» وكانوا يطمحون إلى تأسيس حكومة في أران وإحداث ثورة على نظام فرانكو والانطلاق من أران إلى إسبانيا كلها. توقع القياديون الجمهوريون في المنفى أن يتلقوا دعماً من الأهالي ودول المحور، ولكن العملية فشلت وانسحب المهاجمون عائدين إلى فرنسا بعد أسبوع.



سقط الملك على رقعة الشطرنج. تقبّل هزيمته. اقترح أن يلعبا مباراةً لتسوية الحساب. لعبةً جديدة.

الوقت يمضي بين الحجارة السوداء والبيضاء. الجو باردٌ في الساحة. وخبز الشعير الذي أكله على الفطور ما عاد يدفع معدته. لم ينتصف النهار بعد، وما زال يحتفظ في جيبه بأربع حبات تين مجفف محشوة باللوز. حان وقت الغداء. احتفظ هو ورفيقه في اللعب بالطاقة الغذائية التي أخذها من التين عند الفطور لكي يحتملا الجوع، لأنها يرفضان تناول طعام السجن: حساء خس باردٌ ومُمتن أو يخنة حمص مطهية بأربع حبات حمص ترقص على سطح ماءٍ اليخنة الوسخ، إنها أسوأ من «عدس نيجرين» الشهير الذي أكلوه طوال سنوات الحرب. التين وقطعة الخبز التي يقدمونها مع العصيدة تخفف من جوعهما حتى الظهر. وبعد أن يحضرا ورشة النجارة، التي يصنعون فيها صناديق خشبية تبيعها النساء في شوارع القرى، ينزلون إلى المطبخ ليشووا القليل من البطاطا.

- ابدأ أنت يا «خيراردو».

سيخسر من جديد. وسيظنّ من جديد أن الخسارة لا تهمّه. ولكنها تهمّه. تجرّع الكثير من الهزائم. هزائمه وهزائم الآخرين، حتى صار يبحث في الشطرنج عن انتصارات صغيرة. عليه أن يتعلم إستراتيجيات جديدة، وخطط هجوم ودفاع ليتحرّر من إحساسه بأنه ما عاد يؤثر في أي شيء. يلعب الشطرنج من قلبه. وفي ذلك السجن، الذي يسمونه «الجامعة» يدرس كل الكتب التي مرّت على الرقابة، و ينتظر بحبّ رسائل «بييتا» التي لا تمرّ على الرقابة، بينما يصبح هو خبيراً بتاريخ الحزب البولشفيكي في الاتحاد السوفيتي.

كش ملك.

بقي يومان على لقائه بـ«بييتا». يومان اثنان. سينتظر بفارغ الصبر. يومان اثنان.

يومان.

ما زال يشعر بالألم في كليتيه، وما زال ينزف عندما يتبول. تؤلمه أصابعه أيضاً، ولكن أظافره نمت من جديد. اسمي «خايمي ألكانتارا». أنا سجينُ حرب. «خايمي ألكانتارا». حكمت عليه المحكمة العسكرية باعتباره «خايمي ألكانتارا» من قرية «بيلتشيتي». لم يربطوا بينه وبين «الجاكيت الأسود».

لم يحكموا عليه بالإعدام.

تم تناول القضية المنظورة نتيجةً لتحقيقات القسم السياسي الاجتماعي لدى الشرطة الوطنية في مدريد، التي هدفت إلى تفكيك الأنشطة السريّة التخريبية التي قام بها عددٌ من أهالي العاصمة بهدف إعادة تنظيم الحزب الشيوعي، وذلك بتوزيع منشورات تحت عنوان «عاشق الكتب» تحتوي على مقالات من جريدة «عالم العمال» الممنوعة.

كان رئيس المحكمة كولونيلاً يحمل بيده مطرقة. كلما حاول محامي الدفاع أن يتدخل، كان القاضي يضرب المنصة بمطرقته.

قرؤوا في البداية قائمة المحكومين بالإعدام. قرؤوا الأسماء واحداً تلو الآخر. دون أن يرفّ لهم جفن. وقرؤوا بعدئذٍ بقية الأحكام، قرؤوا الاسم أولاً وبعده الحكم.

«خايمي ألكانتارا»، ثلاثون عاماً.

- كش ملك.

- إنك تتعلّم بسرعة.

انتصاراتٌ صغيرة.

- أنلعب مباراةً أخرى؟

- لاحقاً.

نعم، سيلعب لاحقاً.

أما الآن فريد أن يتمشى في الساحة.

- هل أساعدك؟

- شكراً، يمكنني أن أمشي وحدي.

بصعوبة يمكنه أن يمشي، لكنه يمشي ويفكر في «بييتا». كتبت إليه في الرسالة الأخيرة: «سأتي مع السيدة «ثيليا» وسأحضر الطفلة معي. اسمها «تينسي»، مثل أمها».

فكر في رفيقه «ماتيو». سيرى ابنة رفيقه التي لم يتمكن والدها من رؤيتها. يومان اثنان. وتذكر «أورتينسيا»، المرأة التي تعلمت الكتابة على جدران «كاسا غراندي» في «دون بينيتو». تعلمت الكتابة بقلم رصاصٍ ذو، كان يمسك بيدها.

- هكذا، أرايت؟

- هكذا، نعم. ولكن الأمر يختلط عليّ إن أفلت يدي، وأكتب حروفاً أقل أو أكثر مما ينبغي.

- اكتبي وأنا أفهم المكتوب، لأنني أعرف الحرف الزائد أو الناقص.

- ويمكنك أن تكتب الحرف الناقص، وأن تزيل الحرف الزائد؟

- لا تفكري في هذا الآن. ما عليك إلا أن تكتبي كلمة وأن تضعي الحروف متقاربة وأن تفكري في أنها صحيحة هكذا.

- من غير شك، فالحرف الزائد هنا ناقصٌ هناك.

تمشى «خايمي» في الساحة. دخن سيجارة على عجل وداس عقبها على الأرض. لم يكن بخير. بصعوبة يمكنه أن يمشي دون أن يدهمه الألم في مثنائه وخصيته. اقترب السيد «خيراردو». ساعده على الوصول إلى العيادة ورجاهم أن يعطوه قربة ماء ساخن. وضع «خايمي» القربة.

ساعدته الحرارة على التبول. نرف. لم تهون القربة من ألمه. وشعر بالغضب. الغضب، لأنه ينبغي له أن يتعافى خلال يومين. ينبغي أن يدخل قاعة الزيارة على قدميه. يومان اثنان. غضب، لأنه لا يمكن أن يتعافى خلال يومين، ولأن «بييتا» ستراه يمشي مستنداً إلى السيد «خيراردو». غضب. نعم، إنه الغضب.

\* \* \*

قاعة الزيارة في سجن «بورغوس» المركزي كثيئة ومعتمة ولكنها هادئة. وبدلاً من الشبك الحديدي، ففيها جداران متوسطا الارتفاع، بينهما ممر، وعليهما قضبان حديدية تمتد حتى السقف. لا يتلقى السجناء الكثير من الزيارات، ولهذا فيمكن للسجانين الذين يراقبون الممر أن يسمعوا حوارات الجميع وأن يتوقفوا لينصتوا للحوار الذي يجذب اهتمامهم. كانت «بييتا» والسيدة «ثيليا» تنتظران، وقد أمسكت كل منهما بيد من يدي «تينسي». نظرت الصغيرة إلى ما حولها بعينين مفتوحتين على اتساعهما. رأت الأهالي يتمسكون بالقضبان القائمة أمامهم، ولكن الجدار حجب عنها دخول المساجين. رفعتها «بييتا» بين ذراعيها.

- ها هم.

رأت السيدة «ثيليا» السيد «خيراردو».

لم تميز «بييتا» أحداً سوى رجلين، وكان أحدهما متكئاً على الآخر.

- أين؟

- هناك.

ساعد السيد «خيراردو» «خايمي» على الوصول إلى القضبان. عانقت «بييتا» الصغيرة وقالت متأوهة:

- ماذا فعلوا بك؟

مدّ «خايمي» يده اليمنى إلى «بييتا» من بين القضبان. مدت هي يدها إليه. لم تتصل اليدان. ولكنها شعرا أن أصابعهما تتلامس.

أمرهما السجّان بأن يتراجعا. نظر «خايمي» إلى العينين الزرقاوين المستحيلتين الناظرتين إليه.

- مضى وقتٌ طويلٌ دون أن أرى هذا اللون المستحيل.

- أي لون؟

- لون عينيك يا صغيرة.

سألته «أتحبني؟» فأجاب «أحبك» وهو متمسك بالقضبان، لأنه كان عاجزاً عن الوقوف على رجله.

- عودي إلى الورا، أريد أن أرى الفستان.

خطت «بييتا» بضع خطواتٍ إلى الورا لكي يرى «خايمي» الفستان.

كان الفستان مليئاً بالأزهار.

ابتسم «خايمي» وسألها إن كانت الطفلة التي تحملها بين ذراعيها هي «تينسي». فأجابته «نعم، إنها تينسي» وعادت إلى القضبان وقالت للصغيرة أن تنظر إلى «خايمي»:

- انظري.

- هل أنت أبي؟

- لا يا بنيّتي، لستُ أباك.

قال لـ «بييتا» إنها تشبهها، وأنّ لها نفس العينين. ثم رجّأها أن تطلب البنطال الذي تركه في قسم الطرود.

- لقد وضعتُ في جيبه طول الساق، لكي تقصّريه لي.

لم تكن «بييتا» تعرف أنّ «خايمي» وضع في ثنية البنطال بياناً يطالب السجناء فيه بإلغاء أحكام الإعدام. لم تكن تعرف ذلك بعد. ولكنها ستعرف. عثرت على البيان عندما همّت بتقصير البنطال وفكّت

قطبه السفلية. سلّمت البيان في «بويرتا تشيكيتا» لأنها تعرف أن «ريمي»  
تجتمع هناك مع النساء المتطوعات مع «الإغاثة الحمراء».

اقتربت «بييتا» من القضبان. تكلمت صارخةً لأنها كانت معتادةً  
على الصراخ في قاعة زيارة سجن «لاس بيتاس».

- أحضرت لك طرداً ونقوداً.

- لماذا تصرخين؟

- لا أدري.

- لا تحضري المال مرةً أخرى، فالحزب يتكفل بي، وأنت لديك ما  
يكفيك من المسؤوليات مع هذه الطفلة الملائكية.

انتهى وقت الزيارة. أمر السجّان السجناء بالخروج.

الآن «خايمي» هو من سأل:

- أتحبينني؟

- نعم.

- وأنا أيضاً أحبك يا صغيرة.

ساعده السيد «خيراردو» على المشي. فقد السجّان صبره:

- هيا! بسرعة، فليعد كل واحد إلى مجموعة العمل.

صاحت «بييتا»، ووصل صوتها إلى «خايمي» خلال الهواء:

- سأعود العام القادم!

التفت «خايمي» إلى الورا، إلى العينين الزرقاوين المستحيلتين،  
وقال وهو يمشي:

- اكتبني إليّ.

انتهى الوقت. رأى «خايمي» شفتي «بييتا» وهي ترتعش، ورآها وهي تلوح بيدها.

- سأعود في العام القادم يا حبيبي.

جاء الآن وقتُ الانتظار.

سينتظران عاماً حتى يلتقيا من جديد. وسيكتبان الرسائل مرة كل خمسة عشر يوماً. الانتظار. عاد «خايمي» إلى مجموعة العمل مستنداً إلى السيد «خيراردو». سيلعب معه الشطرنج وهو ينتظر. ينتظر رسائل «بييتا» التي شطبت الرقابة بعضَ جملها. ينتظر هذه الرسائل والرسائل التي يرسلها جده. ينتظر و ينتظر. تصله رسالةٌ من بامبلونا ورسالةٌ من مدريد بالتناوب، بمعدّل رسالة واحدة في الأسبوع. يردّ على الرسائل. غدّى مشاعره بالكلمات لكي يتمكن من الاستمرار بالحياة. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. فالكلمات تخادعُ الغياب، لكنها تؤكد على البعد. ليس من السهل عليه أن يعرف أن الحياة مستمرة خارج السجن، وأنه مجرد شاهد ساكن يرى ما يحدث من خلال ما يرويه له الآخرون، يشاهد من بعيد. دائماً من بعيد.

لا، ليس سهلاً.





للمدن تاريخها الخاص، لكنها تحمل أيضاً تاريخ الآخرين: ضئيلٌ وشخصيٌّ، واحدٌ ومتعدد، تاريخٌ يكتبه من يحملون المدينة في زوايا الذاكرة. «خايمي» الآن في «بورغوس». لقد عاد إلى المدينة التي وُلد فيها، والتي ذهب فيها إلى المدرسة أول مرة، والتي طَرَدَتْ فيها أمّه الخوفَ عن رأس السرير، والتي علّمه فيها والده أن يمشي المشية العسكرية، كأنه جنديٌّ من الرصاص يحمل سيفاً من الخشب، والمدينة التي دخل فيها عراكه الأول، والتي عرف فيها لذّة أن يشدّ ضفّيرتين، والتي عرف فيها ما تعنيه كلمة «الشغف». إنه الآن في «بورغوس». ولن يفقد شغفه في «بورغوس». لن يفقده على الرغم من أنه يشعر أحياناً بأنه يفقده. وعلى الرغم من أنّه يشعر أحياناً بأن «بورغوس» بعيدةٌ جداً. سيتابع النضال بشغفٍ من «بورغوس»، من بعيد، متذكّراً أباه الشغوف بالانضباط العسكريّ، ومتذكّراً أمّه الشغوف برواية قصص الأطفال. وبشغفٍ يحضر النقاشات السياسيّة الليلية في مجموعته. يقرأ بيانات الحرب الإنجليزيّة. يناقش مع رفاقه تطوّر الحرب العالميّة. ويحتفل بشغفٍ بتقدّم الحلفاء وبتحرير باريس وبانسحاب قوات المحور، ويعزّز أمله بأن تدعم الحكومات الديمقراطيّة الاتحاد الوطني الإسباني. يفعل كل هذا بشغفٍ في سجن «بورغوس».

كان الحراس يمشون حول التدفئة في مرابض المراقبة، ولا يقاطعون ما يجري في السجن إلا من أجل عدّ السجناء. كان يمكن للسجناء أن يتحركوا بحريّة داخل السجن، وأن يخرجوا إلى الساحة، وأن ينزلوا إلى المطبخ، وأن يجتمعوا مع مجموعات العمل ليعقدوا الاجتماعات

السياسية. شهد «خايمي» حماسة السجناء حيال إنزال النورماندي، وشهد تفاؤل أولئك الذين جهّزوا حقائبهم مقتنعين أن نهاية نظام فرانكو الديكتاتوري قد حلّت مع هذا الإنزال، وشهد إحيائهم عندما علموا أن أبواب السجون لن تُفتح بعد انتصار الحلفاء.

شهدَ عجزَ الحكومة الجمهورية في المنفى من مكانه في «بورغوس»، والأسباب التي عزا إليها الحزب الشيوعي الإسباني عدم تدخل القوى الديمقراطية في إسبانيا، والتي راح السجناء يتناقشون فيها مما زاد من التوتر القائم أصلاً بين الاشتراكيين والأناركيين والشيوعيين.

- يسمّون الوضع في إسبانيا «المشكلة الإسبانية». أيمكنكم أن تصدقوا؟ لسنا أكثر من مجرد «مشكلة».

- ليتني أغوط على هؤلاء الديموقراطيين.

- إذن امسح مؤخرتك بهذه الورقة، فالكلام المكتوب هنا واضح: الذنب ذنبُ الشيوعيين. كل العالم يظنّ أنكم من ستقلدون الحكم لو عادت الجمهورية. لولا ذلك لما خاف أحدٌ من قيام دولة تابعة للاتحاد السوفييتي في جنوب أوروبا.

- وهل يمكنك أن تشرح لي من هم «كل العالم»؟

- لا تتذاكى، فالرفيق على حق، فأنتم من أفسدتم الموضوع بهرائكم الماركسي - اللينيني.

- سأهشّم وجهك

- حاول إن كنت تجرؤ

جرت نقاشات وانضمّ إليها سجناء آخرون. كان هنالك سجناء جدد كل يوم. الرفيق الأخير الذي دخل السجن حمل معه خبراً مشؤوماً:

- اجتياح «وادي أران» كان كارثياً. كان إخفاقاً كاملاً.

ساعده «خايمي» في خلع آخر إطار خشبي عن النافذة، ووضعوا فراشه فوق الإطار ليحموه من برد الأرض ورطوبتها.

- ينبغي أن ندعو إلى اجتماع عاجل.

دعوا إلى اجتماع عام. تحدّث السجين الجديد بشأن إخفاق «عملية استرداد إسبانيا» واقترح أن يتناولوا مسؤولية «سانتياغو كارريو»<sup>(1)</sup> عن الانسحاب من «وادي أران»، وسرقة «خيسوس ماثون»<sup>(2)</sup> للأضواء، وتفاؤل الاتحاد الوطني الزائد وعدم وضعه لإستراتيجية مناسبة لاجتياح كان يمكن أن يستفيد من سبعة آلاف مقاتل غيريريا إسباني مستعدين للهجوم من فرنسا، ولكنهم لم يحسبوا حساب قلة الدعم من داخل إسبانيا.

- علّقوا آمالاً عالية على تعاون الشعب، لكن الشعب ضاق ذرعاً بالحرب.

- استمرّت المغامرة عشرة أيام ثم انتهى الموضوع.

من سجن «بورغوس» المركزي، من بعيد، دائماً من بعيد، شهد «خايمي» محاولة اختراق «البرينييه» الفاشلة. ولكن بفضل صحف الغيريريا التي كان يُدخلها أحد السجانين مقابل دفعة شهرية مقدارها مئة وخمسون بيسيتا، علِمَ أن تجمعات مقاتلي الغيريريا مستمرة بالكفاح المسلح رغم الإخفاق.

- 
- (1) سانتياغو كارريو: قيادي شيوعي بارز، وهو من قاد عملية اجتياح وادي أران.
  - (2) خيسوس ماثون: قيادي شيوعي بارز وكان قائد الاتحاد الوطني الإسباني بين سنتيّ 1943 و 1945. أصرّ على اجتياح وادي أران على الرغم من رفض الحزب الشيوعي الفرنسي للفكرة، وبعد أن أوقف الجيش الإسباني تقدّم المجتاهين غُزل ماثون من قيادة الاتحاد الوطني، واتهمه الحزب الشيوعي الإسباني بأنه قدّم مصلحة الاتحاد الوطني على مصلحة الحزب، ولما كان ينتظر السماح له بالعودة إلى منفاه في فرنسا قبضت عليه الشرطة الإسبانية وحُكم عليه بالسجن ثلاثين عاماً.

كانت النقاشات السياسية تُشعرهم بأنهم جزءٌ من المقاومة الفاعلة. كانوا يكتبون البيانات والمنشورات ويوزعونها بين السجناء ويخرجونها إلى الخارج ليثبتوا أن الكفاح مستمر في السجون. شارك «خايمي» في لجنة «البروباغندا والتجيش» وكان يعطي التوجيهات لزملائه في ورشة النجارة لكي يصنعوا مخابئ داخل الصناديق التي يصنعونها وأن يضعوا فيها المنشورات لكي توزّعها نساؤهم في الحافلات والقطارات. مضى الوقت على هذه الصناديق، لأن الوقت لا يتوقّف في «بورغوس» على الرغم من أن «خايمي» كثيراً ما كان يحسّ بأنه يتفرّج على مضيّ الوقت من بعيد. ينجح الوقت والشغف بخداع جدران السجن عندما تفتح «بييتا» مخابئ الصناديق في بانسيون «أتوتشا».

- «خايمي»

- نعم يا «خيراردو».

كان «خايمي» يحمل رسالةً من جده، وكان السيد «خيراردو» يحمل رسالة أخرى. لبثا نصف النهار وهما ينتظران، ولكن السجان المسؤول عن توزيع المراسلات كان كسولاً اليوم، وآخر التسليم أكثر من ساعتين.

- هل نلعب آخر مباراة اليوم بعد أن ننتهي من قراءة الرسائل؟

- حسناً.

كانت رسالة السيد «خابيير» أقصر من العادة. خطه أكثر تداخلاً. اليد التي كتبها أكثر ارتعاشاً. روى لحفيده العزيز في بضعة سطور أن «إليريتّا» جاءت لتودّعه قبل أن تغادر إسبانيا وقالت له إن اسمها الآن «ثيليا» على اسم جدتها. وأضاف إنه بخير على الرغم من الالتهاب الرئوي الذي أصابه. كتب إليه أن الالتهاب خفيف، وألا يقلق عليه. ولكن لا يمكن لـ «خايمي» ألا يقلق. كلمات جده أثارت اضطرابه. جده

مريض. و«ثيليا» في «براغ». أنهى قراءة الرسالة، وفي اللحظة التي انتهى فيها من القراءة بدأ ينتظر الرسالة التالية.

- يمكننا أن نلعب المباراة الأخيرة متى ما أردت.

نعم، المباراة الأخيرة. رفيقه لن ينتظر معه وهما يلعبان الشطرنج لحظة استلام رسالة واحدة في الأسبوع. لن ينتظر معه يوم الزيارة لينزل إلى قاعة الزيارة مرةً في السنة، ولن يعود بعدئذٍ معه إلى مجموعات العمل لينتظر من جديد أن تمر سنةٌ أخرى. لأن رفيقه نال حريته مساءً ذلك اليوم. نادى أحد السجناء اسمه، وأضاف بصوت عالٍ:

- اخرج وخذ معك كل أغراضك.

خرج وأخذ معه كل ما يخصه وصندوقاً أرسله «خايمي» إلى «بييتا». صفق رفاقه وهتفوا له ابتهاجاً بإطلاق سراحه. اصطفوا في طابور ليعانقوه. عمّ البكاء. وضع الحقيبة على ظهره وأعطى لوح الشطرنج رفيقه «خايمي»:

- سنلعب المباراة القادمة في الخارج.

وعند باب السجن كانت تنتظره السيدة «ثيليا».

\* \* \*



دعت السيدة «ثيليا» «بييتا» و«تينسي» إلى تناول التشورروس<sup>(1)</sup> والشوكولاتة في «سان خينيس»<sup>(2)</sup>.

- هل في وسعي أن أكل التشورروس قدر ما أشاء؟  
- كلي قدر ما تريد.

عضّت الصغيرة شفتها ورفعت عينيها لتحسب عدد حلقات التشورروس التي يمكنها أن تأكلها. تمسّكت السيدة «ثيليا» بقوة بذراع السيد «خيراردو». شدّ على يدها. حاول كلاهما أن يخفيا سعادتهما أمام «بييتا» لكي لا يشعرها حضورُ السيد «خيراردو» بغياب «خايمي». ولكنها شعرت بسعادتهما وأصابتهما كضربة، غير أنّها وارت مشاعرها وابتسمت ناظرةً إلى «تينسي».

- ستأكلين حتى الإعياء يا صغيرة، فقد بدأتِ تأكلين بعينيك، وستنامين الليلة وقد أصابك المغص.

نعم، أيقظت «تينسي» خالتها عند الفجر وهي تتقلب في الفراش.  
- ألا تنامين بهدوء وتكفين عن ركلي؟ كأنك ذيلُ سحلية!  
- بطني يؤلمني.

(1) التشورروس: حلوى من العجين المقلّي على شكل حلقات مطاولة أو خطوط مستقيمة، تُؤكل بعد أن تُغمس في الشوكولاتة السائلة. التشورروس حلوى تقليدية في إسبانيا والبرتغال وتؤكل غالباً في الفطور.

(2) أشهر مطاعم التشورروس في مدريد، وما يزال مفتوحاً حتى اليوم.

- كنت أعرف أنك ستمرضين، لا يمكنك أن تكوني جشعةً هكذا.
- بعد أن تقيأت «تينسي» التشورروس والشوكولاتة، دسّت نفسها بين ذراعي «بييتا» باحثةً عن الدلال الذي يؤلى للمتمائلين للشفاء.
- هل السيد «خيراردو» جدّي؟
- نعم.
- ولكن بما أنك لستِ أُمي وهو ليس والدك، فلا يمكن أن يكون جدّي.
- أنا أملك المستعارة.
- والسيد «خيراردو» جدّي الحقيقي، أم إنه مستعارٌ مثلك؟
- مستعار، لكن هنالك حب مستعار أعمق من الحب الأصلي.
- ولكن الأطفال في المدرسة عندهم أمهات حقيقيات. أريد أن يكون لي أمٌ حقيقية.
- لديك أمٌ حقيقية وهي في الجنة، وعندك أمٌ أخرى مستعارة، هذا يعني أن لديك أمهات أكثر من الأطفال الآخرين. نامي الآن، فقد تأخر الوقت.
- ولكن ماذا أقول للأطفال الذين يقولون إنني كاذبة عندما أقول إن عندي جدًا؟
- قولي لهم أن بعض الكذب حقيقة.
- وهل أقول الكلام نفسه للراهبات؟
- نعم، والآن حان وقت النوم.
- في الصباح، نظرت «تينسي» إلى انعكاسهما في المرآة و«بييتا» تسرح شعرها. وفي المساء، عندما كانتا في طريقهما إلى «لا كاسا دي كامبو» لرؤية «ريمي»، شدّت «تينسي» يدَ «بييتا» لكي تنظر إليها.



- أنا أشبهك، صحيح؟

- صحيح.

- أشبهك كأنك أُمي، صحيح؟

كان يومَ أحد، وكان «لا كاسا دي كامبو» مزدحماً أكثر من العادة على الرغم من البرد. وعندما وصلنا إلى «بويرتا تشيكيتا» كانت مجموعة النساء اللواتي يتظاهرن بأنهن في نزهة متحلّقات حول «ريمي».

- يا للمسكين.

- قلبي معك.

- ما يخفف عنا هو أننا نعرف أنه لم يتألم.

- ما الذي حدث؟

- إنه ابن «ريمي» الصغير، مات فجأة.

مرّت «بييتا» بين النساء لتصل إلى «ريمي» والنساء وراءها يتحسّرن:

- من المعروف أن هؤلاء الملائكة لا تحتمل قلوبهم طويلاً.

- ولكن الواحدة منا لا تكون جاهزة أبداً.

- وخاصةً هي، فهي تبكي على السنوات التي قضتها في السجن.

تقول إنها أضاعت هذه السنوات من رعاية ابنها وأُمها أم سيئة.

- لم تكن أماً سيئة.

- عانقت «ريمي» «بييتا».

- صغيري.

- إنه الآن في الجنة، وأن يكون ملاكاً في الجنة أفضل من حياته

هنا. أفضل من حياتنا كلنا يا «ريمي».

وبعد محاولة التخفيف عن المرأة التي فقدت ابنها، فتحت النساء سلاهنّ، وأخرجن الطعام الذي تمكّن من جمعه، ووزعته «ريمي» في طرود سيرسلونها إلى السجناء ممن ليس لهم أقارب.

- الطعام قليل.

نعم، الطعام قليل.

- هل مع أيّ منكنّ نقود؟

كانت «بييتا» تحمل معها نقوداً، وتحمل كذلك البيان في الصندوق الذي أرسله إليها «خايمي» مع السيد «خيراردو».

- ينبغي لنا أن نرسل هذا البيان إلى الخارج حتى تنشره الصحف.

نُشر البيان قبل نهاية العام، وحلّت الصناديق الخشبية محل الحمام الزاجل، وصارت «بييتا» دون قصدٍ منها عضواً من أعضاء الحزب الشيوعي الذي يعمل في الخفاء، على الرغم من أنّها لم تنتسب إليه رسمياً قطّ.

- أنا أفعل كل هذا من أجل «خايمي»، فأنا لست مُلزمةً بجماعتك يا سيدة «ريمي»، ولو كان الأمر لي لكنت أسعد الناس برؤيتهم يغربون عن وجهي.

إنّما تفعل كل هذا من أجل «خايمي». تأخذ الرسائل التي يرسلها إلى «لا كاسا دي كامبو»، وتبيع الصناديق في سوق «الراسترو»<sup>(1)</sup>، وتزور باسم «الإغاثة الحمراء» متاجر الأغذية التي تدها عليها «ريمي» لتملأ سلتها، من أجل «خايمي». وتدّخر جزءاً من المال الذي تجنيه من الخياطة لتقدّمه إلى «ريمي» لمعرفتها أنّها توزّع المال الذي تجمعه على السجناء. و«خايمي» سجين، ويرفض دائماً أن يأخذ المال الذي تأخذه له «بييتا»

(1) سوق للأغراض المستعملة والأشغال اليدوية يُقام في «مدريد» كل يوم أحد.

مرة في السنة. تجتمع مع «ريمي» في «بويرتا تشيكيتا» من أجل «خايمي»، ولكنها تذهب إلى الموعد كل شهر وهي تشتكي من الحزب.

- لم يجلب لي جماعتك يا سيدة «ريمي» إلا وجع القلب.

- ليس الأمر بهذا السوء.

- وجع القلب فقط، ولن تنالوا شيئاً من كل هذه السياسة عندما يحدث ما سيحدث، والذي نعرف أنه سيحدث.

- ما سيحدث هو الحرية.

- الحرية ووجع القلب في آن معاً.

وجع القلب.

آخر من أوجع قلب «بييتا» كانت الأسقفية منذ شهر عندما رفضوا زواجها لأن خطيبها شيوعي. كان «خايمي» قد وقّع وكالة فوّض فيها السيد «خيراردو» ليمثله في زواجه بـ «بييتا» بالوكالة. ولكن قسيس سجن «بورغوس» المركزي أبلغه بأنّ عليه أن يتخلّى عن أفكاره السياسيّة قبل أن يتزوج، فرفض «خايمي» ذلك. قال له القسيس «الأسقف يرى أنّك المذنب».

فقال له «خايمي»: «الموضوع لا يزعجني ولكن هذا سيوجع قلب خطيبتي» ثم سأل القسيس إن كان من الممكن أن يخلع ثياب الكهنوت لأي سبب. وعندما ردّ القسيس قائلاً إنّ هذا مستحيل، طلب منه «خايمي» أن يتفهم أن الشيوعي كذلك لا يمكنه أن يتخلّى عن أفكاره لأي سبب.

- وهكذا الحال يا سيدة «ريمي»، ومن الآن فصاعداً صار من الممكن أن أذهب إلى «بورغوس» وألا يسمحوا لي بالدخول، كما حدث معي العام الماضي، قالوا لي إنني لست من أقاربه واضطرت إلى الرجوع دون أن أراه. أوجع قلبي ما حصل، لكنني لم أحكِ لأحد ما حدث. ولا

أريد حتى أن أتخيل وجع قلبه هو. الكلام يبدو سهلاً ولكنها سنة كاملة من الانتظار ومن الادّخار للرحلة، ثم أعود دون أن أراه ولو لحظة بعد أن أنفقت المال، فمهما كان المبلغ صغيراً ففي وسعي أن أنفقه على شيء آخر. وبعد كل هذه السنوات يقولون لي الآن إنني لست من عائلته، وأن الأسقف لم يوافق على أن نصبح عائلة لأن خطيبي رجلٌ سياسي. ولهذا لا تقولي لي يا سيدتي إنّ الهدف من السياسة هو الحرية، فأنا لم أرَ الحرية إلا عند الأطفال عندما يُنزلون أقدامهم في بركة ويلعبون بالماء قدر ما يشاؤون.

لا تحب «بييتا» السياسة. ما تحبه هو أن تعيش بسلام، وأن تكون في «قرطبة»، وألا يكون «خايمي» سجيناً. لا تحب «بييتا» الأشياء التي لا تفهمها، وتذهب إلى الاجتماعات الشهرية عاماً تلو عام، وتقدّم ما يمكنها أن تقدّمه، لكنها لا تتكلم بالسياسة. تتحدث مع رفيقاتها بشأن وفاة ابن «ريمي» وبسّان أعراس بناتها الثلاثة العازبات، وبسّان «تينسي» وكم أصبحت كبيرة. ولكنها لا تحب الكلام بالسياسة. تشارك في الحوارات عندما تتحدّث النساء بأشياء تفهمها، أو عندما جاءت «ريمي» وقالت إنها تمكنت أخيراً من أن تعطي «إلبيرا» حقيبتها. «إلبيرا» الصغيرة ذات الشعر الأحمر التي ظلّت مع الغيرريا تقاتل وتحمل السلاح بكل شجاعة، حتى أرسلوها في النهاية إلى «تشيكوسلوفاكيا».

وعندما تروي أن «سولي»، قابلة قرية «بينياراندا دي براكامونتي» وابنتها التي قلعوا عينها، وأنها لجأت إلى المكسيك وتعاونان مع الحكومة الجمهورية، أو عندما قالت إن المطربة «أنتونييتا كولومي» التي ساعدت «سولي» و«إلبيرا» في الهرب من السجن، قد اضطرت إلى الهرب إلى فرنسا لأن أحد الكتائبين قال لها إنّ دمها كلّه أحمر.

ولكن «بييتا» كانت تلتزم الصمت عندما تقول النساء إن الحلفاء قد فازوا في الحرب وأنهم اكتفوا من القتال وأنهم لن يتدخلوا في إسبانيا،

أو عندما يتحدثون بتشكيل دول الحلفاء منظمة الأمم المتحدة، واستثنوا إسبانيا منها. والتزمت الصمت كذلك عندما وصلهن خبر أن الأرجنتين والبرتغال وجمهورية الدومينيكان والفاتيكان هي البلدان الوحيدة التي ما زالت السفارة الإسبانية مفتوحةً فيها، على الرغم من توصية الأمم المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسبانيا كعقوبة لها. كانت تنظر حولها وتستمع بصمت إلى تعليقات رفيقاتها حول العزل الذي تمارسه القوى الديمقراطية على إسبانيا، وحول الأزمة الاقتصادية، والدعم الأرجنتيني، وزيارة «إيفا دوارتي» زوجة رئيس جمهورية الأرجنتين، وحول عدس «بيرون».

ظلت «بيبيتا» تحضر نزعات «لا كاسا دي كامبو» بصمتٍ سنة بعد سنة مع «تينسي»، التي كبرت وأخذت تفهم الكلمات التي ترفض «بيبيتا» أن تفهمها.

انتبهت «بيبيتا» إلى أن الصغيرة تُبقي عينيها مفتوحتين وأنها تذهب إلى «ريمي» بعد الاجتماعات لكي تحدّثها عن أمها.

- كانت شجاعة، شجاعةً جداً.

انتبهت «بيبيتا» إلى أن «تينسي» تنظر إلى «ريمي» بإعجاب. وأنها بدأت تسأل أسئلة لا تعجبها.

- ما معنى «الخلية» يا «ريمي»؟

لم تعد تُحضرها معها إلى الاجتماعات.

سألوها:

- لماذا لم تعودي تحضرين الصغيرة معك؟

فقالت إن الصغيرة تضجر، لأنها لم تُرد أن تقول إنها ما تزال صغيرةً على أن تصيها لوثة السياسة. ظلّت تستمع إلى رفيقاتها بصمت، شاعرةً بأنها في الشباك اللزج للعنكبوت الشعور فاحم السواد، وخائفةً من أن تكون ابنة أختها في البيت تحكّ مكان عضه العنكبوت.



- «بييتا»

- ماذا؟

- أنتِ في عالمٍ آخر

- لقد شردَ ذهني.

كان اجتماع «بويرتا تشيكيثا» قد انتهى تَوّاً. فرحت «بييتا» عندما سمعت أنّه صار عند «توماسا» سرير، وأنّ الاكتظاظ قد خفّ في سجن «لاس بيتاس»، وصار لكلّ سجينّة مساحتها وسريرها. كانت «توماسا» قد كتبت رسالةً إلى «ريمي»، وقرأت ريمي الرسالة عليهن. سمعت «بييتا» كلمات الرفيقة التي تنادي «ريمي» بقولها «أختي». وسمعت بعد ذلك أنّه سيتم حلّ تجمّعات الغيرريا بسبب الاختفاء التدريجي لقوّاتها.

- وحدات الحرس المدنية المتنقلة تضغط عليهم أكثر وأكثر.

- ودعم الوسطاء لهم في «إل جانو» في تراجع مستمرّ.

- لم يعد هنالك جدوى من الكفاح المسلّح.

لم يعد هنالك جدوى من الكفاح المسلّح. فكّرت «بييتا» في «أورتينسيا» التي ماتت من أجل أن تقاتل وتحمل السلاح بكل شجاعة. وفكّرت في كلّ من ماتوا في تل «أومبريا»، وفي الدّم الذي داست عليه في المحطة يومَ تعرّفت إلى «الجاكيت الأسود»، وفي صور أولئك الذين كانت عيونهم مغمضة وأفواههم مفتوحة.

- ولكن هل وصلك خبر؟

- خبرٌ مثل ماذا؟ أن الغيرريا قد انتهت لأنها لم تعد ذات جدوى؟  
- لم تفهمي الموضوع كله. هيا، تعالي معي إلى المترو وسأشرح لك ما فاتك في الطريق.

نعم، لم تفهم الموضوع كله. بدأت «بييتا» تفكر في أن السنة القادمة ستكون سنة يعقوبية<sup>(1)</sup>. فكرت في الأموات. وفكرت في الحزب المبجل الذي أبقى على الغيرريا سنواتٍ دون فائدة تُرجى، لكي يثبت قوته وحضوره، وحتى يموت الكثيرون: ميتة شجاعة لكنها بلا فائدة.

وفي الطريق إلى المترو شرحت لها «ريمي» أن الرجال والنساء المتبقين في الجبل قليلون جداً.

- لقد عانوا الأمرين وahan وقت انسحابهم. كفاحنا الآن سياسي، ولا يمكن إلا أن يكون سياسياً.

الكفاح سياسي، ومن كافحوا بالسلاح فهم موتى أو سجناء أو ملاحقون.

- ستكون السنة القادمة سنة يعقوبية.

- وماذا يعني هذا؟

- ينبغي لك أن تكتبي رسالة.

ينبغي أن تكتب رسالة لأن السنة القادمة سنة يعقوبية، وسيكتب أهالي كل السجناء رسالةً إلى الكاردينال أسقف «سانتياغو دي

---

(1) سنة يعقوبية: نسبة إلى الحواريّ يعقوب. تكون السنة يعقوبية إذا حلّ يوم عيد الحواري يعقوب (الخامس والعشرين من تموز (يوليو)) يوم أحد، وهذا يحدث 14 مرة كل مئة عام. يحمل طريق الحج المسيحي الذي يمرّ بإسبانيا اسم الحواري يعقوب، ومن ينهي طريق الحج في السنة اليعقوبية ويصلّي في كاتدرائية سانتياغو التي دُفن فيها رفات الحواري تُغفر له كل ذنوبه ويحصل على صك بهذا الغفران من الكنيسة الكاثوليكية.



كومبوستيلا»<sup>(1)</sup> ليطلبوا منه أن يطلب من الحكومة إصدار عفو عن السجناء.

ينبغي لـ «بييتا» أن تطلب العفو عن «خايمي». وستطلب «ريمي» العفو عن أختها «توماسا» الإكستريمادورية ذات الجلد المصفر التي أصبح عندها الآن سرير.

كتبت «بييتا» الرسالة، وفي اليوم السابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ألف وتسعمائة وأربع وخمسين استلمت «بييتا» إشعار استلام كُتِبَ فيه أن الكاردينال «كيروغا بالاثيوس» يُحيي وبارك «خوسيفاً رودريغيث غارثيا» ويبلغها بأنّه تقدّم باهتمام شديد بطلب العفو المذكور في رسالتها، وأنّه تلقى رداً من الحكومة جاء فيه أنّها ستنظر بعين الرأفة إلى هذا الطلب، ودعاها إلى أن تتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، وختم رسالته بقوله «سيأتي الرب لنجدتنا».

سيأتي الرب لنجدتنا. سبحانه وتعالى. أعادت «بييتا» قراءة الجملة لنفسها، وذهبت مساءً ذلك اليوم إلى كنيسة «القديس خوداس تاديو» ومعها بيسييتا ورقية من أجل صندوق تبرعاته. سيأتي الرب لنجدتنا. إنه يوم الثلاثاء، وطابور الكنيسة يمتد إلى ما بعد ساحة «سانتا كروث». سيأتي الرب لنجدتنا. سبحانه وتعالى. انتظرت «بييتا» بصبر وهي تكرر رجاءها. سيأتي الرب لنجدتنا. دخلت إلى الكنيسة عندما حان دورها. أضاءت شمعة. سيأتي الرب لنجدتنا. ووضعت البيسييتا في الصندوق وهي تنظر إلى القديس.

- ساعدنا من عندك أيها القديس «تادييتو».

(1) سانتياغو دي كومبوستيلا: مدينة في شمال غرب إسبانيا وهي عاصمة إقليم جليقية، وفيها كاتدرائية سانتياغو دي كومبوستيلا التي دُفِنَ فيها رفات الحواري يعقوب (سانتياغو) ويحج إليها الناس سيراً على الأقدام منذ القرن التاسع الميلادي حتى اليوم.



العفو الذي أصدرته الحكومة بمناسبة السنة اليعقوبية لم يشمل «خايمي». كتبت «بييتا» رسالة أخرى. وردَّ عليها هذه المرّة السكرتير الخاص بناية كاردينال سانتياغو، الكاهن «خيسوس بريثيدو لافوينتي». كانت رسالة لا تزيد على النصف صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة.

سلام الرب من السكرتير إلى الأنسة «خوسيفا رودريغيث غارثيا» المحترمة، وبطلب من نيافته يسعدني إبلاغك بأن السيد الكاردينال استلم رسالتك في الثالث من الشهر الجاري. وقد طلب مني أن أبلغك بأنه تقدّم بطلب العفو في حينه إلى السلطات المعنية بإصدار العفو الأشمل احتفاءً بالعام اليعقوبي. وكان من دواعي أسف نيافته أن قريبك لم يُشمل بقرار العفو، وقد سُجّل اسمه ليطلب العفو عنه في حال أُتيحت فرصة أخرى لذلك. السلام عليك وليرافقك الرب، ولك منّا كل الاحترام والتقدير.

قرأت «بييتا» الرسالة بصوت عالٍ. استمع إليها «خايمي» وأخفض عينيه على الجانب الآخر من القضبان. عندما انتهت «بييتا» من القراءة، رفع «خايمي» عينيه فرأى الحارس واقفاً أمامه.

- أنا آسف. إن كنت تحتاج إلى شيء...

لم تتمكن «بييتا» من كبح دموعها. أشار «خايمي» إليها برأسه لكي يلفت نظر الحارس إليها.

- دعني أخفف عنها ما هي فيه.

- لا أستطيع أن أسمع لك.

- بل تستطيع.

- لقد سمحتُ لها بالدخول على الرغم من أنكما لستما متزوجين،  
لا تطلب مني أكثر من ذلك.

- إذا لم أطلب منك أكثر فلن أعطيك أكثر، هل فهمت؟ لن  
أعطيك أي شيء على الإطلاق.

فهم ما يقصده، فهذا هو الحارس الذي يُدخل الصُّحف السرية  
إلى السجن، ويدفع إليه الحزب بسخاءٍ مقابل خدماته. ويعطيه «خايمي»  
كل سنة بقشيشاً إضافياً لكي ينتظر «بييتا» عند البوابة ويدخلها إلى قاعة  
الزيارة قبل أن يطلب منها أي حارسٍ آخر دفترَ العائلة.

لم تتمكن المرأة ذات العينين الزرقاوين المستحيلتين من سماع  
الحوار الدائر بين الرجلين، لكنها رأت قسوةً في عيني «خايمي»: لم ترها  
قبل الآن. نهض «خايمي».

- ستعطيني خمس دقائق.

- ليس عندك فكرة كم هو صعبٌ ما تطلبه مني.

- خمس دقائق.

نهضت «بييتا» وتمسكت بالقضبان. رأت الحارس يغادر الممر  
الفاصل بين السجناء والزوار، ورأت «خايمي» يغادر قاعة الزيارة. وبعدئذٍ،  
بدقائق، عاد الحارس الذي غادر الممر منذ قليل وأمسكها بذراعها.

- تعالي معي.

هنالك بابٌ في نهاية ممر ضيق. عرفت «بييتا» أن «خايمي»  
ينتظرها وراء ذلك الباب. عرفت. لا تعرف لماذا، ولكنها عرفت. مشت  
نحو الباب وقد اقتادها الحارس الذي لم يفلت ذراعها.

فعلاً.

«خايمي».

فتح الحارس الباب.

- معكما خمس دقائق.

خمس دقائق. وأوّل مرّة منذ سنوات كثيرة شعرَ «خايمي» بأنّ للوقت قيمة. الوقت يجري قرب «بييتا» حتى إنّ لم يكن معهما إلا خمس دقائق.

رفعت شفّتيها إليه.

- أنتِ أجمل عن قُرب.

داعب خديها وبحثت عيناه عن عينيها.

- ما زال أمامي سنوات طويلة، ستضيعين شبابك في انتظاري.

- وأنتِ أغبى عن قُرب. هيّا، قبلني.

على مهل. تبادلًا القبلات على مهل. تعانقا في هدوء وعلى مهل، ولمس كلّ منهما يدي الآخر، نظر كل منهما إلى أصابع الآخر وتحسّسها بحنان، وابتسما قبل أن تلتقي شفاههما من جديد. طوال خمس دقائق.

عندما فتح الحارس الباب طلب منه «خايمي» دقيقةً أخرى.

- حسناً. دقيقة واحدة فقط.

دقيقة واحدة لكي يقبلها «خايمي» مرة أخرى. لكي يشعر في فمه بطعم عشب البحر، بحرٌّ من دقيقة. دقيقة واحدة.

- يجب أن تذهبَ حالاً.

يجب أن تذهب.

وذهبت.

مرّت سنواتٌ منذ شعر «خايمي» بالبحر على شفّتيه.

ذهبت.

ستمرّ سنوات أخرى كثيرة قبل أن يقبلها مرةً أخرى.

ذهبت.

وأغلق الحارس الباب.

\* \* \*

بعد أن أخذت صندوقاً تركه لها «خايمي» في قسم الطرود، غادرت «بييتا» سجن «بورغوس» وقد غمرها حزن لم تشعر بمثله قط. حزينّة، كما لم تحزن قط، مشّت إلى الحافلة التي ستأخذها إلى «بورغوس».

حزينّة كما لم تحزن قط، صعدت إلى القطار الذاهب إلى «مدريد». وعندما وصلت إلى بانسيون «أتوتشا» بعينها الزرقاوين الحزيتين كما لم تحزن قط، توقفت السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» عن تسجيل الواردات والنفقات في دفتر الحسابات، ونهضا عن منضدة المطبخ، وتخلّيا عن محاولة موازنة مصاريف الشهر، وشعرا بالقلق من الحزن المخيم على عيني «بييتا».

- ما بك يا ابتي؟

- لا شيء يا سيدة «ثيليا».

- كيف حال «خايمي»؟

- وسط.

تركت «تينسي» دفاتر أمها الزرقاء على السرير، عندما سمعت صوت «بييتا». وقبل أن تخرج من الغرفة وقفت أمام مرآة الخزانة وربطت شريطاً من الساتان العريض على خصرها ووقفت على رؤوس أصابعها، ثم ركضت لتقبّل خالتها:

- هل أكلت؟

- لا.

- تعالي، اجلسي، سأسكب لك صحناً من لحم الأرنب المطبوخ بالطماطم، سترين كم هو لذيذ، لقد طبخته بنفسي.

- حقاً؟

- حقاً وفعلاً.

جدّد لحم الأرنب والطماطم طاقة «بييتا» وعندما فرغت من طعامها نهضت مباشرة لتغسل صحنها، ونهض السيد «خيراردو» لينام القيلولة.

- انظري يا أمي.

وقفت «تينسي» على رؤوس أصابعها مرة أخرى واقتربت من كتف «بييتا».

- صرْتُ طولكِ تقريباً.

- ليس بعد.

- دعيها وشأنها واستمري بالنمو.

أخذت السيدة «ثيليا» الصحن من يد «بييتا».

- يبدو عليك التعب. نامي قليلاً، وأنا سأغسل الصحون.

نعم، كانت متعبة، ولكنها لم تكن قادرة على النوم. كان «خايمي» قد ترك لها صندوق خشب في قسم الطرود.

- ينبغي لي أن أوصل صندوقاً إلى «بويرتا تشيكيتا».

- سأأتي معك.

- لا.

لم تسمح «بييتا» لـ «تينسي» بمرافقتها إلى اجتماعات «لا كاسا دي كامبو» منذ فترة، لكنها كانت تلحّ دائماً في الطلب.



- دعيني أذهب.

- ستبقين مع جدتك.

- خذيني، في السابق كنتِ تأخذيني معك.

- والآن لا آخذك، مفهوم؟

- ولكن لماذا؟

- لا تكوني نقاقة، ودعيني فليس لي رغبة في الكلام اليوم.

ذهبت لتتظاهر بأنها في نزهة في الحقول، مع أنها كانت تحمل في سلتها المنشورات التي ينبغي أن توصلها إلى «ريمي».

أحضرت إحدى النساء زجاجة من خمر التفاح وأكواباً زجاجية. كان يوماً للاحتفال، وانتظرن «ريمي» لكي يشربن نخب السجينات اللواتي شملهنّ العفو. كانت «توماسا» واحدةً منهنّ. خرجت الإكسترمادورية الشاحبة من سجن «لاس بينتاس» مرفوعة الرأس، حاملةً معها صرة وضعت فيها أغراضها القليلة وخائفةً حتى آخر لحظة ألا يُفتح الباب أمامها. كانت ترتعش. بدأت ترتعش في اللحظة التي بدأت فيها بجمع أغراضها.

وظلت ترتعش طوال فترة الصباح وهي تنتظر السجّانة التي عليها أن تأتي لترافقها إلى الباب. حاولت «خوسيفينا» أن تهدّئها.

- لا تجزعي يا امرأة.

- اللعنة عليهنّ، لقد تأخرن في مناداتي.

- سيأتين.

جلست على سريرها واحتضنت صرّتها وظلّت ترتعش. عندما لم تتمكن من السيطرة على قلقها صبّت انتباهها على صوت القفل في الممر

المركزي. جلست «خوسيفينا» إلى جوارها. ولكنها نهضت سريعاً عندما سمعت صوت نحيب من الزنزانة المجاورة:  
- إنها تبكي مرةً أخرى.

نعم، جارتها في الزنزانة عادت إلى البكاء. إنها امرأة من غرناطة محبوسة منذ عشرين عاماً ومزقت نفسها من شدة البكاء عندما عرفت أنها وصلت سنّ اليأس. إنها تبكي منذ أسبوعين. حاولت «خوسيفينا» تهدئتها. قالت لها «سترتاحين منها» لكن الغرناطية ظلت تنوح وهي تقول إن زوجها كان يريد أن ينجب أطفالاً، وهي كذلك، وأنها حاولت أن ينجباً خلال السنة اليتيمة التي عاشها معاً.

- والآن يصيبني ما أصابني، ولم يبقَ على إطلاق سراحني إلا شهران.

كانت «توماسا» ترتعش. كانت تسمع جلبة الأصوات في الزنزانة، لكنها كانت منصتةً لصوت قفل الشبك الحديدي. سمعت ضجة المفاتيح. صرّ القفل. وصل قرعُ كعبِ حذاء السجّانة إلى «توماسا». كانت «توماسا» ترتعش. نهضت وحملت معها صرتها. أغمضت عينيها. حبست أنفاسها وانتظرت في زنزانتها. ارتعشت، فكرت، ترددت، وخافت أن تتجاوز عنها السجّانة.

ولكن لا.

لفظت السجّانة اسمها.

ودّعت «توماسا» رفيقاتها.

عانقت «خوسيفينا»، المرأة التي لم تميز بنتيها يوم «عذراء الرحمة»، والغرناطية التي لن تصبح أماً أبداً. ومشت ببطء إلى باب الخروج وراء «ميرثيديس»، ظلت خائفة حتى آخر لحظة ألا يطلقوا سراحها فعلاً.

ولكن الباب انفتح. انفتح باب القفص.

وقبل أن تدبر المفتاح في القفل مدت إليها «ميرثيديس» يدها  
فقرّبت إليها «توماسا» خدّها. قبلتها السجّانة. تكلمت بصوت خفيض:  
- أنا سعيدة. سعيدة حقاً لأنك ستغادرين هذا المكان.

باب القفص المفتوح انغلق وراء «توماسا». ظلت «ميرثيديس» في  
الداخل، وكانت تسريحتها ما تزال على شكل موزة.

انتظرت «ريمي» أختها على الجانب الآخر. قطعت الشارع عندما  
رأت أن «توماسا» قد خرجت تائهة، ومشّت بسرعة ممسكةً بذراع  
«بينخامين». «بينخامين» المسكين. عانقتها «توماسا»:

- «ريمي» لقد انكسر الكرسي منذ سنوات. أصلحته عدة مرات،  
لكن الملعون ظلّ ينكسر من جديد.

- عمّ تتحدثين؟

- كرسيك، كرسي القش.

- دعي عنك الكراسي. ماذا تريدان أن تفعلي يا «توماسا»؟ ما هو  
أول شيء تريدان أن تفعليه؟

- أريد أن أرى البحر.

تريد أن ترى البحر. ومشّت ببطء في «لا كاسا دي كامبو» مستندةً  
إلى ذراع «ريمي». تضع الخطوة وراء الخطوة. ببطء. و«ريمي» تبسم.  
انظري يا «بينخامين». فيادها الابتسامة. ابتسما متواطئتين، فهما يعرفان أن  
عمر «توماسا» ليس السبب وراء عدم قدرتها على المشي دون أن تتعثر.  
متواطئان ويعرفان أن الإكسترمادورية التي خرجت من «لاس بينتاس»  
بشعر أبيض كامل، وبجلدٍ شاحب أكثر من أي وقت مضى، ينبغي لها أن  
تعلم المشي من جديد.

- انظري ماذا لدي يا «ريمي».

أرتها «توماسا» إيزيم حزام «خواكينا». الهدية التي كانت تحملها دائماً في جيبتها بوصفها ذكرى من الوردات الثلاث عشرة.

- إنها لكلتينا. والآن أريد أن تأخذها أنت.

كان هنالك نخبٌ ينتظر العجائز الثلاثة في «بويرتا تشيكيتا»:

- نخب الحرية!

- نخب الحرية!

- نخب الحرية!

وعندما انتهى الاجتماع ودّعت «بييتا» كلاً من «ريمي» و«بينخامين» وداعاً أخيراً.

نعم، كان وداعاً أخيراً، لأنّ «ريمي» و«بينخامين» قرّرا العودة إلى القرية.

- سنعود إلى قريتنا.

- حقاً؟

- كنت أقول دائماً إنني لن أعود أبداً. ولكننا تقدّمنا في العمر ونريد أن نعود. وها نحن عائدان!

سيعودان إلى قريتهما وسيأخذان «توماسا» معهما، لأنها تريد أن ترى البحر وبيتهما قرب البحر.

يوماً ما ستعود «بييتا» إلى بيتها. يوماً ما، عندما يتمكن «خايمي» من شرب نخب الحرية، سيعودان إلى «قرطبة». وحتى ذلك الحين ستواظب على حضور الاجتماعات، وستشتاق إلى «ريمي». وستواظب على الذهاب إلى «بورغوس» مرةً في السنة، وستشتاق إلى «خايمي» عندما تعود. ولكن «بييتا» ستعود يوماً ما إلى «قرطبة».



- سنذهب إن كنتِ تريدين الذهاب.

- حقاً؟

- أنا أذهب إلى حيث تريدين يا صغيرة.

ابتسامة «بييتا» جعلت «خايمي» يتسم.

- عندي بيت، وعندي مفتاح البيت. سيكون علينا أن نشترى بعض الأثاث، خاصةً غرفة النوم، لأنني أريد أن يكون لي سريري وفراشي. نتزوج ونذهب إلى قرطبة.

كانت تحلم، وكان يدعها تحلم.

كانت الحماسة تهرب من وجه «بييتا» شيئاً فشيئاً، وكانت تتلصص ذقنها وهي تعود ببطءٍ من عالم الأحلام. أزاحت خصلة الشعر عن جبينها بحركةٍ حزينة، قالت إنه ما زال هنالك وقت للتفكير في البيت، ثم سألته عن جده:

- كيف حاله؟ هل تحسّن؟

- لقد مات جدّي.

- يا إلهي!

- كذب عليّ.

- لا تتكلم هكذا.

نعم، لقد كذب عليه. كان دائماً يقول له في الرسائل إنه بخير.

- لا يسمحون لي بإرسال الرسائل إلى أختي. تركت لك علبة خشبية لكي تبقيها في «الراسترو».

أخرجت «بييتا» رسالةً من السجن، كانت في المخبأ الجانبي للعلبة الخشبية التي باعها في «الراسترو» صباح أحد من الآحاد. أخذت الرسالة إلى «بويرتا تشيكيتا» وتكفلوا بإرسالها من هناك إلى «براغ».

تأخرت الرسالة شهرين حتى وصلت إلى يدي الفتاة ذات الشعر الأحمر التي لم تعد تشبه الصبيان. تأخرت شهرين، لكنها وصلت. عرف «خايمي» أن الرسالة وصلت إليها عندما وصله الرد في قاع سلة أحضرها له «بييتا» في زيارتها التالية بعد سنة.

رسالة أخته جعلته يكتشف أنه كان هنالك فجوة فارغة في الوقت الذي مضى. فجوة لا يمكن ملؤها بشيء سوى الكلمات. كلمات الكلمات التي كتبها إليه «ثيليا» عندما تلقت رسالته في «براغ». كلمات جعلته يعرف أن الرسالة وصلت، وأنها أمسكتها بيديها المرتجفتين من الانفعال. عرف أنها قرأتها في صالة بيتها أمام عيني زوجها الحانيتين. كلمات جعلته يعرف أن «إليرا» ما زالت تسمى «ثيليا». أخوها يناديها «صغيرة». «عزيزتي الصغيرة». ناداها كما يناديها دائماً وأبلغها أن السيد «خابيير تولوسا» قد توفي. جدنا قد مات يا عزيزتي الصغيرة.

فرّت آهة فملأت الهواء. في «براغ». تنهيدة. لجأت «ثيليا» إلى ذراعي زوجها. بحثت عن السلوى في قوته، وفي يديه المشدودتين على ظهرها، وفي الأمان الفياض من الكلمات التي همس بها في أذنها:

- أنت أقوى من كل شيء يا «ثيليا غاميث».

أنت أقوى من كل شيء. كتبت «إليرا» رسالة لأخيها. وملأت بالكلمات فراغ السنوات التي مضت دون أن يلتقيا. روت له أنها تابعت

النضال بعد مصيبة «إل بيكو مونتيرو» وبعد فشل اجتياح وادي «أران» انضمت إلى مقاتلي الغيرريا الذين جاؤوا من فرنسا. وروث له أن قلّة الدعم للغيرريا أجبرتها على تركها. روث له أنها وقعت في حب «الصغير» يومَ قتلوا «ماتيو». تتذكر ذلك اليوم جيداً. ركضت تجاه سفح الجبل ومسدسها في يدها وهي تبكي موت «ماتيو».

وضلت الطريق.

وجدها «الصغير» مختبئةً بين بعض الشجيرات. اخترقت عيناه السوداوان قلبها من جديد، فأعطاهما حنانه، وكفّت عن البكاء بين ذراعيه. وعندما هبط الليل عليهما أخبرها «الصغير» بأنه يريد أن يعود إلى «إل بيكو مونتيرو» ليستردّ الأسلحة والذخائر التي وضعوها في مخزن المخيم.

- سآتي معك.

وعادا إلى التلّ.

كان الحرس المدني قد تركوا دوريات مراقبة في المخيم. رآها «الصغير». لم تعرف «ثيليا» كيف تمكن من رؤيتهم. كل ما تعرفه أنّه أدار رأسه وهما يزحفان في الخندق الشمالي، وأمال قبعته التي كان يرتديها دائماً، وقرب البندقية من خده، وأشار إلى الصدع بين الصخور القريبة، وطلب منها أن تتبعه. عندما وصلا إلى المخبأ تحدّث بصوتٍ منخفض، هامس، وكأنه يرسم الكلمات بشفتيه:

- هنالك دوريات مراقبة. انتظريني هنا. لا تتحركي لأي سبب في العالم حتى أعود. بقيت «ثيليا» مختبئة ساعات بين الصخور. ولكن «الصغير» لم يعد.

بعد شهرين، وعندما انضمت «ثيليا» إلى «تجمّع مقاتلي الغيرريا في إكستريبادورا والوسط» أخبروها بأن «الصغير» مات وهو يحاول استرداد الأسلحة في «إل بيكو مونتيرو».

وصفت «ثيليا» لأخيها حزن الرفاق عندما أبلغوها بالخبر، ووصفت له الحُداد الذي عايشته في داخلها طوال عشر سنوات. رفعت رأسها عن الورق وهي تتذكر ألمها. كتبت، حتى يقرأ أخوها رسالتها بعد سنة. لكي يمتلئ فراغ الوقت بالكلمات. حتى يستلم «خايمي» بعد سنة الإجابة عن الرسالة التي أخذتها «بييتا» من المخبأ الجانبي لعلبة خشبية باعته في «الراسترو». كتبت «ثيليا» لتستذكر ابتسامة «الصغير» في ليلة من ليالي آب (أغسطس) الحارة والبعيدة. لتستذكر رقة عينيه وهي تبحث عن عينيها بين الشجيرات، عندما أزاحت هي الأغصان و«الصغير» ابتسم.

كتبت، لتستذكر برد تلك الليلة الأقرب في الذاكرة عندما ارتأى الحزب أنه من الضروري حلّ تجمعات مقاتلي الغيرريا وأرسلوها إلى «تشيكوسلوفاكيا»، ووصلت إلى «براغ» منهكة من رحلة القطار نحو المنفى.

قالوا لها إن أحد الرفاق سينتظرها في المحطة وأنه قصير القامة ويرتدي قبة.

أوكلوا إليه مهمة انتظار الفتاة الإسبانية التي ستصل عند الساعة التاسعة. الرفيقة التي ستحمل حقيبة جلد بنية اللون وعليها شريط أحمر. مرّت سنة قبل أن يعرف «خايمي» أن «ثيليا» وصلت إلى «براغ» وهي تضع شريطاً أحمر على حقيبة أمها.

عندما نزلت «ثيليا» من القطار التقت «الصغير». تفاجأ برؤيتها، وابتسم لها.

تفاجأ الاثنان عندما رأى أحدهما الآخر.

شعرت «ثيليا» بنظرة «الصغير» الحالكة وبحنانه. تركت الحقيبة على الأرض، وتركت معها أثر رحلة أخرى.

- هيا بنا، هيا بنا، لماذا تبكين؟



- لماذا لم تعد لتبحث عني؟  
 - ذهبت ولكنك لم تكوني في المكان المحدد.  
 - حقاً؟

حقاً. لقد عاد «الصغير» إلى الصخور عند الفجر، بعد أن قررت «ثيليا» مغادرة مخبئها بأقل من ربع ساعة. وبعد بضعة أشهر، وعندما انضم «الصغير» إلى «تجمع مقاتلي الغيرريا في ليبانتي وأراغون» أخبروه بأن «ثيليا» قد ماتت وأنهم نفذوا عليها «قانون الفارين» مع أنها كانت تحاول الوصول إلى الحدود الفرنسية عبر جبال «البرينيه». مرّت عشر سنوات وكلاهما يظنان أن الآخر قد مات. لم تتمكن «ثيليا» من إيقاف دموعها في المحطة.

- هيا يا «ثيليا»، «ثيليا غاميث».  
 - هذا المكان بعيد جداً، وقد خارت قواي.  
 عانقها «الصغير».

شعرت بيديه تحيطان بظهرها. وسمعت صوته في أذنها.  
 «أنت أقوى من كل شيء، وأقوى مني».  
 مرّت سنة قبل أن يعرف «خايمي» أن «ثيليا» و«الصغير» تزوّجا في «براغ».  
 مرّت سنة قبل أن تصله رسالة «ثيليا».

سنة كاملة حتى خففت الكلمات من ضيق «خايمي»، ويأسه من الساعات الذابلات، ومن الليالي التي هرب فيها من حلم متكرر تتساقط فيه أزهار الفستان على الأرض.





- إلى قرطبة؟

- لا متّسعَ لنا جميعاً هنا يا سيدة «ثيليا». حالما يخرج «خايمي» سنذهب. أريد أن يكون لي بيتي، وهو كذلك.

- إذا كنت ترتبين لخروج «خايمي» فستكلم حينئذٍ بالموضوع، ما زال أمامنا وقتٌ طويل يا ابنتي.

- الموضوع محسوم، سنذهب إلى قرطبة.

تحدّثت المرأتان وهما غاديتان ورائحتان من المطبخ إلى غرفة الطعام محمّلاتٍ بالأطباق والأكواب لتجهيز المائدة.

- هل يريد «خايمي» أن يذهب إلى قرطبة؟

- قال لي إنه سيذهب إلى حيث أريد.

- وماذا بشأن «تينسي»؟ هل ستأخذان «تينسي»؟

كانت «تينسي» تقرأ دفترتي أمها في زاويتها المفضّلة. أضواء نور الشرفة وجهها الشارد. نظرت إليها «بييتا» وهي تملأ إبريقاً زجاجياً من حنفية الماء البارد. كانت تحب أن ترى ملامحها الغارقة في قراءة دفترتي أمها. كانت تشعر بأن الأم ترافق ابنتها، وأنها تتحدان بالكلمات التي كتبتها «أورتينسيا» لـ «تينسي». منذ سنواتٍ وهي تقرأ الدفترتين بصوتٍ منخفض في نفس المكان على الشرفة. كانت تشعر عندما تراها بأن أمها تراها. وكانت تبسم لأن «تينسي» أصبحت شابة جميلة. ولا بد أن «أورتينسيا» تنظر إليها بانبهار كما تنظر إليها «بييتا».

دخلت السيدة «ثيليا» إلى المطبخ، وأمرت «تينسي» بأن تساعدتهما:

- هيا، لا تكوني كسولاً وجهّزي مائدتنا.

كان يومَ الأول من أيار (مايو) ولن يأكل السيد «خيراردو» معهن. فكما جرت العادة كل عام، جاءت الشرطة إلى البانسيون صباحاً وأخذوه إلى قسم الشرطة. كان هذا هو إجراءهم السنوي مع كل من قد يثيرون المشاكل في عيد العمال. كان السيد «خيراردو» معتاداً وكذلك السيدة «ثيليا». وقفّا ينتظران صوت الجرس عند المدخل لكي لا تقف الشرطة على باب منزلها أكثر من اللازم. قبلته وأعطته شطيرة ملفوفة بالورق الأسمر. ومكثت النهار في انتظار حلول الليل، وكان يعود إلى البيت في ساعة متأخرة.

- «تينسي» هل سمعتني؟

- نعم يا جدّتي.

- هيا تحركي.

كانت «بيبيتا» قد ملأت الإبريق وهمت بالخروج من المطبخ عندما استغلت «تينسي» الفرصة لتقترب من السيدة «ثيليا» وتهمس لها:

- أخبريها أنت يا جدّة.

- لقد اتفقنا على أن نخبرها بنفسك.

سمعت «بيبيتا» من عند الباب صوتيهما وهما تتهامسان، وسألتهما عمّا تخفياه.

- قولي لها أنت.

- لا، أنت من ستقولين لها.

- ولكن ابدئي أنت.

- كفى! أتريدان أن تتكلما أم لا؟ كأنكما يبغاءان على أرجوحة! مع كل الاحترام لك يا سيدة «ثيليا».

تحدثت «تينسي» أولاً:

- أريد أن أنتسب إلى الحزب.

انزلق الإبريق من بين يدي «بييتا» إلى الأرض وتهشم.

- من وضع هذه الفكرة في رأسك؟ أنت يا سيدة «ثيليا»؟ أنت؟ ألا ترين أنها صغيرة؟

- لا تغضبي منها، فهي ليست المسؤولة.

- إذن لا بد أنه السيد «خيراردو». انظري إلى الضرر الذي يتعرض له كل عام في عيد العمال. انظري إلى مكانه الآن وأخبريني إن كنت تريدين التعرض لنفس الضرر.

التقطت السيدة «ثيليا» شظايا الزجاج عن الأرض، ووضعت «تينسي» دفاتر أمها على المنضدة.

وقعت عينا «بييتا» الزرقاوان المستحيلتان على أغلفة الدفاتر الزرقاء، وعلى خط «أورتينسيا». إلى «فيلبي». إلى «تينسي».

- أنت صغيرة. أصغر من أن تدخل الحزب.

- أمي، عمري ثمانية عشر عاماً.

- وإن يكن، فأنت ما تزالين صغيرة جداً. أليس كذلك يا سيدة «ثيليا»؟ أليست صغيرة على هذه المعمة؟

داعبت أصابع «بييتا» الدفاتر التي قرأتها مراراً بصوت عالٍ.

إلى «تينسي». والآن تقرأ «تينسي» الدفاتر وحدها. صارت تقرأ الدفاتر وحدها منذ زمن، حتى إنها حفظتها غيباً. تعرف «بييتا» أنها لن تتمكن من إقناع «تينسي». تعرف أنها لن تتمكن من مخالفة الكلمات التي

كتبتها أمها. كافحي يا ابنتي، كافحي إلى الأبد، كما كافحت أمك، وكما كافح أبوك، الكفاح واجبنا حتى لو متنا دونه. لن تتمكن من إقناعها. وتعرف ذلك جيداً.

- سيفخر بك والدك.

ذهبت إلى غرفتها وأخذت علبة الصفيح القديمة من تحت السرير. عادت بها إلى المطبخ وأخرجت القرطين اللذين اشتراهما «فيلبي» من «أثواغا» وأعطتهما «تينسي»:

- طلبت مني أمك أن أخبئ هذين القرطين لك ريثما تكبرين.

ارتعشت يدا «بييتا» وهما تبحثان داخل العلبة. أخرجت قطعة صغيرة من القماش وأبقتها في يدها وعلبت العلبة على المنضدة لأنها تبحث عن شيء آخر. سقط مفتاح بيتها في «قرطبة» على الأرض. فوق حقيبة المخمل الأحمر وتحت رسائل «خايمي»، وجدت ورقة مطوية مرتين ومصفرة مع الزمن. حكم محكمة.

- لقد صرت كبيرة يا «تينسي»، كبيرة بما يكفي لتفعلي ما تريدين فعله حتى لو لم أكن موافقة، لكن عديني أن تكوني حذرة، أقسمي بذكرى أمك أنك ستكونين حذرة جداً.

- أقسم بأمهاتي الاثنتين إنني سأكون حذرة جداً. لا تقلقي علي.

- كيف لي ألا أقلق؟

- لا تبكي يا أمي.

رفعت «تينسي» المفتاح الذي سقط على الأرض، ومسحت دموع «بييتا» بأصابعها، وقبلت خدّها، وسألتهما عما تمسك بيدها.

نظرت السيدة «ثيليا» إلى «بييتا» من وراء ظهر «تينسي» وهزت رأسها متوسلةً إليها ألا تعطيها قصاصة فستان أمها.

توقفت السيدة «ثيليا» منذ فترة عن الذهاب بمقصد إلى المقبرة مع ابنة أخيها «إيزابيل».

فقد مُنح الأهالي منذ فترة الإذن ليدفنوا موتاهم. ولكن السيدة «ثيليا» لم تنسَ النساء اللاتي كنّ يتلوّين من الألم عندما كانت تعطينهن قطع القماش. لم تُحسّن «بييتا» تقدير الموقف. فهي لا تريد أن ترى ذلك الألم على وجه «تينسي».

عندما رأت وجه السيدة «ثيليا» أدركت «بييتا» خطأها.

- ألن تقولي لي ماذا تخفين في يدك؟

نظرت «بييتا» إلى السيدة «ثيليا»، دون أن ترد على «تينسي». نظرت إلى الحكم وهزت السيدة «ثيليا» مرة أخرى.

- أمي، لقد سألتك عن الشيء الذي تخفيه في يدك.

لملمت «بييتا» الرسائل والحكم وقبّلت القماشة قبل أن تضع كلّ شيء في العلبة، وأجابت:

- إنه تذكّار.

مجرّد تذكّار.

\* \* \*





ستتم «بييتا» عامها الثاني والأربعين. وقفت أمام المرأة وتأملت الشيب عند صدغيها وفي خصلة الشعر المنسدلة على جبينها. ما تزال جميلة، لكنها لا ترى في صورتها في المرأة إلا الحاجة إلى صبغ شعرها وترى تهديد التجاعيد المحيطة بعينيها.

احتاج الأمر إلى ثوانٍ فقط حتى تلبس «بييتا» غطاء رأسها وتهرب من صورتها. ثوانٍ فقط لكي تبحث عن علبتها تحت السرير، وحتى تقرأ آخر رسالة أرسلها «خايمي». الرسالة التي تحدّث فيها بشأن إشاعة.

عزيزتي الغالية: هنالك إشاعة في السجن تزداد قوة مع الأيام وأشعر بأننا سنكون معاً قريباً. قريباً جداً يا صغيرة.  
نعم، قريباً جداً.

تقول الإشاعة إنه من الممكن أن يصدر عفو قريباً. لقد مات البابا. سيشمل العفو أحكام من حُكم عليهم بالسجن ثلاثين عاماً ما دامت لم تكن أحكاماً مخففة لحكم الإعدام، وسيشمل العفو سُدس فترة الحكم.

أعادت «بييتا» الحسابات التي فصلها «خايمي» في رسالته. سيخفّض العفو خمس سنوات من الحكم، زائد التسع عشرة سنة التي قضاها في السجن يساوي أربعاً وعشرين سنة، وبهذا يتبقى أمامه ست سنوات من الحكم، وهي السنوات التي يمكن أن يحصل فيها على إطلاق السراح المشروط. الأمر أوضح من عين الشمس.

قرأت توجيهات «خايمي» مرةً أخرى. سأرسل إليك تلغراماً حالما يبلغونني بشمولي بالعفو. قد أرسله بعد جلسة مجلس الوزراء يوم

الخميس القادم. إن كنتِ تريدين أن تتزوّجي في «مدريد» فينبغي لنا أن نتزوج في نفس اليوم الذي يطلقون فيه سراحى. جهّزي إجراءات العرس كلها، لأنهم لن يسمحوا لي بأن أبقى في «مدريد» ليلة واحدة.

قرأت «بييتا» كلمة عفو، وكلمة حرية، وكلمة الخميس القادم، وكلمة عرس وتذكّرت أن السيدة «ثيليا» وتينسي» في انتظارها. وقبل أن تضع الرسالة في العلبة توقفت عند قصيدة الشاعر «لويس ألباريث بينير» التي اختتم بها «خايمي» رسالته:

لا تدعي قلبك يُجرّحُ بجليده

ولا تدعي زرقة عينيك تقع في شباك الساعات

ثبّتت غطاءً أسود على رأسها بدبوسين وذهبت إلى المطبخ:

- هل أنت جاهزة يا سيدة «ثيليا»؟

- نعم، هيا بنا.

- هل أبدو جميلة؟

- طبعاً.

- لم أضع أحمر الشفاه.

- ولا حاجة إلى ذلك، ستطلبين من الخوري أن يزوّجك «خايمي»

لا أن يتزوجك هو نفسه.

- وماذا بشأن «تينسي»؟

- تعرفين عجلتها. إنها تنتظرنا في الأسفل.

- هل لبستُ كمّاً طويلاً؟

- نعم.

- أكيد؟ لا أريد أن يمنعوها من الدخول.

- ارتدت كتزة بأزرار، لا تشغلي نفسك.

مشّت النساء الثلاثة مسرعاتٍ إلى الكنيسة. كانت «بييتا» تنظر إلى الأمام بقلق، وتقود خطوات الشابة والعجوز اللتين تمشيان برفقتها.

كان القسيس في انتظارهن عندما دخلن إلى مجلس الكنيسة:

- تفضّلن

- أريد أن أتزوج.

شرحت له «بييتا» قضيتها. قالت له إن خطيبها ملحد.

- ولكنني مؤمنة.

شرحت له إنهم رفضوا منحها سرّ الزواج الكنسيّ من قبل، وأنّ خطيبها سياسيّ ولن يتخلّى عن أفكاره، على الرغم من أنه وافق على الزواج، وأنه سيخرج قريباً من سجن «بورغوس» وسيذهب إلى بيت والد «بييتا» في «قرطبة».

- أريد أن أدخل معه إلى بيتي وأنا متزوجة.

- إنني أعرفك يا ابنتي، فقد رأيتك كثيراً أمام تمثال القديس وأعرف أنك امرأة تقيّة ومؤمنة. يمكنني أن أزوّجك، لكننا نتحدث هنا عن سرّ من أسرار الكنيسة، وخطيبك شيوعيّ.

لم ترفع «بييتا» عينيها الزرقاوين المستحيلتين عن عيني القسيس، ولم ترفع السيدة «ثيليا» و«تينسي» عيونهما عنه أيضاً. تدخلت الاثنتان دفاعاً عن «بييتا»:

- ولكن خطيبها يريد أن يتزوّج.

- أيمكنها أن تنال نعمة السرّ؟

- نعم، لكن لا يمكنني أن أبارك هذا الزواج. هذا هو الواقع يا

ابنتي.

أمسكت «بييتا» بإحدى يدي القسيس.

- الواقع قد يكون كما نريده أن يكون. أنا مسيحية وأنت قسيس. هذا هو الواقع، لكن يمكن للواقع أن يتغير بطرق وأشكال عديدة، ولا يمكنك أن تقول لي إن هذا هو الواقع لكي أصمت، فقد مرّ على قلبي الكثير من الأسى ولن أصمت. اسمعني يا أبي، سأحضر لك كل شيء ما عدا دفتر العائلة الذي ينبغي لنا أن نحضره من المحكمة، أما ما تبقى فسأحضره كاملاً: شهادة معموديتي ومعموديته، وشهادة ميلادي وميلاده، وإيمانٌ عظيم وأملٌ بأن تقبل بتزويجنا، ولأكن في رعاية القديس «تاديو».

كان اسم القسيس «أبونديو». تأثر بإصرار «بييتا» وشدّ على يدها ودعاها إلى الجلوس على مقاعد الصف الأول في الكنيسة. خرجت «تينسي» والسيدة «ثيليا» وراءهما من مجلس الكنيسة، ووقفتا تنتظران عند تمثال القديس خوداس تاديو.

تحدثت «بييتا» والأب «أبونديو» حديثاً طويلاً. طلب منها أن تروي له قصتها كاملة. فروتها له. وقالت له إنها ادّعت سنواتٍ أنها متزوجة:

- سنوات وسنوات، أتفهمني يا سيدي؟ كان قلبي يقف من الذعر وأنا ذاهبة إلى «بورغوس» دون أن أعرف إن كانوا سيسمحون لي بالدخول، ولم يكن الجزع يفلت روحي إلا بعد أن أدخل إلى قاعة الزيارة.

- متى سيخرج خطيبك من «بورغوس»؟

- عندما يجتمع مجلس الوزراء، ربما الأسبوع القادم، سيخففون خمس سنوات من حكمه، ويطلقون سراحه إطلاقاً مشروطاً ست سنوات، ولكنهم لن يسمحوا له بأن يبيت الليلة في مدريد، يجب أن نتزوج في نفس اليوم قبل أن نذهب إلى «قرطبة» لأن قطار الليل ينطلق عند الساعة التاسعة. سأذهب لآتي به من السجن عند الساعة صباحاً وسأحضره إلى الكنيسة على جناح السرعة.

- وماذا سيحدث لو لم يخففوا حكمه؟

- سيخففونه. هذه المرة سيخففونه. ولكن إن حلّت علينا لعنة مفاجئة ولم يخففوا حكمه واضطرت إلى انتظاره خمس سنوات أخرى فإنني أريدك أن تعطيني وعداً بأنك ستزوّجنا عندما يخرج.

تلبدت السماء مؤذنةً بهطول المطر. تنهّدت «بييتا» عندما خرجت من الكنيسة. نظرت السيدة «ثيليا» و«تينسي» إليها بتوق ولكنهما لم تجرّوا على سؤالها. مشينَ خطوة ثم توقفن. تنهّدت «بييتا» من جديد وصاحت في خضم التنهيدة: «سيزوّجنا!»

- فلنذهب من فورنا لنشتري غرفة النوم.

مشت النساء الثلاثة خطواتٍ سريعة. مشين مبتسمات. ودخلن مبتسمات إلى متجر الأثاث. واشترين غرفة النوم الأجل في العالم وهن مبتسمات. ولكن العروس انفجرت باكية عندما سألها البائع عن العنوان الذي سيرسلون إليه الغرفة.

- عليك أن ترسلها إلى «قرطبة».

- إلى «قرطبة»، لا تشغلي بالك يا آنستي، ستكون في «قرطبة»، ولكن لا تبكي، فأنا لم أر في حياتي عروساً تشتري أثاثها وهي تبكي.

جففت «تينسي» دموع «بييتا» بمنديلها. ثم نظرت إلى البائع وقالت:

- آه يا سيدي، لو كنت تعرف أين العريس لفهمتني.





عادةً ما يكتشف المرء وَحدته عندما يحتاج إلى العناق. تتمنى «بييتا» عناقاً. تتمناه أكثر من أي وقت مضى. دهمها القلق. قطعت البيت الفارغ جيئةً وذهاباً وهي تحمل تلغراماً بيدها.

«العفو في الجريدة الرسمية. غداً الحرية»

تأخرت «تينسي». فتحت «بييتا» باب البانسيون ونظرت إلى بيت الدرج. ستصل «تينسي» في أية لحظة. والسيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» سيصلان الآن في أية لحظة. ولكنهم لم يصلوا. عادت «بييتا» إلى الباب المفتوح. ظنّت أنها سمعت وقع أقدام فعاتت تنظر إلى بيت الدرج. لا، لا، لا أحد في الأسفل.

عادت إلى البانسيون وأغلقت الباب. كانت بحاجةٍ إلى عناق. شربت كوب ماء بارد. جلست في المطبخ. قرأت التلغرام مرةً أخرى. وضعته على المنضدة، نظرت إليه، تلمّسته بأصابعها، مسّده، أمسكته، قبلته. نهضت. ذهبت إلى غرفتها. عادت إلى المطبخ. لا بد أنهم سيصلون في أية لحظة. نهضت. نظرت من الشرفة. تمسّكت بالدرابزين. نظرت إلى ميدان «خاثينتو بينابيتتي». نظرت إلى ناصية شارع «سان سباستيان» و«أتوتشا». نظرت إلى ساعة يدها. تلفتت مرةً أخرى يميناً ويساراً. ما الذي أخرهم؟ لماذا تأخروا اليوم دون باقي الأيام في اجتماع الحزب العتيد؟ مدّت جسدها أكثر. أكثر. ونظرت إلى اليمين واليسار مرةً أخرى.

- سألتكِ أيتها العذراء المقدسة بأعزّ ما عندك أن تأتي بهم الآن.

إلى اليمين وإلى اليسار.

لبثت أكثر من أربعين يوماً في انتظار التلغرام، ثلاثة وأربعين يوماً بالضبط. كانت تستلم رسالةً أسبوعيةً من «خايمي» يطمئنها فيها بأن الإشاعات تأكدت وأن العفو سيصدر في أية لحظة، وأنه سيرسل إليها التلغرام في يومٍ قريب. سنكون معاً قريباً يا صغيرة. قريباً جداً.

ستذهب هذا المساء إلى «بورغوس» وستنام في نفس النزل الذي تنام فيه كل عام. ينبغي لها أن تكون عند باب السجن في الساعة السابعة. ولم تصل «تينسي» ولا السيدة «ثيليا» ولا السيد «خيراردو». وينبغي لها أن تذهب لترى الأب «أبونديو». وأن تجهز حقيبتها الصغيرة. وأن تشتري التذكرة. كما أنها بحاجة إلى حضن.

- ها هم! يا أمي يا أم حياتي، كدتُ أفقد عقلي! «تينسي»!  
«تينسي»!

صرخت رافعةً التلغرام وكأنتها تلوح براية. ولكن «تينسي» لم تسمعها. كانت تمشي قرب السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» غير متنبهة للحماسة «بييتا».

- يا سيدة «ثيليا»! يا سيد «خيراردو»!

لم يسمعها أيضاً، ولم يشاهدها وهي تلوح بالتلغرام في الهواء.

- «تينسي»! «تينسي»!

لم يسمعوها.

تركت «بييتا» الشرفة، وخرجت راکضة. نزلت الدرج لتذهب للقائهم وهم يقطعون شارع «سان سباستيان».

العناق. إنَّها بحاجة إلى العناق.

رأتها «تينسي» قادمةً فركضت إليها:

- ماذا هنالك يا أمي؟



- سيخرج «خايمي» غداً.

ارتعشت يدا «بييتا» وهي تناولها التلغرام. وارتعش صوت «تينسي» وهي تقرأ.

- الحرية غداً.

- عانقيني يا بنيّتي!

تعانقتا. وانضمّت السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» سريعاً إلى العناق.

تعانق الأربعة وصاح السيد «خيراردو»:

- سنذهب الآن فوراً لنشتري الجريدة الرسمية.

فرذّت النساء الثلاثة:

- هيّا بنا!

أمسكت «بييتا» و«تينسي» بذراعي السيدة «ثيليا» لتمشي أسرع.

بسرعة، إلى «بويرتا ديل سول».

بسرعة، إلى كشك الجرائد.

الحرية غداً.

اشترى السيّد «خيراردو» الجريدة الرسمية. قلب الصفحات على

عجل.

نظرت النساء الثلاثة إلى الصفحات وهي تتوالى. شدّت «بييتا»

على يديها. أخذت السيدة «ثيليا» و«تينسي» تبكيان.

- ها هو! الرقم 1504.

وأمام الكشك قرأ السيد «خيراردو» القرارَ ذا الرقم 1504 كلمةً

كلمة.

رجتُهُ «بييتا»:

- اقرأه مرّةً أخرى يا سيد «خيراردو».

فعاد السيد «خيراردو» وقرأه مرةً أخرى في عرض الشارع وبصوتٍ عالٍ.

كان الأربعة ييكون.

وقبل أن يعودوا إلى البانسيون اتجهوا إلى كنيسة «القديس خوداس تاديو». ذهبت «بييتا» محتضنةً الجريدة الرسمية إلى صدرها. أرّت السيد «أبونديو» القرار المدموغ بتوقيع «فرانيسكو فرانكو» و«لويس كارريرو بلانكو»<sup>(1)</sup>.

قرار عفو بمناسبة ارتقاء قداسة البابا بولس السادس المقعد الرسولي.

تُشجّعنا المناسبات السعيدة على إشراك المحبوسين مع أهل بلدهم ليشعروا بنفس الفرح والسعادة، ونتأمل أن تُسهّم ذكرى المناسبة التي حصلوا على العفو بسببها في إعادة تأهيل المجرمين، وأن يعودوا إلى السلام الذي تهبه الحياة العائلية والاجتماعية، وهو الهدف الأسمى لنظامنا الإصلاحي.

الفرحة بارتقاء الكاردينال خوان باوتيستي مونتيني وذكرى البابا يوحنا الثالث والعشرين جعلت رئيس الدولة، الممثل الصادق للشعب الإسباني وما يكتنه من مشاعر الانتماء الذي لا تنفك عراه والإيمان التقوي بوريث القديس بطرس، يعلنُ العفو العام توقيراً منه لشخص البابا الجليل ولعظمة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة.

---

(1) لويس كارريرو بلانكو: كان الذراع الأيمن لفرانكو وكان يعدّه لوراثته النظام الفرانكوي من بعده. عينه فرانكو رئيساً للوزراء سنة 1973 وسرعان ما اغتالته منظمة إيتا بتفجير سيارته ليموت كارريرو بلانكو قبل فرانكو.

كان العفو مكوّناً من ثماني موادّ تفصّل المنافع التي تتحقق من كل مادة. جاءت حالة «خايمي» تحت الفقرة «د» من المادة الأولى.

أشارت «بييتا» إلى الفقرة بإصبعها:

- انظر يا سيد «أبونديو»، انظر، اقرأ هنا، هذه الفقرة. الفقرة «د».

تُخَفَّف أحكام السجن بعشرين سنة فأكثر إلى السُّدُس، وتُسْتثنى من ذلك أحكام الإعدام التي خُفِّفَتْ لتصبح أحكاماً بالسجن ثلاثين عاماً.

عندما انتهى الأب «أبونديو» من قراءة الفقرة «د» من المادة الأولى، أرثته «بييتا» التلغرام.

«العفو في الجريدة الرسمية. غداً الحرية»

- رأيت؟ قلتُ لك إنه سيخرج مباشرة بعد اجتماع مجلس الوزراء، وجئت الآن لأطلب منك أن تفني بوعدك لي.

\*

\*

مكتبة

t.me/soramnqraa



كانت ساعة الحرية منظورةً عند الساعة صباحاً، ولكن مدير السجن تأخر. عدّ «خايمي» الدقائق واحدةً واحدةً وهو ينتظر مع مجموعته، حقيقته جاهزة، وذهنه مع «بييتا».

كانت الساعة قد قاربت الثامنة عندما قرأ أحد السجّانين اسمه:

- «خايمي ألكانتارا»، فليخرج وليأخذ معه كل أغراضه.

مشى «خايمي» إلى مكتب المدير مسرعاً ومستعجلاً معه الحارس. كانت «بييتا» تنتظره. كان مدير سجن «بورغوس» يحمل منديلاً قماشياً بيده ويمخط أنفه كل لحظة، وهو يوقع على شهادة إطلاق السراح المشروط باسم «خايمي ألكانتارا»، ووقع على ظهر الشهادة في خانة «شاهد وتمت الموافقة عليه»، وختم بخمسة أختام ووقع عدة مرات على تفاصيل التوجيهات التي ينبغي أن يلتزم بها السجين المُحرّر. بعد الساعة الثامنة ببضع دقائق استلم «خايمي» الشهادة وهو يفكر في «بييتا» قلقاً لأنه يعرف أنها ستكون قد وصلت أبكر من الموعد كثيراً. وضع الشهادة في جيبه. كانت ورقة مطوية، مجرد ورقة مطوية. مدّ يده مصافحاً مدير السجن. استمع بقلقٍ إلى توصياته وأمنيّاته الطيبة. «بييتا» في انتظاره.

نعم، كانت «بييتا» تمشي خارج السجن وتنظر إلى الباب. خطواتها قصيرة وبطيئة، ثم تستدير وتعود بعد أقلّ من ثلاثة أمتار. كانت تنتظره. وتنظر إلى ساعتها كل لحظة. وتقربها من أذنها. ربما نسيت أن تعبئها هذا الصباح.

لا.

لم تنسَ أن تعبئها.

عقارب الساعة تطيع الوقت، وتتحرك ببطء. كانت «بييتا» تسمع صوت تكتكة خفيف وهي تمشي دون أن ترفع عينيها عن الباب. مضت عليها ساعة ونصف الساعة وهي تمشي. مضت ساعة ونصف وكعب حذاءها يكرّر لحن الانتظار.

كان الحراس يراقبونها من مراصد المراقبة، وقد تعبوا من معاكستها: توقّفوا عن التصفير والتحذلق والتبسّم. «بييتا» لم تنظر إليهم قطّ. فعيناهما الزرقاوان لا تريان شيئاً سوى الباب وساعة اليد في معصمها.

الساعة الثامنة وعشر دقائق.

نظر الجنود أيضاً إلى ساعاتهم وقد أصابتهم عدوى نفاد الصبر من المرأة ذات العينين الزرقاوين المستحيلتين.

عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة والرّبع فُتحت البوّابة. وخرج ذاك الذي كان اسمه «باولينو» تاركاً وراءه في السجن سنواته التسع عشرة الأخيرة.

ركضت «بييتا» إليه.

رفع خصلة شعرها الشائبة عن جبينها.

- هل انتظرت كثيراً؟

- انتظرتُ الوقتَ اللازم.

نعم، لقد انتظرت كثيراً. وهي بحاجةٍ إلى عناق.

- كم أنت جميلة يا صغيرة.

- عانقني.

انتظر «خايمي» كثيراً.

انتظر كثيراً، وعانقها «خايمي».

كانا جسدين يلتقيان.

نبضين.

صاعقتين.

ولكن كان عليهما أن يركبا الحافلة وأن يسرعا لكي يلحقا بقطار الساعة التاسعة. تنتظرهما السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» و«تينسي» في محطة القطار في «مدريد»، ويتتظرهما السيد «أبونديو» في مجلس كنيسة «القديس خوداس تاديو».

لم ينفك لحظةً واحدة عناق «خايمي» و«بييتا».

لم يتوقف كلٌّ عن النظر في عيني الآخر. ولم يجدا كلمات ليقولاها لبعضهما.

ابتسما.

وعندما وصلا إلى مدريد رأتهما السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو» و«تينسي» مبتسمين وهما يترجّلان من القطار. عانق «خايمي» الجميع واحداً واحداً، عانقهم عناقاً طويلاً. كانت «تينسي» ترتدي قرطي أمّها.

- كنتُ مع والدك عندما اشترى هذين القرطين.

- حقاً؟

- نعم، اشتراهما من «أثواغا».

وتذكّر «خايمي» صورةً لـ «أورتينسيا» كانت ترتدي فيها هذين القرطين وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها.

قبّل «تينسي» على خدها، ومرر أصابعه على قرطيها.

ولكنه لم يقل شيئاً. لم يقل إن «أورتينسيا» يومَ حصلت على القرطين رفعت طفلاً ليس ابنها، وصاحت قائلةً إنّها ستنجب طفلاً مثله. ذات يوم. ثم صوّرها هو.

- الأب «أبونديو» ينتظرهما، علينا أن نُسرِعَ لأننا سنمر أولاً على البانسيون.

كان الأب «أبونديو» ينتظر. و«بييتا» تريد أن تغيّر ملابسها قبل أن تذهب إلى الكنيسة.

ارتدت بدلةً من سترة وتنورة رماديتين وطرحهً قصيرةً أهدتها إياها الإشيينة والإشبين: السيدة «ثيليا» والسيد «خيراردو».

كان الشاهدان ينتظران عند باب الكنيسة: «إيزابيل» ابنة أخ السيدة «ثيليا»، و«مانوليتا» البائعة في متجر «بونتيخوس».

عندما دخلت «بييتا» الكنيسة متأبطةً ذراع «خايمي» أدارت رأسها إلى اليمين، ثبتت طرحتها وابتسمت للقديس. ابتسم «خايمي» أيضاً وهو ملتفتٌ إلى اليمين، وقبل إبهام «بييتا» وهو يغمز بعينه للقديس شفيع المستحيلات.

مشى موكب العرس إلى مجلس الكنيسة الذي ملأه السيد «أبونديو» بالأزهار.

العروسان.

الإشيinan.

«إيزابيل».

«مانوليتا».

حملت «تينسي» خاتمي الزواج.

بارك الأب «أبونديو» الزواج:

- باسم الأب.

وعندما خرج الموكب من قاعة الكنيسة الرئيسية تجاه الشارع استوقفهم الأب «أبونديو».



وبصوت عالٍ في الكنيسة: صلى أمام المذبح الأكبر للزوجين.  
وعندما خرجوا من الكنيسة تلقى العروسان هدية من القسيس:  
قُرعت الأجراس.

ثم هبت عاصفةٌ صيفيةٌ.

هطل المطر.

تدفق الماء من فتحات طرحة «بييتا» وكأنّ الطرحة هي المطر كله.  
وعند المشي رشت قدما أحدهما الماء على الآخر. بحار. برك.  
برك.

نعم.

ذهب السيد «خيراردو» والسيدة «ثيليا» و«تينسي» مباشرة إلى  
بانسيون «أتوتشا».

ذهبت «إيزابيل» و«مانوليتا» لاستلام كعكة العرس التي طلبوها  
من محل الحلواني القديم «إل بوثو»، طلبوا كعكةً للعرس مزينةً بأزهار من  
الزبد وبخطوط من الميرينغي، أعدّها صاحب المحل السيد «خوليان  
ليال» شخصياً.

تمشى العروسان الجديدان وحيدين تحت المطر. وحيدين، مبللين  
ومبتسمين. اتجّها إلى «بويرتا ديل سول» وهناك اشترى «خايمي» سترة  
وحذاء. مسح بأصابعه الماء عن وجه «بييتا». تبللت أقدامهما في برك الماء.  
عندما خرجا من متجر الأحذية رأت «بييتا» خطوات «خايمي»  
الحذرة، ورأت كيف يعثر وهو ينظر إلى البعيد ويستند إلى ذراعها.

- كل هذه المساحات المفتوحة أمامي تُعرقل قدمي.

- إنه الحذاء، لم تعتدّ عليه بعد.

تناولوا العشاء في مطعم بانسيون «أتوتشا» احتفالاً بالعرس.

استصعب السجين المحرّر الأكل بالشوكة والسكين. وأكّد له السيد «خيراردو» أنه سيسترجع مهارة الأكل بها قريباً. وقال له إن زمن شرب الحساء من طرف الإناء والأكل بالملعقة قد انتهى.

نعم، انتهى زمن الشرب من طرف الإناء والأكل بالملعقة.

ابتسمت «تينسي». ظلّت تنظر إلى «خايمي» بإعجاب ولم تتوقف عن طرح الأسئلة. بعض الأسئلة عن أمها، وبعض الأسئلة عن أبيها.

- قالت أمي في دفترها إنك أنت من علّمها الكتابة، وأن والدي كان شجاعاً.

فأجابها «خايمي» أن والدها كان شجاعاً وأمها كانت شجاعةً كذلك، وساعد «بييتا» على تقطيع الكعكة.

- دعيني أرافقكما إلى المحطة.

ستبقى «تينسي» في «مدريد» لتستمر في النضال مع الخلية، ولتساعد جدّها وجدّتها في البانسيون.

- نفضّل أن نتوّدع هنا.

توادعوا في البانسيون وأخذت «تينسي» تبكي.

- اكتبي لي عندما تصلين يا أمي.

بكت السيدة «ثيليا» و«بييتا» أيضاً.

نزل العروسان الدرج ممسكاً أحدهما بيده يد الآخر.

كررت «تينسي» طلبها مرة أخرى وهي تنظر إليهما من أعلى:

- اكتبي إليّ.

وعدتها «بييتا» بأن تكتب إليها.

ابتسم «خايمي».

ابتسم الاثنان.

كانت تحمل في حقيبتها مفتاح بيت أبيها. وكان هو يحمل في حقيبته عنوان اللجنة المحلية للحزب الشيوعي في «قرطبة» وتعليمات إطلاق السّراح المشروط.

كان الليل قد حلّ. تمشّى الزوجان في شارع «أتوتشا».

نظرت «بيبيتا» إلى «خايمي». ولم يُنزل «خايمي» عينيه عنها. هطل المطر.

كانت عاصفة الصّيف تلك طويلةً جداً.





## التعليمات

أولاً: سيذهب السّجين مباشرةً إلى المكان المحدد له، وهو مدينة قرطبة في المحافظة التي تحمل الاسم نفسه، وسيبقى فيها حتى يحصل على إطلاق السراح النهائي إذا حسّنت سيرته وسلوكه.

ثانياً: لا يمكنه أن يخرج من المكان المحدّد له بدون الحصول على التصريح اللازم. إذا احتاج إلى أن يغيّر مكان سكنه فينبغي له أن يطلب ذلك من المجلس المحلي لإطلاق السراح المشروط، أو يطلبه في حالته من مجلس المحافظة، وعليه أن ينتظر البتّ في طلبه لتجنّب سحب العفو منه وإعادةه إلى السجن.

ثالثاً: حال وصول السجين إلى المكان المحدّد له، فعليه أن يمثّل أمام المجلس المحلي لإطلاق السراح المشروط، أو أمام مجالس المحافظات لإطلاق السراح المشروط إن كان مقيماً في عاصمة المحافظة، وستبلغه المجالس بالمكان الذي عليه أن يثبت حضوره فيه لاحقاً. سيتمّ إبلاغ اللجنة المركزية في حال عدم الالتزام بهذه الشروط، وستتخذ اللجنة الإجراءات اللازمة وقد تصل إلى الطلب -من خلال القنوات المعنية- من السيد وزير العدل أن يسحب إطلاق السراح المشروط من المستفيد. سيحمل السجين هذه الوثيقة حتى يعرّف عن نفسه، حتى تُصدّر له اللجنة المركزية بطاقة الحماية والوصاية التي نصّت عليها المادة 11 من القرار ذي الرقم 22 لشهر أيار (مايو) من سنة 1943.

رابعاً: ينبغي للسجين أن يرسل بالبريد، في اليوم الأول من كل شهر، تقريراً موجزاً على نفسه وأن يكتبه هو بنفسه. سيتمّ تقديم هذا التقرير إلى السلطات المذكورة آنفاً للاطلاع عليه ولإرساله إلى مدير السجن.

إذا تعطلّ السجين عن العمل، فعليه أن يبلغ بذلك المجلس المحلي أو مجلس المحافظة الذي يتبعه، وأن يشرح الأسباب لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتزويده بفرصة عمل جديدة في حال كان سلوكه حسناً.

عليكم التزام الصّدق في التقارير، وندعوكم إلى تجنّب رفقة السوء وكل ما قد يؤدي بكم إلى حياة متسيّبة أو إلى ارتكاب جرائم أخرى.

بورغوس، 20 من تموز (يوليو) 1963

وكان يومَ أربعاء.





«في البعيد  
رسمت العاصفة المطعونة  
الأفق الذي لا يُستعاض عنه»

لويس ألباريث بينير



أتقدم بالشكر إلى كل الأشخاص الذين أهدوا إليّ حكاياتهم.

دولشي تشاكون

أنا مدينةٌ بجزء كبير من هذه الرواية إلى امرأة قرطبية لها عينان زرقاوان مستحيلتان. مدينةٌ لـ«بييتا» التي ما تزال بديعة الجمال. ولـ«خايمي» الذي توفيّ إلى جوارها يوم التاسع والعشرين من شهر نيسان (إبريل) سنة 1976 في قرطبة، قبل لحظات من أن تأتي الشرطة لتأخذه كما اقتضت العادة كل عام لمنعه من الانضمام إلى مظاهرة الأول من أيار (مايو). قالت لهم «بييتا»: «ادخلوا وخذوه» وقادتهم إلى جثة «خايمي» الهامدة.

أنا ممتنةٌ لـ«فيلبي»، حبيب «أورتينسيا» الذي خرج من البيت وعمره واحدٌ وعشرون عاماً وعاد وهو في السابعة والأربعين.

و«إلبرا»، صاحبة الحقبة التي وصلت من «ترينخويكي» وكان فيها زيان عسكريان لوالدها وبنطالان عسكريان وقبّة.

و«إنريكي» ابن المرأة التي أعدمتم رمياً بالرصاص بعد الولادة.

و«ميرثيديس» التي بحثت عن «بورا» وعرفّفتني إلى «خوسي لويس سيلبا».

و«خوسي لويس سيلبا» الذي لبث ست عشرة سنة في «بورغوس».

و«إيزابيل سانت توليدانو» التي سجنّت في نفس الزنزانة مع الوردات الثلاث عشرة.

و«مانوليتا ديل أركو» التي مكثت خمسة أشهر وهي محكومة بالإعدام ثم مكثت ثماني عشرة سنة في السجن.

و«سوليداد ريال» التي حكمت عليها محكمة ضد الشيوعية  
والماسونية بالسجن ثلاثين عاماً.

و«خوسي أماليا بيا» التي شهدت تفجّع امرأة غرناطية لأنها لم  
تتعرف إلى ابنتيها، وشهدت ألم أخرى وبكاءها الذي يقطع القلب لأنها  
كانت بلا أطفال وبلغت سنّ اليأس في السجن.

وامرأة لم ترد أن أذكر اسمها أو اسم قريتها وطلبت مني أن أغلق  
النافذة قبل أن تبدأ بالتحدّث بصوت منخفض.

و«رافايلا» التي لم ترو قصّتها قط وتحدّثت معي في قادش.

و«خيراردو أنتون» أو «بيتو» الذي روى لي قصة نضاله مع  
«تجمّع مقاتلي الغيرريا في إكستريمادورا والوسط» بأدقّ التفاصيل وبكرمٍ  
لا حدود له.

و«ريمي» و«فلوريان»، ثم «ثيليا» و«الصغير» اللذين تعرفا في  
الغيرريا وعرفا الحب في «براغ».

و«الأشقر» و«كيكو» والقائد «ريوس» و«سولي» و«كارمن»  
و«إسبيرانثا» و«ماريا» و«رافاييل» و«أنتونيو» و«كارمن» لأنهم أغنوني  
بتجارهم.

و«خوسيه لويس مونيوث بيخارانو» الذي أعارني اسم جده  
«ماتيو».

و«فيرناندو أنتون». ولجميع أهالي «غايا بيردي». و«سانتا كروث  
دي مويا».

و«خوسيه إيثكييردو» الذي اصطحبني إلى معسكر الاعتقال في  
«كاستويرا» وإلى «كاسا دي لا سيرا» في «دون بينيتو». وجمعية شباب  
«خيري»، وإلى لقاءات في «إل تورنو» وفي «خيري».

و«روسا» التي أهدتني رواية «خوانا دونيا». و«روساريو رويث» التي بحثت لي عن كتاب «غيليانا دي فيبو» وعن وثائق عن الوردات الثلاث عشرة.

و«فيرناندو روميو ألفارو» على مقالته «الصمت المكسور» ولأنه أتاح لي أن أرى في بيتي رسائل «خوليتا كونيسا» الأصلية، التي تعرّفت بفضلها إلى «خوسيه أماليا بيا» و«سوليداد ريال» و«مانوليتا ديل آركو» و«إيزابيل سانت توليدانو».

و«أنتونيو» ابن أخي «خوليتا كونيسا» على كرمه، وعلى الصندوق الذي أوصله إليّ وفيه رسائل عمّته.

و«توماسا كوبياس» و«سوليداد ريال» و«خوانا دونيا» على شهادتهنّ المكتوبة.

و«خوسيه إيرنانديث» الذي رأى العلّم القوميّ بين شفتين ورأى تسريحة «أرريا إسبانيا».

و«خوان لويس» و«راكيل» و«توني»، لأنّ ذكرى كيس المخمل الأحمر تخصّهما.

و«نييبس مورينو» التي وجدت صورة وجه «أورتينسيا» في كتاب لـ«خوليان تشابيس».

و«خوسيه ماريا لاما» الذي عرّفني إلى «ليبرتاد» ابنة «خوسيه غونثاليث بارريرو»، آخر عمدة جمهوري لـ«ثافرا».

و«بينخامين» من «أليكانتي» الذي روى لي حكايته في شارع النخيل. وامرأة من «خيخون» رجّتني أن أروي الحقيقة.

و«مانويل سانتياغو» و«ماريا خوسيه مارتين» لشهادتهما في الجدة «ماريا دي لوس آنخيليس».

و«ماتيلدي إيروا» و«سيكوندينو سيررانو» و«فرانثيسكو مورينو غوميث» و«دانييل أراسا» و«خوليان تشابيس» و«خوسيه ماريا لاما» و«نيغل تاونسون» و«باول بريستون» و«جيرالد برينان» و«كارلوس جورونيس كاستيو» و«جوسيب ماريا سان مارتى» و«خايبير ماركوس أريبالو» و«هيو توماس» و«ماري ناش» و«خاكوبو غارثيا بلانكو-ثيرون» و«ميرتا نونيث دياث-بالارت» و«أنتونيو روخاس فريند» و«فيرناندو دياث-بلاخا» و«فرانثيسكو إسبينوسا» و«مانويل تاغوينيا» لأنني تعمّقتُ في ما كتبوه وأخذت معلومات قيّمة ووثائق عديدة.

وإلى موظفي المكتبة الوطنية، في أرشيف الصحف، ومكتبة إقليم مدريد في شارع «دكتور إسكيردو» الذين ساعدوني على إنجاز بحثي. وممتنة لـ«ماريا أخيو» التي تتبعت آثار حلم.

مكتبة  
t.me/soramnqraa



هامش 1 صفحة 59:

Ojos Verdes – Miguel Poveda



هامش 1 صفحة 65:

La Internacional (Español)



هامش 1 صفحة 201:

Carlos Gardel – Tomo y obligo – Tango  
1931



هامش 1 صفحة 269:

DIANA NAVARRO - Guajiras de la  
Tarántula



هامش إضافي: ألبوم يضم أشهر أغاني  
الحرب الأهلية الإسبانية

Canciones de la Guerra Civil Española /  
Rolando Alarcón / Album Completo



# دولتي شاكون الصوت النائم

لن تعطي ولا حتى يوماً واحداً ولا ميّناً واحداً من أجل التاريخ. الحرب لم تنته بعد، ولكنها ستنتهي، وقریباً. «الصوت النائم» قصة انتظار طويل. إسبانيا التي تنتظر الخروج من تحت ركام حرب قادتها إلى العزلة. سجينات ينتظرن الحرية أو النصر أو الإعدام. حبيبة تنتظر الحبيب العمر كله. وطفلة تنتظر أن تكبر لتكمل ما لم يكمله والداها. ومنفيون ينتظرون العودة إلى الوطن أو إلى أي شيء يشبهه.



تروي «الصوت النائم» قصة أربع رفيقات التقين في سجن «لاس بينتاس» للنساء في مدريد بعد نهاية الحرب الأهلية الإسبانية، هنّ «أورتينسيا» و«إليبرا» و«ريمي» و«توماسا»، وبحكاياتهنّ وآلامهنّ وخساراتهنّ وانتصاراتهنّ الصغيرة يروين قصة حرب ما زال جمرها يحترق تحت الرماد حتّى اليوم.

دولتي شاكون: روائية وشاعرة وكاتبة مسرح يسارية إسبانية، ولدت عام 1954، وتوفيت عام 2003. لها في الشعر: (سوف يريدون تسميتها)، و(كلام الحجر)، و(اقتل الملاك)، و(أربع قطرات)، و(ضد فقدان هبة الطول)، التي فازت بجائزة مدينة إيرون. ولها في الرواية: (بعض الحب لا يقتل)، و(سماء الطين)، و(الصوت النائم). و(بلانكا تطير غداً)، و(حدثني يا موسى عن ذلك الرجل). ولها موقف شجاع ضدّ غزو العراق وقد انضمت مع خوسيه ساراماغو إلى حركة ثقافية مناهضة للحرب.